أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من شرفات التاريخ

الجزء الثانى

Looloo
www.dvd4arab.com

د. محمد رجب البيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم على رسوله الكريم وبعد :

فقد لاقت القصص الإسلامية التى أصدرها عن طريق المؤسسة العربية الحديثة صدى كريمًا لدى القراء ، وطلب منى نفر من ذوى الفضل أن أواصل إصدارها على هذا النمط السهل الميسّر دون إجحاف بحقائق التاريخ .

وتلبيةً لهذه الرغبات الكريمة ، أُقدّم الجزء الثانى من كتاب (من شرفات التاريخ) راجيًا أن يسدّ فراغًا فى محيطه ، وسائلًا الله أن يوفقنى إلى كتابات أخرى تنحو هذا المنحى اليسير .

د . محمد رجب البيومى

Looloo
www.dvd4arab.com

إسلام عدى بن حاتم

ـ ١ ـ

جلس عدىّ بن حاتم فى ملإ من طيئ، وكان سيدًا مطاعًا، له المال والإبل والعبيد، فأخذ يتسمّع الأنباء عن سرايا المسلمين إلى القبائل الضاربة فى أحشاء الجزيرة، إذ يدعون إلى الإسلام كما جاء به نبيهم محمد بن عبد الله القرشى المكىّ، وقد أتمّ الله عليه نعمته، فانتصر فى حروبه شرقًا وغربًا، ثم هو عادل أمين منصف، لا يميّز بين الفقير والغنى، بل إن الضعيف لديه فوق القوى حتى يأخذ الحق منه !

قال عدىّ: ماهذا ؟ لا يميّز بين الفقير والغنى، والضعيف عنده قوى حتى يأخذ الحق له، وأنا سيد مُطاع، ولى الأمر النافذ، أبعث عبيدى فيغيرون، ولى المرباع مما يغنمون، وأقضى بين المتنازعين فى طيئ، فلا يخالفنى أحد إن قضيت كما أشاء ! ثم إنى نصرانى أدين بدين المسيح، ولى أصدقاء من ملوك الشام بنى غسّان، أرحل إليهم فيعرفون قدرى، ويذكرون مآثر والدى حاتم سيّد كرماء العرب فى البادية والحضر، والله ما أبغض شيئًا كما أبغض حديث الإسلام، ولا أمقت رجلًا كما أمقت هذا الذى جاء، ليجعل العبيد مع السادة، على صراط سواء.

قال له أحد جلسائه، ولكن فريقًا من سادة طيئ قد آمن

Looloo
www.dvd4arab.com

بدعوته، وقد خف إليه ملأ منهم بقيادة زيد الخيل فرجعوا مسلمين تائبين !

قال عدىّ: عجبًا ! أيذهب زيد الخيل، وهو فارس العرب جميعها، لا فارس طيئ وحدها، ليلقى زمامه بيد رجل مكىّ من قريش، قد مدّ سلطانه على يثرب، وتبعه من لا يدينون بدين المسيح ! ليتنى أعرف ما كان من أمر زيد مع من يزعم أنه نبى بعد عيسى بن مريم !

فردّ عليه صاحبه: علمنا من أصحاب زيد، أنهم اتجهوا إلى المدينة، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد، وجلسوا قريبًا من رسول الله حيث يسمعون صوته. فلما نظر إليهم قال لهم: أنا خير لكم من العُزّى، ومما تعبدون من دون الله، فقام زيد الخيل ـ وهو من أعظمهم خلقًا، وأحسنهم وجهًا ـ فقال له محمد وهو لا يعرفه: «الحمد لله الذى أتى بك من حزنك وسهلك، ويسّر قلبك للإيمان» ثم قبض على يده وقال: مَن أنت، قال أنا زيد الخيل بن مهلهل، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله. فقال له محمد: بل أنت زيد الخير، وما ذكر رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فبايعه هو وصحبه، وأسلمت الصفوة من طيئ.

قال عدىّ: ولكنّى لا أسلم، ثم نادَى أحد غلمانه فقال له: لا أبا لك، أعدد لى من إبلى أجمالًا ذُلُلًا سمانًا فاحْبسْهَا قريبًا منى، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فاعلمنى، لأرحل بأهلى إلى جبيلة بن الأيهم ملك غسّان، إذ يطيب لديه المقام، ويمنعنى من بنى قريش !

ولم تمض أيام حتى تحقق ما ظنّ عدى، فجاء غلامه يصرخ: جاءت خيل المسلمين يقدمها على بن أبى طالب، وهى تدعو إلى الإسلام، وتفرض الجزية على من يأبى ! فدهش عدىّ، وسار بأولاده متجهًا إلى الشام حيث دبّر من قبل، ذاهلًا عن أخته سفّانة بنت حاتم، وفى وهمه أن جبيلة بن الأيهم سيأخذ بناصره، ويرسل معه من يحميه فى طيئ فيقف حائلًا دون امتداد الإسلام، وراعيًا لمن خالف ولم يذعن.

وما كاد عدىّ يلقى رحله لدى الغساسنة حتى فوجئ بما لم يتوقع، إذ وجد ملكهم الكبير ينتفض رعبًا من المسلمين، بعد غزوة تبوك، فقد أجفل سيده هرقل عن لقاء المسلمين، وضرب رسول الله الجزية على متنصرة العرب، وذهبت سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فأسرته وفتحت مدينته، وجعل عرب الشام يطلبون الأمان فى ظلّ محمد، وقد يئسُوا من قوة الرومان، فعاهدهم على السلام وكتب لهم أمان المصالحة ! فماذا عسى أن يصنع عدىّ، وقد اهتزّ تقديره للأشياء، وتلاشت ظنونه فى قوة هرقل، وبأس بنى غسّان ! إنه انتبذ بمن معه مكانًا أمينًا فى جوار بعض المتنصّرة من العرب بدومة الجندل شاردًا بتفكيره إلى حيث لا يستقر، فقد كان عزيزًا منيعًا فى ملئه من طيئ، لديه المال والكراع والعبيد، وإذا لم يكن يريد الإسلام فلا أحد يجبره عليه، ولكن عليه أن يدفع الجزية لمن يقومون بحمايته، ويحافظون على كيانه، وهى ليست ضريبة تؤخذ بغيًا، ولكنّها عوض عن جهاد يقوم به من يبذل الدّم، وهو أغلى من المال ! لقد حار الرجل فى أمره، ولا يدرى ماذا سيصنع !

Looloo
www.dvd4arab.com

ولم يلبث أن وجد الحل، فقد علمت أخته سفّانة بنت حاتم بمقامه فى دومة الجندل، فرأت أن تذهب إليه لائمة معنّفة حين تركها ورحل بأهله وأولاده، وكأنها ليست ابنة أبيه، وكان الرجل منصفًا فقال لها: لا عذر لى يا سفّانة، ولكنه قدر كتب علىّ وعليك.. وأرجو أن أسمع منك ما يضىء لى الطريق، فقالت سفّانة:

لقد جاءت خيْل على بن أبى طالب، فصبّحت القوم، واستاقت الخيل والإبل والناس إلى رسول الله، فلما عرض الأسرى بيثرب نهضت إليه فقلت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن أردت أن تخلّى عنى، ولا تشمت بى أحياء العرب، فإن أبى كان سيد قومه، يفك العانى، ويقتل الجانى، ويحفظ الجار، ويحمى الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبًا، أنا سفّانة بنت حاتم طيئ.

فقال رسول الله: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا، ولو كان أبوك مسلمًا لترحّمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، ثم قال: ارحموا عزيزًا ذل، وغنيًا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال، وامتنّ علىّ فأطلق من معى تكريمًا لى، فاستأذنته فى الدعاء له، فأذن لى فقلت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمةً عن كريم قوم، إلّا جعلك سببًا فى ردّها عليه.

قال عدىّ: هل امتن على القوم فأطلقهم من أجلك؟ فقالت نعم، وإله محمد، فقال عدىّ: وبماذا تشيرين علىّ؟

قالت أرى أن تذهب إلى هذا النبى قبل أن تعلقك حبائله، فإنى رأيت هديًا ورأيًا، سيغلب أهل الغلبة، ورأيت خصالًا تعجبنى، رأيته يحب الفقير، ويفكّ الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود منه ولا أكرم، فإن يكن نبيًا فللسابق فضله، وإن يكن ملكًا فلن تزال فى عز ملكه!

قال عدىّ: هذا ما انتهيت إليه يا سفّانة، وسأرحل إلى يثرب منذ الآن.

- ٢ -

خف عدىّ إلى يثرب، وفى خواطره شجون تتضارب، فهو تارة يتخيّل رسول الله غاضبًا ينقم عليه هروبه واستخذاءه فيعامله بما يعصف بمكانته لدى نفسه ثم لدى قومه، حين يطير النبأ فى الناس، وله خصوم سيتداولون ما كان، ويقارنون بين لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد الخيل ولقائه لعدىّ، فيروون من الثناء المستطاب لزيد ما شرّفه حيًا، وما سيظلّ ذكره متردّدًا فى أفواه لا تنسى حرفًا واحدًا مما يقول رسول الله، ثم يتجه عدىّ بتفكيره اتجاهًا آخر، فيقول إن سفّانة تحدثت عن شمائل النبى بما يروق ويعجب، وروت أنه أطلق قومها من أجل أبيها، وأنا عدىّ بن حاتم، فلابد أن يشملنى ما شمل أسرى طيئ من قبول وصفح، ثم إنى أعلم أن أناسًا من المشركين شاقّوا الله وعصوه، وحاربوا الإسلام فى مكة، حتى ضاقت به، فهاجر النبى إلى المدينة فرارًا ممّا يلقى، ثم حاربوه فى غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وغيرها، ومنهم من تولى زعامة الحرب، فرسم الخطط، ودبّر المكايد، وساق

Looloo
www.dvd4arab.com

الجيوش، ومع ذلك فقد عفا رسول الله عنهم جميعًا، وأنا ما حاربت، ولا دبّرت، وظنّى تبعًا لذلك أننى أحق بالقبول من هؤلاء، هكذا كان عدىّ بن حاتم يفكّر فى طريقه إلى المدينة حتى وجد نفسه فى مسجد رسول الله، وقد تقدّم إليه معرفًا بنفسه، فقال فى أدب: من الرجل؟ فرد: عدىّ بن حاتم، فعرف فى وجهه صلى الله عليه وسلم ما ينبئ عن الارتياح، وكأن عبئًا ثقيلًا انزاح عن كاهل عدىّ، فلم يعُد لتشجونه الثائرة مجالٌ تضطرب فيه، ورسول الله يعرف كيف يعامل الغريب الوافد، إذ من شمائله الكريمة أن يؤنس وحدته، ويذهب وحشته، فقال له! هيّا، وسار معه فى الطريق إلى منزله، إنه إلهام من الله لرسوله، حيث أخذ يعطى للزائر الوافد من الشواهد العملية ما يدلّ على أن الرسول نبى صاحب رسالة إنقاذ، وليس ملكًا ينشد السيطرة والجاه، وأى دليل يقتنع به السيد الوافد أكبر من أن يرى امرأة مسكينة تنادى رسول الله وهو متجه إلى منزله، لتسأله عن بعض شأنها، فيقف معها طويلًا سائلًا عن حاجتها، وعاملًا على قضاء مآربها، أى ملك يقف للمساكين فى رعاية وعطف، ويسير مع ضيفه دون حرس من جند، أو حاشية من أتباع، هذه إحدى دلائل النبوة، ثم تلتها دلالة ثانية حين وصل عدىّ إلى منزل مضيفه، لم يجد أثير الفراش، ولا عزيز الرياش، وإنما وجد حجرة خالية ليس بها غير وسادة من جلد قد حشيت ليفًا، فتقدم بها رسول الله إلى عدىّ ليجلس عليها، وجلس هو على الأرض! أهذا نبى أم ملك؟ ثم جاءت الدلالة الثالثة، حين بدأ رسول الله الحديث، فتكلم كلام من يعرف عن عدىّ كل ماضيه، فقال له،

ألم تكن تأخذ المرباع من الأموال، وهذا ما لا يحلّ لك فى مذهبك، وأنت تتعبد على دين المسيح؟ فرد عدىّ بالإيجاب إذ لم يجد مجالًا للكذب، فانتقل رسول الله إلى إيضاح ما يجول بخاطر عدىّ، دون أن يقدر على الإفصاح به، فقال صلى الله عليه وسلم، لعله يا عدىّ بن حاتم إنما يمنعك من الدخول فى الإسلام ما ترى من حاجة المسلمين، فوالله ليوشكن المال أن يفيض عليهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من كثرة عدو المسلمين وقلة عددهم، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله، ولعلّه إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين أن ترى الملك والسلطان فى غير المسلمين، وأيم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت! هذا ما قاله رسول الله لعدىّ فى منزله، وهو ما قذف بعدىّ إلى محيط من الدهشة المذهلة، لقد كان حقًا يفكر فى أمر الإسلام بينه وبين نفسه، فيقول كيف سينشر هذا الدين الجديد فى الآفاق، وأهله قلّة محصورة فى إقليم من الجزيرة العربية، لا يساوى شيئًا إذا قيس بأطباق الأرض، فرد عليه الرسول بأن أوضح له بأن الإسلام سيغمر الآفاق المترامية حتى تسير المرأة من القادسية حاجّة بيت الله لا تخاف من أحد، واختار الرسول المرأة دون الرجل، لأنها أضعف وأخوف فإذا ذهب عنها الضعف وفارقها الخوف، فالرجل أولى وأجدر، كما كان عدىّ يفكّر فى افتقار المسلمين وقلّة المال لديهم إذا قيسوا بملوك الأرض، والمال باب الجاه، وركيزة السلطان، فقال له الرسول، إن الفقر الذى على

Looloo
www.dvd4arab.com

المسلمين اليوم مؤقت بميعاد، وسيظلّ يوم قريب يفيض فيه المال لديهم، حتى لا يجد من يأخذه! ثم هو قد فكّر فى عظمة قيصر، ومنعة كسرى، وكيف للإسلام بالانتصار على أكبر مملكتين قويّتين تحكمان العالم، فقال له الرسول: وأيم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت! كيف أدرك الرسول خواطره وهى دفينة فى صدره، فأجاب عنها بما يشفى الغليل! إنها النبوة الصادقة لا محالة، وإذنْ فالإسلام حق، ولابد أن ينضوى تحت لوائه، بعد أن اقتنع أكبر اقتناع! وقد كان.

وانتقل عدىّ من المنزل الشريف إلى المسجد ثانية، فوجد جماعة ينتظرون رسول الله سائلين عن التصدق بالقليل، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (لكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل، بصاع أو ببعض صاع، بقبضة أو ببعض قبضة، وإن أحدكم سيلاقى الله فيسأله: ألم أجعلك سميعًا بصيرًا؟ ألم أجعل لك مالًا وولدًا؟ فماذا قدّمت، فينظر بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فما يجد شيئًا، فما يتقى النار إلا بوجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة لينة، إنى لا أخشى عليكم الفاقة، لينصرنكم الله - أو ليفتحنّ عليكم - حتى تسير الظّعينة بين الحيرة ويثرب، وما تخاف).

سمع عدىّ حديث الرسول لأصحابه، فنزل من نفسه منزلة الماء من ذى الغلة، نقع أوامًا وشفى غليلًا، ثم ودّع المدينة، وسار إلى منزله الأول بمضارب طيئ ليجد من سبقوه إلى الإيمان يستقبلونه فرحين.

- ٣ -

آمن عدىّ عن اعتقاد، فصار الإسلام آثر عنده من أهله ومن نفسه، وصار يحث قومه على تعاليم الحنيف، وحفظ القرآن، آسفًا أن تأخر إسلامه، فلم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته، وقال لقومه: أريد معارك إسلامية تسبق فيها طيئ إلى رفع اللواء كما سبق المهاجرون والأنصار، وقومه يقولون، لو أقدمت من قبل لكنا من خلفك، ولعل لله حكمة فى تمهلنا، ألست تذكر أن الإسلام سينشر ربوع الروم وبلاد فارس، ولن ينتشر إلّا بقتال الكفر، ونحن متربصون لنجاهد.

ثم حانت المعركة الأولى حين قامت حروب الردّة، فقد انتقضت قبائل الجزيرة على الإسلام انتقاضًا، كاد أن يحدث أعنف الزلزال، لولا إيمان أبى بكر، فقد عرف أن الله ناصر دينه، مهما تألبت الجموع، وعارض من دعا إلى الاعتصام بالمدينة ونبذ القتال، فقال قولته الشهيرة: والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتُهم عليه! ومن ثمّ توجهت جيوش الإسلام إلى شتى القبائل، وتوجّه خالد بن الوليد، على رأس من خفوا لمحاربة المتنبئ الكاذب طليحة الأسدىّ، حيث ادّعى النبوّة، والتف حوله ذوو المطامع، ومنهم من قال لأن نتبع نبيًا من أسد وطيئ خير من أن نتبع نبيًا من قريش، واستمع عدى إلى مايقال، فعرف أن المرتدين كذّابون يلتفون حول كذّاب، وآن أوان الجهاد الذى يتشوق إليه، ولكنه كان ذا حنكة عاقلة، وتفكير أريب، إذ آثر أنْ

www.dvd4arab.com

يبلغ بالرأى أضعاف ما يبلغه المجاهدون بالسيف ، فذهب إلى خالد بن الوليد ، وقال له إن طيئًا ذات فرعين كبيرين : هما الغوث وجديلة ، ولى برؤسائهما صلة وإعزاز ، فأجل هجومك ثلاثة أيام حتى أفعل ما أرى ، فإذا يسَّر الله الأمر وأقنعت من أعلم فقد كفينا من شر كبير ، قال له خالد : فماذا ستصنع ؟ قال سآتى إلى الغوث فهم ألين وأطوع ، وأبيّن لهم كذب هذا المفترى ، حتى يعرفوا طلحة الأسدىّ على حقيقته ، وما أزال بهم حتى ينفضوا عنه ، فينضموا إلى جيشك ، وهذه هى الأولى ، أما الثانية فسأذهب إلى جديلة وأقول لهم ماذا ستصنعون وحدكم ، وقد اقتنع الغوث بكذب طلحة ، ولئن قاتلتم جيش خالد فستقاتلون إخوانكم من الغوث وهم فى طليعة ، جيش المسلمين ، ولا يلبث الواحد منكم أن يرى صهره وصديقه أمامه وجهًا لوجه فيحار فيما يصنع ، قال خالد ، على بركة الله يا عدىّ ، فقد أوصانى أبو بكر بالاستماع إليك ، وهو يراك رجل صدق ومعروف ، قال عدىّ : حيَّا الله خليفة رسول الله ، وقد جاءت نوبتنا فى الجهاد .

اتجه عدىّ إلى زعماء الغوث ، فقال لهم : الإسلام منتصر ، وقد ذهب المسلمون من قبل لقتال الروم فى تبوك والبلقاء ودومة الجندل وذى أوان فانتصروا انتصارا كبيرا ، أفيثبت لهم طلحة وأكثر من معه لا يصدقونه ، ولكنهم خرجوا عصبيّة لا دينًا ، فإذا حمى الوطيس تركوه ولاذوا بشعاب الجبال ، فتنهزمون بانهزامهم ، وتدور عليكم الدائرة ، ويقع فى الأسر من سلم من الموت ، وتسبى الذرارى والنساء ! هذا هو المآل ، فماذا تنتظرون ، قالوا لعدىّ ، أشرت

بالخير ، وانتظر حتى نُرسل لأشياعنا فى جديلة ، فنكون جميعًا على كلمة سواء ! وبادروا فأتوا بأوليائهم من جديلة ، وسرّ خالد بما كان من عدىّ . فقال له : بلغنا نصف ما نهدف فهلمّ !

توجه عدىّ إلى جديلة فقال لهم ، لقد انضمت الغوث إلى خالد ، ومن ورائه عدد من المسلمين لا يحصى له عدّ ، وقد تحصّن طلحة ، وترك القتال لأصحابه زاعمًا أنه يسبِّح ربَّه ، ولو كان صادقًا لانتصر حين دعا النبوّة من قبل ، وزعم أن جبريل ينزل عليه ، فهزمه ضرار بن الأوزر ، وأنتم الآن تحاصرون بين شقى الرحى من المسلمين ، إذ جاءوكم من شمال ويمين ، فكونوا مع الكفة الراجحة التى فاء إليها إخوانكم من الغوث ، واتقوا قتل الرجال وسبى الذرارى والنساء ! فقالوا لعدىّ نعهدك ذا أمانة ، ونحن من ورائك فسر بنا إلى خالد ! ولحق بالمسلمين ألف راكب من طيئ .

ثم دار القتال فى أماكن لم يعرفها المسلمون من قبل ، فكان أعداؤهم يتحصّنون فى المغاور والكهوف ، حتى طال الأمد ، فقال خالد لعدىّ : ماذا ترى ؟ فقال عدىّ : الرأى أن تنتظر معى فى طيئ ، حتى أبعث إلى كل قبائلها ، فأجمع منهم أكثر مما معك ، وقد عجّل فجمع كثيرًا من الناس ، ولكن أسدًا وغطفان قد انضموا إلى جيش طليحة ، وقال أناس من طيئ ، إنّ أسدًا أصهارنا ، ولن نحاربهم ، بل نقتصر على غطفان ، فصاح بهم عدىّ : والله لو كان ولدى وإخوانى فى جيش طليحة لقاتلتهم حتى أبيدهم ، والأمر أمر إسلام وكفر ، لا أمر مصاهرة وأنساب ! ثم تقدّم إلى خالد بمن معه ، فتقدم المخالفون من

Looloo
www.dvd4arab.com

ورائه ، ودارت معركة رهيبة انتهت بخذلان طليحة وفراره ، ورجع الطائيُّون مسرورين يشيدون برأى عدىّ ، ويقولون له : أنت أحسننا نقيبه . لأنك خير مولود فى طيئ كفاها الخذلان ! قال عدىّ : كنت أرى ماسيكون بلحظ الغيب منذ شهدت محمد بن عبد الله ، إذ كان وجهه وجه نبى ، وقوله قول نبى ، وفعله فعل نبىّ ! أفيبلغ بى الهوس أن أقرن به كذّابا مثل طلحة الأسدىّ ! لقد جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله ، فلا نكوص ولا ارتداد .

انتهت حروب الردة بانتصار الإسلام ، وأحسّ عدىّ برد الراحة ، لأنه أدّى عملا بطوليًّا يحسب له فى سجلّ الوقائع ، وقد قال لقومه من طيئ : لن يفخر علينا أحد بعد أنْ كسبنا النصر بالرأى والسيف معا ، وإنى لأستعد لمثلهما !

فقال أحد سامعيه : وما مثلهما بعد اليوم وقد انهزم المرتدون فى كل موقعة ، وألقوا السلم عن قهر ، وفاز المسلمون برضوان الله !

فرد عدىّ : لقد وعد رسول الله أن تسير المرأة من القادسية إلى مكة آمنة فى كنف الإسلام ، كما وعد أن تكون قصور بابل فى حوزة المسلمين ، وإنى لأنتظر هذا اليوم وهو قريب !

ولم يتخلف ظنّ عدىّ ، فقد انتقل خالد من حرب الردة إلى فتح العراق ، وتدفقت الجيوش إلى لقاء القائد الفارسىّ هرمز ، وكان فى طليعة الغزاة أبطال عظام مثل المثنى بن حارثة وأخويه ، والقعقاع بن عمرو ، وعياض بن غنم ، وعدىّ بن حاتم ،

وتهيأ هرمز بمن لايحصون من الجنود فى غزوة ذات السلاسل ، ولكن ثقة عدىّ فى قول رسول الله ، جعلته يستهين بالفيلة الضخمة فوقها الفوارس المدرعون بسيوفهم الباترة ! ولم يكنْ رأى فيلا من قبل ! فحين رأى تردّد بعض المسلمين ، صاح بهم : النصر مكتوب ، وقد سمعتُ حديثه من رسول الله !

واشتعلت المعمعة بنيرانها الملتهبة ، فكان النصرُ للأبطال من أصحاب خالد ، وسجّل التاريخ أمجادَ المثنى والقعقاع ، وعدىّ ، وعياض ، بأحرف من ضياء ! وصاح عدىّ : الآن تسير المرأة حاجّةً من القادسية إلى مكة ، وغدا يا قوم سنحتل قصور بابل ، فلا مناص .. وقد كان .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

وامثنيــاه !!

ـ ١ ـ

جلست هالة إلى أُختها سلمى بنت حفصة التيميّة تسألها عن زوجها المثنى بن حارثة الشيبانى : لمَ يُطيل الرحلة مغتربا فلا يُرى بمنزله إلّا الحين بعد الحين !

فقالت سلمى : وما فى ذلك يا أختاه ! إن زوجى سيد قومه، بل سيد بنى شيبان جميعًا ، وله عليهم حقوق السيادة ، حين يحمى الذمار ويمنع الحريم، ويكسو العارى، ويطعم الجائع ! أفيظلّ قابعًا فى منزله ، لاينهض لمروءة، ولا يسير فى إصلاح ذات البيْن، ولا يجمع الأنصار ليوم القتال !

فردت هالة: أى قتال ياسلمى ! لماذا لانعيش فى أمن وهدوء ؟

فنظرت سلمى كالمستنكرة وصاحت: كأنك لاترين الخيول على شاطئ الفرات يركبها العجم من بنى فارس ، ليتحكّموا فيمن يرون من عرب بكر وربيعة ، ويرغموهم على حمل الأثقال، كما يصادرون بعض مايروقهم من الخيل والغنم والإبل ، وفينا نحن العرب من يساعدهم على الطغيان ! لقد شاهد المثنى وأخواه المعنّى، ومسعود، بعض مايفعل هؤلاء، فأقسموا على أن يقاوِموا القوم وجهًا لوجه، وقد دارت المعركة يوم الفرات، حين قاد المثنى بنى شيبان

ومن انضم إليهم من عرب السواد، ونازل الأعاجم بسيفه حتى شردهم مذعورين ، واختلطت دماؤهم بماء الفرات !

فقالت هالة : كانت معركة لا تنسى، ولكنى أخشى عواقبها المنتظرة، إذ أن الأعاجم لن يسكتوا عن هذه الكارثة، وسيدفعون إلينا بجيش جرَّار ، فماذا نصنع ؟

فابتسمت سلمى وقالت فى ثقة : وهل غاب ذلك عن المثنى وعن أخويه المعنّى ومسعود، إنّهم يسيحون فى ديار العرب، ليعدّوا العدّة ويجمعوا الأبطال، وقد عاد المعنّى ومسعود منذ أمد قريب، ومازلنا ننتظر أوبة المثنى، على أنى علمت من مسعود أن رحلته قد تطول !

فشخصت هالة متفحصة وجه سلمى ثم قالت: كأنه أبعد المسير ، فجاوز السواد إلى ماوراء نجد وتهامة، وصار بحيث لا تعلمين مأواه .

فعجلت سلمى تقول: بل أعلم إنه رحل إلى المدينة المنوّرة مشرق الدين الجديد، وقد رأى فى نبى الإسلام عزًّا للعرب، ومجدًا للقبائل، والمثنى رجل مروءة وفضل، وقد سمع آيات القرآن فلمست شغاف قلبه، إذ دعت إلى ما يحب من كريم الخصال، وشريف الخلال، وسيرجع ظافرًا بإذن الله ! معه الحزم والعزم، ومعه الثقة والإيمان، أنا أدرى به يا هالة ! فغدًا ستعرفين!

ـ ٢ ـ

لم تمض أيام حتّى رجع المثنّى إلى دياره، فسارع القوم إلى لقائه فى شوق، ولكنّ سحابة من التفكير الجاد، أخذت تعلو وجهه، وتثنيه عن الكلام إلّا قليلاً.

Looloo
www.dvd4arab.com

فصاح به أخوه المعنّى: ما هذا يا مثنّى، لم نكد نعلم مجيئك حتّى عمّنا السّرور، وهرعنا للقائك لنسمع ماجدّ من أنباء الإسلام فى مكة والمدينة، وكنّا نظن أنك لن تمهلنا لحظة واحدة، حتى تفيض وتسهب، ولكننا نرى فى وجهك حيرة لم نعهدها! لقد قارعت الأهوال من قبل فى أعنف مواقف البأس، فلم نر فى قسمات وجهك ما يدل على الأسى لحظة واحدة، ولكنك الآن على غير ما نعهد.

فنظر المثنّى نظرة طويلة ثم قال: صدقت فيما قلت يا معنّى، ولو لم تقل كلمة واحدة لقرأت فى وجهك كلّ ما قلت، كما أقرأ فى وجوهكم جميعًا ما تضمرون، وما سكوتى الآن إلا حصر للمعانى الكثيرة التى يموج بها صدرى، وأحاول أن أكشف عنها فى ترتيب واضح، كيلا ينتشر القول دون تحديد!

قال المعنّى: ومتى خالفك المنطق؟ أنت تقول كل شىء فى تعقل واتّزان، قل يا رجل، وهات ما لديك، فقد زدتنا شوقًا لما تكنّ.

فاعتدل المثنى فى مجلسه وتطلّع فى وجوه القوم كأنه يريد معرفتهم جميعًا مع إلمامه بمن تخلّف من كرام قومه، حتى إذا ملك زمام نفسه ابتدأ فقال:

لقد ذهبت إلى المدينة المنورة، وقابلت خليفة رسول الله أبا بكر، وأعلنت إسلامى عن حبّ واعتقاد، وسرّنى كل السرور ما لمست هناك من حرص على الحق، وحرب للباطل، ودعوة إلى الإخاء والتعاطف، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، كما سمعت من سيرة رسول الله ما جعل

هذه المعانى واقعًا مشهودًا لا اختلاف عليه، وعشت فى مهد الإسلام أيامًا هى أجمل ساعات العمر، وأنفس لحظات الحياة، ثم ودّعت الخليفة الراشد، بعد أن عاهدته على البر والتقوى، وجئت فرحًا أعلن لكم مشرق الدّين الجديد فى نفسى، ناقلًا شعاعه الوضيء إلى نفوسكم جميعًا، ولكنّى فى الطريق بين نجد والفرات سمعتُ ما أحزننى! سمعت أن قبائل من العرب قد ارتدّت عن الإسلام، وخرجت عن طاعة خليفة رسول الله، ولم تبد من الأسباب ما يجعل لخروجها وجهًا من الوجوه غير التحلّل من تبعات الرجولة والكرامة والعزّة، سمعت ذلك فأدركنى غمّ لا مزيد عليه، واشتعلت جمرة الغضب فى صدرى، وأنا ما انتظرت دون كلام بينكم الآن، إلّا لأخفّف بعض ما أعانى! حتى دفعنى المعنّى إلى الكلام.

صاح المعنّى: وماذا سمعت عن موقف أبى بكر من هؤلاء! أفصح يا مثنّى فالأمر خطير.

قال المثنّى: علمت أن المسلمين قد اجتمعوا للتشاور، فكان من رأى عمر بن الخطاب أن يتريث أبو بكر، فلا يعجل بالحرب، ومعه نفر ينحون منحاه، ولكن خليفة رسول الله، قد أعلنها مدويّة صارخة أنه لا تريث ولا انتظار، فهؤلاء مرتدون، ولا سبيل غير القتال، وفعلًا أعدّت الكتائب، وهيّئت الجيوش، وقد عزمت على أن أكون معكم على رأس الكتائب المجاهدة، لنؤدى حقّ الكرامة، ونعوّض ما فاتنا حين أسلم الناس فى الجزيرة، وتأخر إسلامنا عنهم، فتحملوا من أعباء الجهاد ما لم نشارك فيه بقلامة ظفر! لقد جاء أوان الاستدراك!

www.dvd4arab.com

سرت الحمية فى نفوس بنى بكر بن ربيعة آل المثنّى، وازدادت اشتعالاً فى صدور بنى شيبان، أقرب أقرباء البطل الباسل، وصاح مسعود أخو المثنّى وكان صامتًا يترقب :

يا قوم لقد أسفنا كثيرًا حين تأخرنا عن ركب الإسلام، ولم يكن منا أحد بين شهداء : بدر، وأحد، والأحزاب، وحنين، ومؤتة، وخيبر ! ووالله لقد كنت أعتزم الذهاب إلى المدينة لأبحث عن استشهاد فى معركة جديدة، وها هى ذى حرب الردّة قد قامت على قدم وساق، ففيم النكوص !

صاح المثنّى : أى نكوص ؟ كلّنا جنود فى الميدان .

انتهى المجلس المتحمّس، ورجع المثنّى إلى منزله، فوجد زوجه سلمى تستقبله باسمة، فقال لها : أنت تتكلّفين الابتسام يا سلمى، فأنا أعرف أنك غاضبة علىّ، إذْ ذهبت إلى ندوة بنى شيبان عند رجوعى قبل أن ألمّ بك، ولكنّى كنت فى شغل مُورق، وأردت أن أعجّل بلقاء القوم فأنفض ما لدىّ .

قالت سلمى : أنا سعيدة، أبتسم عن إخلاص لا عن تكلّف، وحين جاءنى النبأ السّار بمقدمك، حمدت الله على سلامتك وقلت : ما اتجه إلى الندوة مباشرة إلّا لأمر جلل، ولو كان فى طوقى أن أحضر مع المجتمعين، لسارعت إلى لقائك هناك، ولكنى أرسلت أخى «حابس» إلى الندوة، وقد جاء إلىّ منذ وقت قصير، وأخبرنى بكل ما دار، ففرحت لاعتزامك حرب المرتدّين، فقد تهيأ الميدان .

ابتسم المثنّى قائلًا : حيّاك الله وحيّا حابسًا أخاك، فقد شاركنا الرأى، كما وفّر علىّ أن أعيد عليك ما دار هناك، فأنا أعرف شوقك لأنباء القتال !

نظرت سلمى فى تودّد وقالت : أنباء القتال يا مثنّى ! شتّان بين معارك الأمس ومعارك الغد، لقد كنّا فى الجاهلية نقاتل لأمور هينة لا ترتفع إلى ذروة سامية، أما فى الغد فسنقاتل فى نصرة الإسلام، سنقاتل لارتفاع كلمة الله ! ستكون الشهادة تاجًا لمن استشهد، فتصير عقباه أجزل مثوبة من عقبى الحىّ المنتصر، لكم أتمنّى أن أصحبك فى حرب هؤلاء ! كما صحبتك فى يوم الفرات !

فقال المثنّى : كنت رئيس القوم يوم الفرات، فصاحبتك فى الحومة عن ارتياح، ولكنّ قيادة هذه الحرب ستكون للعلاء بن الحضرمى، قائد جيوش المسلمين بالبحرين، وقد اتفقت معه على أن أقود كتائب بنى شيبان، ولم يعن لى أن أتحدث عن النساء .

فقالت سلمى : لقد جاءنى الكثير عن أنباء الغزوات النبوية، فعرفت أن السيدات كنّ يغشين ميادين القتال، لمداواة الجرحى، وتهيئة الزاد، وإصلاح السلاح، وحمل مزاود الماء، وفيهنّ من جالدت بالسيف، وطعنت بالرمح، فالأمر صريح، وليس فى حاجة إلى استئذان العلاء، سأكون معك لأشد أزرك بالتشجيع، إذا عجزت عن أن أخوض حرّ الصراع !

ولم يكد ينتهى الحديث إلى هذا الموضع، حتى طرق طارق باب المثنّى، وعجلت سلمى باستقبال الوافد، فإذا هما : المعنّى بن حارثة، ومسعود بن حارثة، أخوا المثنّى ! فنهض البطل للقائهما، ولم يلبث مسعود أن قال : وفد الساعة رسول العلاء بن الحضرمى، ولم يبق مجال للانتظار، وقد شاع

Looloo
www.dvd4arab.com

الخبر فى منازل بكر جميعها، ولم أسمع غير صيحات الاستحسان، وأصوات التكبير تملأ الآذان !

قال المثنّى: يا قوم إن الأحداث تدفعنا، قبل أن نندفع، وإنّ من أمارات النجاح أن تجتمع بكر جميعها على رأى واحد، بل أن تجتمع النساء ليشاركن فى الحومة، فهذه سلمى تتأهب لمصاحبتنا، وإذا علمت نساء بكر فهنّ ناهضات واثبات ! إننا سنتجه للبحرين تحت قيادة العلاء، ولا ندرى لنا وجهًا بعدها، وإخالنا سنتبع المرتدين فى كل صقع حتى ينقشع الظلام .

ـ ٣ ـ

تحقق النصر فى حروب الردّة بعد أن واصل المثنّى جهاده بالبحرين متتبعًا آثار المارقين، حتى استولى على القطيف، وتابع الزحف إلى دلتا الفرات، فكان اسمه يسبقه فيوقع الذعر فى الفلول الهاربة، وله خيمة ينصبها فى كلّ صقع يتجه إليه، ومعه زوجه سلمى تساعده بالرأى والرمح معًا ! وهكذا أصبح لربيعة وشيبان قدرهما الراجح فى معارك الإسلام، وهو قدر يدفع إلى المزيد كى لا يقف عند حدّ .

قالت سلمى للمثنّى: وماذا سيصنع خليفة رسول الله بعد أن همدت حروب المرتدين ؟

فقال المثنّى: علمت أن الجيوش الإسلامية ستتجه إلى بلاد الشّام، لتحرّرها من الرومان، وكنت أود أن تتجه إلى فارس لتحررها من المجوس عابدى النار .

فعاجلت تقول: ولماذا لا تذهب إلى الخليفة فتقترح عليه أن

يعجّل بحرب المجوس، ونحن معه، إذ أنّ خبرتنا بالفرس ستكون عامل ترجيح !

فأطرق المثنّى بعض الوقت ! وقال لسلمى فى هدوء: لقد اعتزمت أمرًا لم أطلعك عليه بعد ! لقد اعتزمت أن أجمع القبائل العربية الضاربة حول الفرات جميعها، لأتقدّمها إلى منازلة العجم تحت راية الإسلام، لا سيما أن انتصارات حرب الردة قد زادت من حماسة هؤلاء، وسأجد نفسى أمام فريقين متواطئين، فريق العرب الذين لم يؤمنوا بالإسلام بعد، وقد ظلوا على ولائهم لسادتهم من الفرس، وفريق الأعاجم ذوى الغطرسة والاستعلاء، وسيظن هؤلاء وأولئك أنى لست وحدى، ولكنى قائد جيش الخلافة، فيمتلئون رعبًا وحذرًا، حين آخذهم على غرة فى المعركة الأولى، ستصل الأنباء إلى أبى بكر، فيمدنى بجيش الله !

قالت سلمى: إن أحلامك منذ عرفتك ستتحوّل إلى حقائق واقعة، جربت ذلك بنفسى معك عدّة مرات، وإخال هذا الحلم قريب التحقيق !

فرد المثنّى: قريب التحقيق أو بعيده، لا أبالى، لأنى فى معارك الإسلام قد ضمنت رضوان الله، حيًا أو شهيدًا، ولا أمل فوق ذلك، ولن يغلب جيش ذو عقيدة مخلصة، ومن أبطاله أُسود بكر، وربيعة، وتغلب، وشيبان !

وما مرّ أسبوع واحد حتى كانت كتائب المثنّى تنقسم إلى ثلاث فرق، وقد أخذت تُساحل الخليج الفارسى لتبلغ مصبّ نهرى دجلة والفرات ثلاثة فرق يقودها أبناء حارثة الشيبانى:

Looloo
www.dvd4arab.com

المثنّى، والمعنّى، ومسعود، فأُخِذَ الفرس على غرّة، وما ثبت منهم من أحد. وعادت جيوش المثنّى مثقلة بالغنائم، سعيدة بفرحة الانتصار!

هنا قال المثنّى لسلمى: لقد تحقق الحلم الأوّل، وطارت أنباء النصر إلى أبي بكر، وقد علمت أنه سأل قيس بن عاصم في دهشة: من هذا الرجل الفرد التي سرتنا وقائعه قبل أن يبلغنا اسمه، فقال قيس بن عاصم: إنه المثنّى بن حارثة الشيباني، رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، إنه المثنّى. فقال أبو بكر: ومن يأتيني به، فقد عرفته من قبل، إذ أعلن إسلامه وتهيّأ لنصرة الإسلام.

قال سلمى: وإذن فلا بد أن ترحل إليه، وستبلغ ما تريد! فقال المثنّى: ذلك ما اعتزمتُ عليه ولن أحيد.

ـ ٤ ـ

ذهب المثنّى للقاء الخليفة الراشد وهو في أيامه الأخيرة، فما رآه حتّى هشّ له ورحب، وكأنه تفرّس ما يجول بخاطره من المعاني، فقال له: جئت يا بطل شيبان وجنودنا تتجه إلى حرب الروم، فقال المثنّى: وماذا يمنع أن نأخذ منها بعضًا يشاركنا في حرب الفرس.

قال أبو بكر: ولماذا تتفرق الجنود في جبهتين، لنعمل على الائتلاف في جبهة واحدة، فإذا كتب الله النّصر، زاد الجند إيمانًا، ويمّموا شاطئ الفرات.

فانطلق المثنّى يقول: يا خليفة رسول الله، كان الفرس

ذوي هيبة في النفوس، قبل أن ننازلهم يوم الفرات، ويوم ذي قار! إذ كان انتصار العرب في هذين اليومين فاتحة سجل جديد، ثم كانت معركتي الأخيرة بعد حروب الردّة، فأذهلت الأساورة والمرازبة، وذوي التيجان الحمراء، فأخذوا يعملون لنا كلّ حساب، وقد اجتمع كسرى بذوي جنده، ليقول لهم: لا تستهينوا بالمسلمين، لأن العرب قد اعتزوا بالإسلام، وأرى ألا نترك الفرس يتجمعون ويعدّون الذخائر، انتظارًا لما يتوقعون! ولا بدّ من عون الخلافة بمدد يقف معنا، دون إبطاء.

قال أبو بكر: ومن أين أيها البطل؟ والجيش قد زحف إلى الشام.

فقال المثنى: علمتُ أن الخليفة أشار بعدم انتظام المرتدين في غزو الرّوم، وقد عادوا للإسلام حرمانًا لهم من ثواب الجهاد، ولستُ معه فيما أشار ونفّذ، لأن الذين رجعوا إلى الإسلام بعد الردة، يحسّون مرارة الندم، ويودّون أن يكفّروا عن مروقهم في حرب إسلامية تُبَيِّضُ وجوههم بعد سواد، فإذا أصدر الخليفة أمره بالتجاوز عن حربهم السّالف، فإنه يفتح الباب واسعًا للتوبة النصوح، وسيجد من يبذل نفسه طواعية ليحوز رضا الله بعد أن جابه بالعصيان! وأدار أبو بكر الفكرة في رأسه فاقتنع بها، وقال: على بركة الله يا مثنّى، قم إلى منبر المسجد وأعلن خطّتك في الهجوم، وأشع ما قرّرته من التحاق التائبين بالجيش الغازي، وما أسرع ما اهتبل البطل السانحة، فانتظر حتى حانت صلاة العصر،

Looloo
www.dvd4arab.com

وقدّمه عمر بن الخطاب، فاعتلى المنبر خاطبًا، وكان فيما قال: أيها الناس لا يعظمنّ عليكم لقاء هذا الوجه من الفرس، فإنا بنى ربيعة من بكر وشيبان، قد اتسعنا فى ريف فارس، وغلبنا الفرس على السواد جميعه، وما كان معنا أحد من أهل الجزيرة العربية، فإذا انضم إلىّ رهط من الفئة المؤمنة، فالنصر دان قريب!

ولأمر أراده الله مات أبو بكر قبل أن يرحل المثنّى بجيشه فنهض عمر بإعداد الجحفل المنشود، وجعل قيادته لخالد بن الوليد، ولم يحمل البطل الشيبانى فى نفسه شيئًا لإمارة خالد، إذ كان من التسامى بحيث قدّر رأى أمير المؤمنين، وأطاعه مرتاحًا قريرًا، فسيّان لديه أن يرأس الجيش، أو يرأس سواه، متى اجتمعت الكلمة على المنشود.

رجع المثنّى إلى عرينه، فأسرع بتهيئة الكتائب، وقدّم المعنىّ ومسعودًا أخويه لخالد بن الوليد، وقال إنّهما يخبران ساحة المنطقة، ويعرفان أماكن الكر والفر على شواطئ الفرات، ولخالد فراسة حازمة، فقد ناقش البطلين مناقشة الدارس المتفحص، ورأى أن يكونا رائديه فى المعارك المفاجئة، ولم يكن من خطّة سيف الله أن يضيع الفرصة بالترقب والانتظار، خشية أن يفطن العدو إلى نقطة ضعف لم تكن معلومة لديه، فيفاجئه بما يعوق نجاحه، فأمر بالزحف السريع، ودار القتال فى معارك الولجة، وذات السلاسل، والأنبار، ظافرة مكتسحة، وانتظر المثنّى أن يواصل مسيرة النّصر حتّى ترفرف راية الحق، ولكنّ عمر عجل باستدعاء خالد، ليقود معركة اليرموك بالشام، واستجاب القائد الظافر،

ونظر المثنّى، فإذا العبء يقع عليه وحده بعد أن قال له خالد: ارجع إلى إمارتك منصورًا، فأنت سيد الموقف، ولم يكن سيف الله يعلم أن أمرًا صدر من قيادة المدينة بتولية أبى عبيد الله بن مسعود.

إن النفوس الطاهرة ذات المعدن الذهبى الأصيل، لترتفع عن مطامع الأنانية المريضة، وبعض الذين فاجأهم تأمير أبى عبيد من أبطال بكر، وربيعة، وأسد، وشيبان، قد قدموا للمثنّى. وفى عيونهم ما ينبئ عن الاعتراض، وقد عرف البطل ما تكن النفوس، بل إن سلمى زوجته قد لمحت فى الوجوه ما ينبئ بالثورة، فلم تدع المثنّى يتكلم، بل صاحت بالقوم: لسنا فى الجاهلية كالأمس، ولكننا اليوم فى سبيل الله! سيّان أن يكون المثنّى وأخواه فى المقدمة أو الساقة، فعين الله تنظر والشهادة هى الموعد!

وفى الجبهة الأخرى أخذ رستم قائد الفرس يحشد عشرات الآلاف من أبطال المجوس مصمّمًا على أن يقذف بالحرب نهائيًا من أرض العراق، ومعه الخيول والفيلة والسلاسل، أما الخيول والفيلة فمما يتوقعان، وأما السلاسل فقد أعدّها ليربط بها الجنود فى المعركة، فلا يستطيع أحد أن يفرّ إذا التهبت النّار! ورأى المثنّى كثافة الجيش الفارسىّ إذ بلغ أضعاف أضعاف الجيش العربى، فتأكد أن فى استطاعة الكثرة الكاثرة أن تطوّق القلة القليلة بسياج لا تجد منه البراح، فأشار على أبى عبيد أن ينسحب من الحيرة إلى خفان، إذ يجد فى الصحراء ملاذًا للانسحاب إذا ضاق به الأمر، وكانت المشورة سديدة، فبلها القائد فى ارتياح، فانتقلت الحرب من ميدان إلى ميدان.

Looloo
www.dvd4arab.com

ليت أبا عبيد -رحمه الله- واصل استماعه لمشورة المثنّى، فقد اقترح البطل الشيبانى ألّا يعبر المسلمون الجسر إلى قتال الفرس، بل يتركهم كى يتقدّموا، فإذا اضطروا إلى الانسحاب لم يعق فريقهم مد الفرات، ولكنّ أبا عبيد صمّم على أن يتقدّم إلى الفرس بكتائبه، عابرًا جسر الفرات، وما درى أن الفيلة تفاجئ المسلمين لأول مرّة فى الميدان، وقد أحدثت الرعب فى الصفوف، وكان من الحزم أن يتفهقروا ليتدبروا الأمر، ولكنّ أحد المتحمسين من العرب، قد هدم الجسر، ليجبرهم على الانتظار، واندفعت الفيلة، فاندفع الفارّون إلى الماء غرقى فى لجّه المتلاطم، وأدرك المثنّى هول المأساة، فجازف بنفسه ومعه أخواه صامدين أمام المعبر ليبنى الجسر من جديد، وكانت بطولة خارقة، أسعفت الكثيرين، ولكن الضّحايا قد تهاووا قبل بناء الجسر، فبلغوا قدرًا يؤسى عليه، وفيهم القائد المتحمس أبو عبيد بن مسعود يرحمه الله!

وإذا كانت الحرب سجالًا، يوم لك ويوم عليك، فقد انتقم المثنّى ليوم الجسر بما حازه من النصر الظافر فى معركة البويب، وقد عرف جزع المسلمين من الفيلة، فأعدّ أمضى السيوف بأسًا، وتقدّم ليضرب الفيل المهاجم فى محجر عينه إذ لا يحول الجلد الصفيق عن إصابته، وارتاع الفيل ففر، ومن ورائه مئات الفيلة، وتركت المعركة للخيول والسيوف، وسقط مسعود أخو المثنّى صريعًا، فصاح المثنّى، يا بنى الإسلام كلّنا مسعود فلا تهنوا، هكذا الشهادة يا قوم! وأخذ يندفع وكأنه يطلب الشهادة عامدًا، حتّى تمّ النّصر، ولكنه عاد منه مثخنًا بالجراح!

أحسّ البطل أن يومه قد حان، لأنّ جراحه فى معركة البويب كانت أكثر من أن تحتمل، فدعا المعنّى أخاه، وزوجه سلمى، وقال فى صبر: لا أظن أجلى سيمتد، ولكنّى أسمعكم وصيتى الحربيّة للقائد الجديد، حين يفد من المدينة، فهو لا يعرف شيئًا عن طبيعة المكان، وعليه أن يحاذر ما وقعنا فيه من أخطاء، وأخذ يعدّد أمورًا كانت غائبة عن الحسبان، وفى تذكّرها ما يغيّر وجه المعركة، من هزيمة إلى انتصار، وكان وجهه موّتلقًا بالبشر وهو يتحدث! ثم نظر فوجد زوجه سلمى تجهش بالبكاء، فصاح بها، أتبكين يا سلمى وقد أتيت واجبى، وتطلّعت إلى رحمة الله! كلّا لن أراك غير مبتسمة، فأعدى سمعك لتنقلى عنى كلّ ما أقول.. ولم تك غير ساعات حتى صاح الصائحون، مات المثنّى فإلى رحمة الله!

ثم جاء بطل القادسية: سعد بن أبى وقاص، ليتولى زمام الأمر بعد خالد، وأبى عبيد، والمثنّى، فسارعت سلمى بنت حفصة التّيمية، والمعنّى بن حارثة الشيبانى للقائه، وقد بهراه بما أبديا من المشورة، وأظهرا من الإخلاص، فأخذ يترحّم على المثنّى، وقابل أبطال البويب فى قوة عن جهاد المثنّى وأخويه وزوجته بما ملأ صدره إعجابًا، وكان من تقاليد العرب حينئذ إذا ترملت زوجة قائد باسل، يبنى بها خلفه لتظلّ محفوظة الكرامة فلا تهون، وعرض سعد على سلمى أن يقترن بها! وقال إنه يريد أن يكون قريبًا من نفسها، فيعلم من أمور الحرب ما يجهل، وستكون صاحبة مشورته كما كانت عند المثنّى! ورأت سلمى أنّ الرجل فى حاجة إليها فأجابت!

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى يوم القادسية أصيب سعد بمرض عاقه عن القيادة، فأخذ يدير المعركة من نافذة القصر، وقد جالت الفيلة ببأسها الشديد فى قبائل أسد وبجيلة وبكر، فأحدثت فزعًا رهيبًا بين المسلمين، ورأت سلمى ماحلّ بالقوم، فامتطت فرسها صارخة «وامثنياه! ولا مثنّى اليوم للحرب»! وسمع المسلمون نداء سلمى، وعز عليهم أن تصرخ باكية، فتهاووا على الموت مستبسلين، حتى تم النصر بعد هول هائل لا يحد مداه، ورجعت سلمى إلى سعد، فقال لها: رحم الله المثنّى، فقد جلب النّصر ميّتًا، كما جلبه حيًّا من قبل!

قالت سلمى: يرحمنا الله جميعًا يا سعد!

★ ★ ★

مُعَاوِيَةُ يُنْصِتُ لِقَوَارِصِ الْمَلَام!

كانت مضارب الحجاج فى منى تعج بأصحابها، وكلّ يلتف حول نفر من صحابته يتسامرون ويتحدثون فيما جلّ أو هان من الأمور، وكان أكثر الأحاديث يدور حول أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، إذ جعل يغدق عطاياه على الناس فى موسم الحج، على نحو من الكرم لم يُعهد لخليفة من قبل، وفيمن نالوا عطاءه من قاسموه العداء، وكانوا شوكة فى جنبه فى مواقعه المتصلة أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، حتى لقد ظفر حجاج العراق بمثل ما ظفر به حجاج الشام، وكأنه لم يفرق بين صديق وعدوّ، بل جعل الجميع على حدّ سواء فى العطاء، وقد أخذوا يتساءلون عن هذا الفيض المتدفق: كيف سمح به معاوية، وهو يعلم أن فيمن أخذوا عطاءه من يكنُّون له البغضاء، ولولا أن العام عام الجماعة، وأن الحسن بن على قد تنازل عن الخلافة ليرأب الصدع، ويجمع الكلمة، لوجد مَن يُعيدها جذعة، حين يشق العصا ويدعو إلى الخلاف!

وقد جلس رجلان من ذوى الرئاسة فى عهد معاوية، ينتبذان مكانًا بعيدًا فى خيمة هادئة، وهما من أقرب المقربين إلى أمير المؤمنين يستمع إليهما مستشيرًا، ويأخذ برأيهما منتصحًا، حتى ما كان يشذ عن مقترحهما فى شىء، جلسا يتحدثان عن هذا الكرم الغامر الذى تدفق من عطاء الخليفة، وقد أغفل مشورتهما فيما بذل، مع أنهما موضع سرّه وجهره،

www.dvd4arab.com

ولو استشارهما لأشارا عليه أن يقتصد، فلا يبالغ فى الإسراف، وأن يخصّ أنصاره بالعطاء الجزل، فإذا أراد أن يستميل خصومه، فببعض ما يذهب الجوعة، ويشفى الغلة، أمّا أن يسبحوا فى فيوض من العطاء، على نحو لم يعهدوه من قبل، فهذا ما لم يكونا يستطيعان المشورة به! ولكن معاوية هو معاوية، لن يُدرِكَ له غور فيما يأتى ويدع، وقد حارا فى مسلكه دون اهتداء.

هذان الرجلان هما الداهيتان الأريبان: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ولكل منهما اعتقاده الخاص ببعد نظره، وعمق حيلته، ووفرة دهائه، إذ عُرفا بالنفاذ البصير، فى حوالك الأمور، والتخلص السريع، من دواهم المفاجآت! وقد جلس كل منهما إلى صاحبه ليستطلع خبيئته، فينضم رأى إلى رأى، كما يتقد مصباح مع مصباح، فيأتيان بالضوء الباهر، وأىّ مُعضلةٍ صعب عليهما أن تحلّ من قبل، حتّى يعجزا الآن عن تفسير ما تورط فيه أمير المؤمنين من السخاء على غير عادته، وها هما الآن يتبادلان الرأى فى خلوتهما الهادئة، فيقول عمرو:

قل يا مغيرة، كيف أغفل استشارتنا معاوية فيما يأتيه هذا الموسم من العطاء، وقد جئنا جميعًا من دمشق، نجالسه ونسايره، ونخلو معه الليل الطويل، والنهار الممتد، دون أن يفصح عما سيفعل.

قال عمرو: لعلّه قبل أن يصل إلى مكة، لم يكن يعتزم شيئًا ممّا يصنع، ثم بدا له، فاتّسع فى العطاء عن عجلة، لم يبيت أمره من قبل.

فضحك المغيرة كالسّاخر، ثم قال: أتظن أن أمير المؤمنين قد ساق هذه الأموال الهائلة من دمشق، وهى تضم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقوافل المحتشدة من الأنعام والحيوان، ليرجع بها ثانية إلى عاصمة الخلافة؟ أم أنه عزم على أن يفرقها حين ساقها إلى مكة عن تدبير مقصود؟.

فقال عمرو: وإذا كنت تعرف ذلك، فَلِمَ لَمْ تفكر فى أسبابه، وأنت صاحب نجواه؟

قال المغيرة: أأنا صاحب نجواه وحدى؟ إن خلواته معك أكثر من خلواتى معه، فأينا صاحب النجوى!

قال عمرو: لن أقول شيئًا، لأنك تعلم عنى وعنه ما أعلم، وما أحبّ أن أخدعك، ولعلّى لو حاولت ذلك ما بلغت شيئا ممّا أريد، إن معاوية يحترس منى، ويرانى بينه وبين نفسه ممن يستطيع مزاحمته على أمره، ولكنه لا يحترس منك، فيفيض معك فيما يتحفظ فيه معى! أليس كذلك؟ وأنا أقول لك فى صراحة: إنى كنت أضيق ببعض ما يأتيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الأمور، ثم يظهر لى إخلاصه للحق، وعزوفه عن المراء، فألوم نفسى، وأرجع إلى الحق مقدِّرًا مبجِّلا، أما معاوية فأنا أضيق بكثير مما يأتيه، ثم يتجسد هذا الضيق فلا يفارقنى، لأنى أعرف فيه احتيالًا خفيًّا لأطماع ذاتية، ليس من بينها الحق الصريح.

قال المغيرة: شتان بين عمر ومعاوية، لقد كنا نخاف عمر، لأن الحق معه، والحق غالب لا مغلوب، ولكننا نمتنع

Looloo
www.dvd4arab.com

عن مصارحة معاوية لأن الحكم معه ، والناس بعد عليّ قد سايروا الركب وآثروا الهدوء .

فابتسم عمرو ، ثم قال : لقد بعدنا بعض الشيء عما بدأنا به ، فهل لك أن تهديني إلى وجهة نظر معاوية حين اتّسع في العطاء على هذا النحو دون مبالاة ؟

قال المغيرة : سأدلك على ما تعرف لا على ما تجهل ، بل سأقرأ لك ما تضمره طيّ صدرك ، فأقول إن أمير المؤمنين يحسّ إحساسًا قويًا ، أنّ الناس ـ باستثناء أهل الشام ـ لا يرونه أهلا لأن يجلس مجلس أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، كما يرى أن عمر وعليًا ، قد التزما جانب الحق في العطاء ، فأوغرا صدور أهل المطامع ، وهم كثيرون كثيرون ، وإذا كانت شيعة عليّ لم تأخذ منه فتيلا ولا قطميرًا ، وهي بعد في حسرة على مصرعه ، وتأوّه لموته ، فإنه سيأتيهم من عرض الدنيا بما يجعلهم يقبلون خلافته ، وكأنها ذات نفع عاجل لمن أراد أن ينعم بلذائذ الحياة ، ومتى استمرءوا عطاء معاوية ، فقد هان عليهم أن يُصرع عليّ ، وإذا لم يبلغوا ذلك فهم على الأقل لن يسارعوا إلى حرب معاوية إذا تحدث بها ناقم يريد أن يشعل الشقاق من جديد .

قال المغيرة : هذا تعليل ما ساقه من الأموال الهائلة إلى مكة في هذا الموسم ، وقد رأيت أهل العراق يأخذون عطاء أمير المؤمنين مسرورين ، وإن كنت ـ شهدا لله ـ علمت أن نفرًا قد هربوا من وجهه ، مع استدعائه إياهم ، إذ ربأوا

بأنفسهم أن يضعوا أيديهم في كفّ من عارض عليًا ، وهو عندهم صاحب حق صريح .

فرد عمرو : ومعاوية يعرف أن القلوب لا تزال تنطوي على كراهته ، ولكنه يحمد الله على أن هدأت الحرب ، وخرست الألسنة والرماح ، وإن نطقت الألسنة ، وتكلمت الأفواه .

قال المغيرة : أتقول : نطقت الألسنة ، وتكلمت الأفواه ؟ متى كان ذلك يا صاحبي ؟ إن المال قد أسكت الجميع ؟

فقال عمرو : أتجهل أم تتجاهل ، لقد سمع معاوية هذا الموسم من نساء العرب ما أقضّ مضجعه ، لقد سكت الرجال يا مغيرة ، فتكلمت النساء !

قال المغيرة : لقد كان معاوية يتوقع أن يسمع ما يؤلمه ، فلماذا قابل صاحبات عليّ ، ليسمعنه قارص الكلام ! لقد كنت عنده ساعة وفدت عليه أم الخير البارقية ، فلاينته أولًا ، ثم غلب الطبع التطبّع فأتت بالقذائف وكأنّها حمم بركان !

فعجّل عمرو : أنا أدرى بأم الخير هذه ، فقد رأيت بطولتها يوم صفين ، وسمعت ما قالته حين قتل عمّار بن ياسر ، فهل اعترفت بذلك لمعاوية ؟

قال المغيرة : وأي اعتراف ؟ سأوجز لك بعض ماكان ! إنها دخلت المجلس عالية الرأس ، عالية الصوت ، عالية الحجّة ، فأراد معاوية أن ينهنه من كبريائها ، فسأل بعض من معه : من منكم يحفظ من كلام أم الخير حين كانت تحرّض

Looloo
www.dvd4arab.com

علىّ ؟ فقام أوس بن الأشهل فقال : أحفظ من كلامها يا أمير المؤمنين قولها الجهير : هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصى الوفىّ ، والصديق الأكبر ، إنها إحنٌ بدوية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بهما معاوية حين الغفلة ، ليدرك بها ثأر عبد شمس ، فقاتلوا أئمة الكفر ، قاتلوا عن بصيرة من ربكم ، وثباتٍ من دينكم ، وكأنى بكم قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسْورة ، لا تدرى أين يُسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحنّ نادمين ؟ ثم أفاض الرجل فى مثل هذه القوارص الدامية .

قال عمرو : وماذا كان من شأن معاوية !

فقال المغيرة : كان يسمع مبتسمًا ، يُرى الناس أنه المنتصر ، فلا يهمّه ما يقال ! فصاح عمرو ، دهاء أعرفه عنه ثم ماذا كانت عاقبة أم الخير لديه .

فقال المغيرة : لقد سمعها تقول بعد أن فرغ ابن الأشهل من مقالته إن العرب تتحدث أنك من أحلمهما ، فاترك ما قيل وامضْ إلى غيره ، فقال هو ذاك ، وردّها مكرمة إلى بلدها ، وأوصى بها .

فسكت عمرو قليلا ثم قال : أتدرى لماذا جاملها معاوية ؟ إنه يريد أن يضم قومها إليه ، ثم يسكت لسانها ، فلا تعود إلى التحدث بشمائل علىّ ؟ وهذا غنم كبير لسلطانه !

واعتدل ابن العاص فى مجلسه ليقول : يخيّل إلىّ أن معاوية أحسّ من بعض جلسائه شعورًا بالشماتة المستترة ،

فأراد أن يظهر سروره واغتباطه ليكبت الشامت ! ثم حلا له أن يظهر عدم اكتراثه بألم الخير البارقية وأمثالها ، ففاجأ جلساءه باستدعاء من هنّ على شاكلتها من صاحبات علىّ !

قال المغيرة : وهذا ماكان ، فقد أرسل عيونه لاستدعاء من شهدن الحج من هؤلاء ، فوفد عليه منهنّ من أعْدَنَ الكرة مثنى وثلاث ورباع ! فقد كنا بعد العشاء ، وتهيأ القوم للانصراف ، فقال معاوية ـ وكأنه يمعن فى غيظ من أكنّ الشماتة ـ عليكم بالحضور غدًا بعد صلاة العصر ، لنستمع إلى الباقيات ، وزاد فقال : هنّ بصراحتهنّ أقرب إلى قلبى ممّن يظهر المودّة ويخفى الشحناء !

فعض عمرو على شفتيه قائلًا : ومن يعنى يا مغيرة ؟

فابتسم المغيرة قائلا : لست يا عمرو على كل حال بين من يعنيه أمير المؤمنين ، حيث لم تكن فى الحاضرين ، الذين جابههم تقريع الخليفة ؟ إنما الخوف أن أكون أنا ، وقد شهدت وتعجّبت !

قال عمرو : وإذا لم أحضر ، فهل كنت غائبا عن ذاكرته ؟

فرد المغيرة : ماذا تقول يا عمرو ، إنه يظهر من الاحتفاء بك ، مالا يظهر لأقرب أقربائه من أبيه ؟ دع هذه الهواجس لمثلى ؟

فصاح عمرو : ما هذا ؟ أنا أخاطب داهية العرب المغيرة ، ولن يغيب عن باله ، أن كثرة الاحتفاء دون مناسبة توجبه ، مبعث ريبةٌ تظن ، لأن المحتفى يريد أن يخفى شجونه ،

Looloo
www.dvd4arab.com

فيكثر من التحبّب ، كى يظل الجمر تحت الرماد ، وقد يكون المحتفى به غرًّا فيطمئن ، فهل تظننى كذلك ؟ لندع الحديث عن أنفسنا الآن ، لتكمل لى ما كان من مجلس الأصيل فى الغد ، فأعرف بعض ما صدم الخليفة من تقريع هؤلاء .

فقال المغيرة : كانت أولى الوافدات سودة بنت عمارة ، وقد قرأ معاوية فى وجهها سخطًا يرمى بالشررّ ، فتحلّم كعادته ، وقال لها : مرحبًا يا خالة ، ألك عندنا حاجة ، فأسرعت تقول : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّدًا ، ولأمورهم متقلِّدًا ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدِّم علينا من ينهض بعزّك ويبطش بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة ، هذا عاملك على الحجاز واليمن : بُسر بن أرطاة ، قدم علينا من قبلك ، فقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة ، فإمّا عزلته فشكرناك ، وإما لا ، فعرفناك !

فتجهم معاوية على غير عادته ، وقال فى غلظة : إياىّ تهددين بقومك ، لقد هممت أن أردّك حزينة إلى بسر بن أرطاة ليحكم فيك بما يشاء .

فحدَّقت فى وجهه ، وقالت : رحم الله أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب ، لقد جئت إليه فى مثل ما جئت به إليك ، شاكية مظلمة هيّنة ارتكبها أحدُ ولاته ، وكان قائمًا يصلّى ، فأسرع معجلًا ، ثم قال برأفة وتعطّف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرته خبر عامله ، فبكى أمير المؤمنين ، ثم رفع يده إلى السماء . فقال :

اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنّى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقّك ، ثم أخرج من يده قطعةً من جراب كتب فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » : قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسُوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم تؤمنون » إذا أتاك كتابى هذا ، فاحتفظ بما فى يدك ، حتى يأتى من يقبضه منك والسلام . هذا ماكان من علىّ ، وهذا ما أسمعه منك فأيكما أقرب إلى فاطر الأرض والسموات !

فرفع معاوية رأسه ، وتوجه بالحديث الىَّ فقال : مارأيك يا مغيرة ؟ قلت تحقَّق من أقوالها ، فإذا بدا لك ظُلم ابن أرطاة فاجعل غيره مكانه ؟ قال : وغير هذا ، سأكتب إليه أن ينصفها ، فقالت سودة متسرعة ، ينصفنى وحدى دون عامة الناس ، فرد معاوية : وما أنتِ وغيرك ؟ فقالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم ؟ إن كان العدل شاملا وإلّا فيسعنى ماوسع قومى ! ثم قال لكاتبه : اكتبوا لها ولقومها ، فقد علمها علىّ بن أبى طالب الجرأة ، وغرّها قوله فى قبيلتها .

فلو كنت بوابًا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام !

قال عمرو ، ولماذا لم يسألها عن موقفها يوم صفّين ، وكانت مثل أم الخير البارقيَّة ، بل تزيد .

فرد المغيرة : فكرت فى ذلك ، فعرفت أنه خشى جرأة لسانها ، أكثر مما خشيه ليلة أم الخير لأن لها شعرًا فى هجائه يتردَّد على الأفواه ، وقد تجبهه به ، وهو مالايود ، لأن الشعر أعلق بالقلوب ، ولا تمضى به الريح كما تمضى بغيره

Looloo
www.dvd4arab.com

من أساليب الحوار ، على أنّه قال لنا بعد خروجها : إن فى العربيات معادن خافية من نفائس البلاغة ، وقد أردت أن أستثير بعض دفائن سودة ، فأوجزت وما أسهبت ، وكان بودّى أن تطيل !

ونظر المغيرة، فأبصر شخصًا يتجه إلى خيمتهما مُسْرعًا ، فقال لعمرو : من تُراه يكون هذا الذى يقدم إلينا ، وكأنه صاحب مأرب ، فشخص عمرو ببصره طويلا ، حتى تبينه ، فقال : إنه مروان بن الحكم رآنا منعزلين ، فآثر أن يشغلنا بلهوه ظاهرًا ، وهو فى الباطن دسيسة علينا من ولى الأمر ، لنحوّل إذن مجرى الحديث كيلا نعطيه ما يأمل ، فيتزيّد ويفيض .

وكانت لحظات ، انتهى فيها مروان إلى صاحبيه ، فبدأهما بالسّلام ، فرحّبا به وأهّلا ، ثم اندفع المغيرة يقول : قلت لك يا عمرو إن أهل مصر لايكلفونك من الأعباء مايرهقنى به أهل الكوفة ، فلم تسلّم بما قلت ، وها هو ذا مروان أدْرَى بالكوفة ومصر معًا : فليحكم بينى وبينك .

فصاح مروان : جئت هنا لأتحدث عمّا يجيش بنفسى نحو معاوية ، لالأعقد موازنة بين أهل مصر والكوفة، لأنصر أحدكما على صاحبه .

فقال عمرو : وما الذى ضايقك من أمير المؤمنين ، وأنت قريبه الأدنى ، وموضع استشارته حين تضيق به المآزق ، قبل الخلافة وبعدها ؟ أو أجهل مكانك منه يا مروان ؟

فرد مروان متعجّلًا : لو شهدت موقفه معى منذ ساعات ، لعلمت أن القرابة القريبة أهون شىء لدى ابن أبى سفيان ، لقد جلس فى ملإ من صحابته . وكنت أقرب الناس إليه ، فدخلت عليه أم سنان بنت خيثمة ، فغاضبها وغاضبته ، وأسمعته من قوارص الكلام ما نبا به مكانه ، فأراد أن يحوّل الحديث إلى غير مجراه ، فقال لها : يا خالة : دعيك منى الآن ؟ ما رأيك فى مروان هذا ، وقد يحكم المدينة وبها تسكنين ، فقالت : وهل جئت إليك إلّا شاكية من هذا الظالم الغشوم .

فائتلق وجه معاوية بالبشر ، وكأنه يسمع ما يود أن يقال ، واتّجه بكل كيانه إلى أم سنان ، وهو يقول مبتسمًا : أفيضى فيما كان منه ، ونظر إلىّ كالشامت وهو يقول : تجلد يا مروان فقد جاء دورك !

فقالت أم سنان : لارزقه الله الجلد ، بل أنزل عليه الهول والفزع ، لقد غره نسبه منك ، فأعطى المخادع ، ومنع الناصح ، ونهب المال وادخره لأولاده وذويه ، وكأنه يعد أبناءه لدهر طويل ، وأكباد أطفال المسلمين ، بمدينة رسول الله جوعى ، منع عنها الزاد ، لا أسعد الله مروان ، ومن على شاكلة مروان !

فهممت أن أزجرها ، فصاحت بى ، سينتقل معاوية إلى المدينة بعد طواف الوداع ، وسأحضر من الناس من يؤيد قولى ويشهد عليك ، لأن الحق لن يضيع .

واتجه معاوية إلى جلسائه ، وهمس : أرأيتم كيف يخوننى مروان ، حين يغتصب مال الله ؟ ثم قال لأم سنان تحدثى عن كل ما تعلمين ، فأنا سامع مصدّق .

Looloo
www.dvd4arab.com

فقالت أم سنان : يا أمير المؤمنين، إن مروان قد اتسع بمدينة رسول الله اتساع من لا يريد أن يفارقها مدى الحياة، وهو ظلوم جائر، لا يحكم بعدل، ولا يرعى سنة، يتتبّع عورات المسلمين، ويكشف عثرات المستورين، حبس ابنى فى غير جريرة، وما ذنبه إلّا أنه جاهره ببغيه، ومعه شهوده وأدلّته، فجئت إليه ليطلقه، فجابهنى بالبغى، ولكنّى ألقمته حجرًا وقف فى زوره، ولو أحسّ المسئولية، لقضى عليه، ولكنّ حاضره قد شغله عن غده، ووراءه يوم طويل، وحين يئست منه جئت إليك، فأنت أولى منه، ووزره محسوب عليك، إذ يتصرّف بأمرك، ويسىء إليك حين يسىء للناس، لأنهم سيبغضونك كما أبغضوه .

فقال معاوية : ويلى من عشيرتى، إننى يا أم سنان أصدّقك ولا أكذبك، ولن أسألك دليلًا أو بيّنة، فاكتبوا بإطلاق أسيرها على رغم مروان، ورأيت الشماتة فى الوجوه فأغضيت على غيظ .

قال عمرو : وماذا كان منك بعد ذلك !

حين خرجت أم سنان، وتهيأ القوم للسلام مودعين، قمت غاضبًا، فاحتجزنى أمير المؤمنين، وقال تمهّل قليلًا يا مروان ؛ فجلست، فقال لى : أين كنت فى الصباح؟ قلت فى بعض حوائجى يا أمير المؤمنين، فقال لو حضرت مجلس الصباح، وسمعت ما قالته عنّى امرأة من كنانة تسمّى الدارميّة، لهان عليك ما سمعت من أم سنان؟ فتمهّلت قليلًا، ثم قلت، وماذا قالت هذه الكنانيّة ؟

فقال معاوية : دخلت شامخة متكبرة، وكأنها تدخل على من يخضع لسلطانها، فأردت أن أردها إلى ما غرب من عقلها، فقلت سأحاسبك على ما بلغنى عنك، فهل ستنكرين من أمرك ما أعرف، فقالت فى غير مبالاة، جئت هنا لأعترف لا لأنكر فاسألنى عما تريد؟ فقلت فى هدوء : علام أحببتِ علىّ بن أبى طالب وأبغضتنى، فردت متعجلة : أحببت عليًا كرم الله وجهه لعدله فى الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطموحك إلى ما ليس من حقك، ووالیت عليًا على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حبّه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وشقّك العصا، وجورك فى القضاء وحكمك بالهوى .

قال معاوية : فخشيت أن تسترسل فقلت : كفى يا هذه، فهل رأيت عليًا رأى العيان، فردّت على الفور : أى والله رأيته، فأشهد أنه لم يفتنه الملك الذى فتنك، ولم تشغله النعمة التى شغلتك .

قلت : فهل سمعتِ كلامه؟ فقالت : أى والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الصدأ . ورأيت أن أستميلها فابتسمت وقلت ملاطفًا : ما حاجتك من بيت المال؟ فقالت فى جرأة : تعطينى مائة ناقة حمراء، فيها فحلها وراعيها، فقلت وماذا تصنعين بها؟ فقالت آخذ بألبانها الصغار، وأستحيى الكبار، وأصلح بين العشائر، وأكتسب بها المكارم. فقلت : وإذا فعلتُ، فهل أحلّ لديك محل علىّ؟ فلم تخافت فى الرد، بل صاحت فى بلاغة خالبة، ماءٌ ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتًى ولا كمالك، سبحان الله .

فتراجعت أقول : أما والله لو كان علىٌّ حيًّا ما أعطاك شيئًا،

Looloo
www.dvd4arab.com

فردّت: أعرف هذا جيّدًا، لأنه كان لا يفرّط فى وبرة واحدة من مال المسلمين!

قال معاوية: فهل ترانى أغضب كما غضبت الآن يا مروان؟ إنّ الناس يتحدثون فيرتاحون ويهدءون، وأعطيهم ما يُعينهم على الحياة، فيرجعون مسرورين، وأنا الغانم وأنت.

قلت وأنا يا أمير المؤمنين: قال فكّر وتدبّر، فستعلم صحة ما أقول، ثمّ استأذنت فأذن، وجال خاطرى طيلة اليوم فيما رأيت وسمعت، ثم اشتقت إلى أن أجلس معكما فأتيت.

قال المغيرة: لقد شهدت مجلس أمير المؤمنين مع بعض أنصار علىّ، وسمعتُ قريبًا ممّا سمعت، وما زلت أعجب لاتساع صدره، ورحب مداه، وأسأل: لِمَ يكلّف نفسه أن يسمع ما يغضب الحليم، فلا أجد جوابًا.

قال مروان: أفكر أنا أيضًا فيما يتسع له مجلس معاوية من أفانين التهجم المتسرّع، فلا أهتدى إلى تعليل، فهل لديك شىء فى ذلك يا ابن العاص!

فسكت عمرو مليًا! فاستحثه المغيرة أن ينطق، فقال: لو كنت مكان أمير المؤمنين، لصنعت صنيعه، وحرصت عليه، لأن الخليفة قد عرف خصومه حق المعرفة، كما علم أنهم يذيعون عنه وعن صحابته ما لا يجب أن يذاع، وإخاله قد فكر بدءًا فى عقوبتهم، ثم رأى أنه بذلك يزيد الحريق اشتعالًا، لأن الناس سيتناقلون ما يجد من انتقامه، بل سيزيدون ويحوّفون، ولا يأمن حينئذ أن تتكتل الجموع، وأن يتهيأ لحرب جديدة، هو فيها الخاسر مهما ضمن نتيجة الفوز، فأراد أن يستمع إلى

الخصوم، ثم يرجعهم إلى ديارهم وقد ملأ أيديهم بالعطايا الجزلة، فإذا لم يتحوّلوا إلى أصدقاء مخلصين، فلم يكونوا من بعد ألسنة سوء، ودعاة انتقاص!

فرد المغيرة: هذا بعض الوجه فيما بدا لنا من أمر أمير المؤمنين، ولكنّه صرف جانبًا من وقته فى حديث الأعرابيّات واسترضائهن، وأولى به أن يتوجه إلى رءوس القبائل من سادة العرب، فهم الذين يحلون ويعقدون، وبيدهم الإثارة والاستهواء، أما الأعرابيات فلا ينشئن فتنة، أو يحدثن حربًا، بل ينتظرن حتى تشتعل الهيجاء، فيبذلن جهدهنّ تحميسًا وتشجيعًا، وهو جهد محدود يستند إلى قوة غيره، فإذا عدمها سكت واستكان.

قال مروان: هذا رأى المغيرة، فما رأيك يا ابن العاص؟

فرد عمرو يقول:

لست مع المغيرة فى عدم استرضاء الأعرابيات، إنهنّ ذوات التأثير فى الرجال، يشعلن العزائم، ويُوقِدْن الصدور، وقد مكثت حرب البسوس أربعين عامًا من أجل صرخة امرأة، وإذا كنا فى معارك علىّ قد خفنا على، أنفسنا من تحميس هؤلاء، وكانت كلماتهنّ أشدّ على قلوبنا من وقع السّهام، فكيف نتجاهل تأثيرهنّ الآن.؟ إخال أمير المؤمنين قد أطفأ نارًا متّقدة حين أرضى زائراته من هؤلاء.

فعجّل مروان يقول: وهل أرضاهنّ كما تظن؟ فقال عمرو: إن لم يكن أرضاهنّ، فقد أسكتهنّ، وإذا سكتت المرأة

Looloo
www.dvd4arab.com

سكت الرجل ! أنا مع أمير المؤمنين فيما صنع، إذ يتجنب سفك الدماء بإسكات من تشعل وتستثير !

نظر مروان إلى عمرو نظرة المتعجب، ثم قال له : لندع الجدال فى أسباب ما ارتآه معاوية من الاستماع إلى الصرحاء والصريحات من الخصوم، ونحن الآن ثلاثة من أكابر الولاة على العواصم، أنا والى المدينة، والمغيرة والى الكوفة، وأنت يا عمرو والى مصر، وعلينا أن نجمع رأينا، ونقابل أمير المؤمنين، نرجوه ألا يستمع إلى من يشكو الولاة، كيلا تضيع هيبتهم أمام الناس ؟

فبادر المغيرة يقول : تغيظنى يا مروان بتباهلك، ألست تدرى أن معاوية قد استمع إلى الأعرابيات ليتخذ الحجة علينا، حين ننكر استماعه إلى الخصوم، إذ يقول : أنا أمير المؤمنين، وأتحمل من الكلام ما تضيق به النفس، فكيف لا تتحملون !؟

قال عمرو : هذا ظاهر الأمر، وباطنه أنه يريد أن يعدّ العثرات، فلا تخفى عليه خافية فى أى مكان، مهما بعد عن دمشق ! عثرات من أعانوه وساعدوه حتّى قامت دولة عبد شمس ! ولكنه لن يجد عثرة لدىّ، فأنا أخاف الله وحده فيما أعمل، وعندئذ لا أخاف من أحد يناقشنى الحساب .

فقال المغيرة : كلّنا نخاف الله ! فضحك عمرو ومروان وكأنهما يسخران من صاحبهما، ثم نهضوا جميعًا إلى الخروج، وابن العاص يقول : قد اتفقنا، فلا خوف إذن من مخلوق، وإن يكن معاوية بن أبى سفيان !

محنة شاعر

دخل عمر بن عبيد الله على الأحنف بن قيس فوجده على غير عادته صامتًا تلوح فى وجهه أمارات الضيق، وعهده به طلق الأسارير، مُتفتح النفس، تفدحه الكوارث فلا تغيّر من طبيعته الرّاضية، فظنّ أن شرًا كبيرًا قد حاق بأعز الناس لديه، فهو مشغول بما نزل، فأراد أن يعرف دخيلته، وكان ذا حظوة لديه فابتدره قائلًا :

مالك يا أبا بحر على غير عادتك ساهمًا كاسف البال، وكنت تلاقى الأهوال الفادحة فى ساحة الحرب فيضحك سنّك، ويبشّ وجهك ! ماذا حلّ ؟

فنظر الأحنف إلى صاحبه وقال فى هدوء : ما اعتدت أن أخذل أحدًا استجار بى إلّا اليوم، فقد رددتُ سائلى متهورًا، وما درى أنى أشدّ قهرًا منه، حين عجزت عن حمايته، وكأنه لم يأت إلى سيد بنى تميم !

قال عمر : أفصح يا أخى فقد يكون لى رأى فيما تقول :

فاعتدل الأحنف فى مجلسه، ووجه نظره إلى صاحبه، ثم قال متألمًا : حضر إلىّ اليوم يزيد بن المفرغ الحميرى، وهو من هو ؟ بلاغة قول، وجراءة لسان، وشجاعة قلب، لأجيره من أمير البصرة عبيد الله بن زياد، فضاقت الدنيا فى وجهى لأنى أعرف شدّة عبيد الله، وأعلم أنى إذا استشفعت لم أشفّع، فماذا أصنع ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

قال عمر : لقد جاءنى قبل أن يأتى إليك، وقلت له، إنك كنت ذا حمق، حين هجوت أخاه عبادًا أبشع الهجاء، ثم سببت أباه، وهو أبو عبيد الله بن زياد، وتجاوزت فسببت زيادًا الكبير، ومعاوية أمير المؤمنين، ويزيد ابنه خليفة الناس اليوم، ولا رأى يعلو عنده فوق رأى عبيد الله وأخيه عباد ! لقد اقتحمت عرين الأسد دون مبالاة، فلابدّ أن يفترسك بأنيابه، وإذا احتميت بغيرك فلن يصدّ هجوم أمير البصرة، بل لن يصد نقمة أمير المؤمنين !

قال الأحنف، لقد حدثتنى نفسى أن أرحل إلى دمشق، لأسترضى يزيد عنه، ولكنى علمت أن الخليفة يعرف أنى من أنصار على كرم الله وجه، وقد قابلت جيوش أبيه يوم صفين بما أحدث الزلزال فى جيش الشام، ولولا خدعة التحكيم ما قام لمعاوية سلطان، أترانى بعد علويّتى الصارخة أهلا لأن يستجيب لى يزيد ؟

قال عمر، وقد جدّ من الأحداث ما أكدّ انحرافك عن يزيد، فهو يعلم أن شيوخ القبائل قد سعت إليه مُهَنِّئةً بالخلافة، وفيهم الخطيب المتحمّس، والشاعر المماليئ، ولكن شيخ بنى تميم لم يرحل مع المهنئين، فأسرّها فى نفسه دون نزاع .

فرد الأحنف يقول : يعرف يزيد عنى أكثر من هذا، فقد كان حاضرًا مجلس أبيه، حين سألنى عن كفايتـه لإمارة المؤمنين من بعده، فسكتّ، فقال معاوية : لماذا لا تنطق يا أبا بحر ؟ فقلت إن أرضيتك أغضبتُ الله، وإن أغضبت الله أرضيتك، ورضا الله فوق رضا أمير المؤمنين .

فتبسم معاوية عن ضيق، وقال لقد أعفيناك من الإجابة يا أبا بحر ؟

فضحك عمر، وقال وهل أنت لم تُجِبْ ؟ لقد أوضحت الأمر بجلاء، فكيف يعفيك إذن من الجواب ؟

فقال الأحنف، إنه معاوية، وأنت أدرى، ثم ساد الصمت قليلا ليقطعه عمر بن عبد الله بقوله : وماذا دفع يزيد بن المفرّغ إلى هجاء عباد ؟

فشخص الأحنف ببصره إلى صاحبه، وقال : كأنك لا تعلم الكثير من أمرهما، وقد جاءك يزيد مستشفعًا، ولابدّ أنّه روى فأشبع، وتكلم فأطال .

قال عمر، الحق أنه لم يجد لدىّ مجالًا للقول، لأننى حين علمتُ أنه يريد شفاعتى عند عبيد الله سددت عليه الطريق، لاضيقًا به، بل لمعرفتى الأصيلة بطبيعة ابن زياد .

قال الأحنف : إن كنت لا تعرف ماكان من شأن يزيد مع آل أبى سفيان، فاسمع .

فضحك عمر وقال : تقول أنت أيضًا مع آل أبى سفيان كأن ابن سميّة وأولاده قد صاروا حقيقة من بنى عبد شمس .

فرد الأحنف : دعك من هذا، واستمعْ إلى ماكان، لقد كان يزيد بن المفرغ شاعرًا أثيرًا لدى سعيد بن عثمان بن عفان، يخصه بعطفه وجاهه، ويستمع إلى مدائحه مقدّرًا، ثم خفّ إلى ولاية خراسان فعرض عليه أن يصحبه إلى مقر إمارته، ولو كان الشاعر سديد النظر، حسن التقدير، لما

Loofoo
www.dvd4arab.com

ارتضى بغيره بديلا ، ولكنَّ عباد بن زياد تولَّى إمارة سجستان وعرض عليه أن يصحبه فسرعان ما استجاب !

قال عمر : ويح يزيد لقد أغضب سعيدًا بعد أن رعاه واجتباه .

فقال الأحنف : لم يغضبه فى شىء ، بل كان سعيد حليمًا مسامحًا ، وقد قال لزيد فى عطف : أعرف أن عبادًا متغطرس صلف ، ومثله لن يعاملك كما ترى من معاملتى ، فإذا لم ترتح إليه ، فهلمَّ إلىَّ ، وما أقرب خراسان من سجستان .

فقال عمر : سعيد كريم بن كريم ! والحق أن هذه أخلاق عثمان بن عفان أمير المؤمنين ، فكيف استبدل يزيد به سواه ؟

قال الأحنف : ادَّعى لنفسه الفراسة وبُعد النظر ، فقال : إنَّ يزيد بن معاوية ، يفضِّل آل زياد عن آل عثمان ، وأن الكلمة لهم وحدهم ، فأمرهم نافذ ، وكلمتهم فى دمشق ذات نهى وأمر ، أمَّا سعيد فبينهُ وبين نفسه ، يعلم أن معاوية لم يصل إلى الخلافة إلَّا لتمحكه بما يزعم من ثأر أبيه ، وأن الذين انضموا إليه قد غضبوا لقتل عثمان حين موَّه عليهم معاوية الأمر ، ففهموه على غير وجهه الصحيح ، فهو يعدّ يزيد وأباه مغتصبين ، وهما يعلمان فى قرارة نفسيْهما مايكن سعيد ، ويحاولان استرضاءه ، وهو مضطر إلى الإذعان ، إذ لاناصر لديه ، أما آل زياد فى رأى ابن مفرغ فسيجعلونه شاعر الخلافة ، ويدعونه صاحب حول وأنباع ! هذا

ما توهَّم ، وقد غفل التغلغل فى طبائع الناس ليضع كل إنسان موضعه الصحيح .

ثم قال الأحنف : ولكى ننصف عبيد الله بن زياد نقول : إنه لم يرتح لصحبة عباد يزيد بن المفرغ ، فدعا الشاعر ليقول له : لقد آثرت أخى عبادًا ، وتركت سعيد بن عثمان ، وأخى عباد صلف تيَّاه ، وقد يشتغل عنك بما توجبه الإمارة من أعباء فلا تحاول أن تقول شعرًا تهجوه به ، فتلحقنا جميعًا معرَّته ، ولكن استئذن منه إذا أحسست ضيقًا ، وهلمَّ إلىَّ فسأرضيك !

قال يزيد : هُو ماترى أيها الأمير ولن أخالفك فى قول ، ثم إن عبيد الله بن زياد دعا أخاه وقال له : لماذا تصحب يزيد ، وهو شاعر طويل اللسان ، ولست بفارغ له حتَّى تحوز إعجابه ، إذا شئت أن تصرفه إلى صاحبه سعيد بن عثمان فافعل ، فإن عارفى يزيد يؤكدون تسرّعه ونزقه ، ولشعره سيرورة وانتشار ، فماذا تصنع إذا غضب عليك ، أتراه ستقتصر على هجائك وحدك ، أم يمتد بالفحش إلى حيث لانملك أن نمنع الأعداء من تريد مايقول ! ولكن عبادًا صمَّم ، ويزيد استجاب ، فوقع الشَّر .

قال عمر : ألا أعلم كيف وقع ؟

فأجاب الأحنف : رحل يزيد مع عباد وفى ظنِّه أنه سيكون أمين سرّه ، وموضع نجواه ، إذ آثرهُ واجتباه ، وبناء على هذا الظن توقع أن يجد لدى الأمير مكانة الآمر الناهى ، فهو لايقنع بما يرضى به شاعر يلزم ولىَّ نعمته مستجيبًا إلى إشارته ، ولكنَّه اشرأب إلى أن يكون ذا جاه وحظوة ومال ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وكأنى بعباد وقد لحظ ذلك فيما قرأه من أحوال صاحبه ، فلم يشأ أن يرده إلى أرض الواقع فى رفق ولين ، ولكنّه مكر به ، فجعله يسرف فى الآمال ، وقد اشترى الرقيق ، وجمع أفخر الثياب ، واحتفظ فى مأكله ومشربه بطابع ذوى الميسرة من الأمراء ، وكل ذلك على سبيل الدين ، إذ لاشىء فى يده ، إذ قدّر أن عبادًا سيغدق عليه مايملأ طموحه عيشًا ومنزلةً ، ثم تطاولت الأيام عن شحّ ناضب ، وكيد خفىّ ، فأيقن الشاعر أنه خدع فى صاحبه ، ولم يكن لديه حزم يمنعه أن يستر ما أكنّ ، فأخذ ينتقد الأمير فى مجالسه ، بل جعل يسخر بمظهره الشخصى ، إذ كانت لعبّاد لحية مستطيلة تبلغ مكان ثديه ، ثم هبت الريح فجعل شعرها ينتشر حتى حجب وجهه ، وكتم الحاضرون ابتسامهم ، ولكنّ يزيد قد أسرّ لمن يجاوره بقوله :

ألا ليت اللحى صارت حشيشًا فنعلفه خيول المسلمينا

وقد انتقل البيت إلى عباد ، فصمت على غيظ ، ثم حان وقت ركب فيه الأمير جواره ، وانطلق سابقًا زملاءه ، فقال يزيد لبعض مجاوريه : سبق عبّاد ، وصلّت لحيته ، وطار القول إلى عباد ، فلم يشأ أن يؤاخذ الشاعر بما قال عنه ، كيلا يتردّد هزؤه بين الناس فتكون لحيته مصدر سخرية ، ولكنه فكّر ، فعلم أنّ الشاعر مدين لأهل سجستان من تجار وأثرياء ، وأنه يعتز بعبد له يسمّى بُرْدًا ، وبجارية تسمّى الأراكة ، فأوعز لدائنيه أن يطالبوه ، وسيعجز عن السداد ، وحينئذ يرفعون الأمر إليه ، لينصفهم ممّن أكل حقوقهم ، وكان القوم يرغبون فى ذلك ، ويخافون سطوة الأمير إن قاضوا شاعره ، فحين وجدوا

عبادًا نفسه يدعوهم إلى المقاضاة ، أسرعوا مسرورين ، ووقف الشاعر ذليلا يعتذر بضيق اليد ، وأنه اتكل على عطف الأمير حين اقترض واشترى ، فصاح عباد : وهل صحبتنى لتأكل أموال الناس بالباطل ثم تتعلل بانتمائك إلىّ ! إمّا السّداد العاجل ، وإمّا السجن غير آجل ، وليس لدى الشاعر مايرضى غرماءه ، فكان السجن !

لم يكتف عبّاد بسجن يزيد إذ كان فيه وحده شفاء لموجدته ، ولكنه أمر أن يباعُ مابمنزله من الأثاث سدادًا للدين ، وإذا كان قد جاءه أن (بردا) أثير لدى الشاعر لايطيق فراقه ، وأن الأراكة حبيبته التى لا يسلوها ، فقد شاء إمعانا فى كيده . أن يبيع بردًا ويبيع الأراكة ، كما باع الأثاث ليكمل الانتقام على وجهه المهول ، وجاء الخبر للشاعر فى سجنه ، والقيود تصلّ فى يده ، فكان فراق برد والأراكة صاعقةً نزلت عليه كأشد ما تكون الصواعق ، وجعل يهذى ويبكى ثم يرسل الشعر ترويحًا عن مأساته فيقول فيما قال :

فارقت بردًا ولو ملكت صفقته لمّا تطلّبت فى بيع له رشدا
أما الأراك فكانت من محارمنا عيشًا لذيذا ، وكانت جنة رغدا
يا ليتنى قبل ما ناب الزمان به أهلى لقيت على عدوانه الأسدا
قدخاننا عيش من لم نخش عثرته من يأمن اليوم أم من ذا يعيش غدا

ويظهر أن حسرته على فراق برد كانت أشد وأنكى فقد عاود بكاءه أسفًا على بيعه فى مقطوعات أخرى يقول فى إحداها :

لهفى على الأمر الذى كانت عواقبه ندامه

Looloo
www.dvd4arab.com

تركى سعيدًا ذا الندى ... والبيت ترفعه الدعامة
وتبعت عبد بنى علا ... ج تلك أشراط القيامة
وشربت بردًا ليتنى ... من بعد برد كنت هامة
هتافة تدعو صدى ... بين المشقر واليمامة
فالهول يركبه الفتى ... حذر المخازى والسآمة
والعبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الملامة

قال عمر : هى قصة غريبة ؟ ولكن كيف خرج ابن المفرغ من السجن ؟

فأجاب الأحنف : كان خلوه بنفسه فى ظلمات السجن الموحش باعث تفكير له ، فيما أتى وما ترك ، وقد أيقن أن لا نجاة بدون رضى عبَّاد ، فجعل يقول للسجان : لم يظلمنى الأمير فى شىء ، أنا الَّذى قلت البيت والبيْتين أحسب أنهما من باب الفكاهة المستملحة ، وقلت إن عبادًا سمح النفس واسع الصدر ، وسيغتفر لمثلى حين يتفكَّه بشىء لامعابة فيه ، لأن كبر اللحية ليس بعيب ، ولو كنت أعلم أنه موضع غميزة ما تجرأت على أن أقول شعرا يسلمنى لغضبه ، أما إذا غضب فقد أيقنت أنه يرى مالا أرى ، وله العذر حين يؤدبنى بالسجن ! فإنه حرّ انتصر لنفسه من رجل تعدَّى طوره فأساء .

أخذ يزيد يكرر هذا المعنى ، ويطنب فى مدح الأمير ، حتَّى بلغ عبَّادا ما قال ، فعلم أنه رجع عن خطئه ، وأدركته عليه رقَّة فأطلقه ، وخرج يزيد ليكون فردًا فى غمار الناس ولم يؤذن له أن يرد مجلس الأمير ، وحسبه أن يأتيه رزقه يومًا

بيوم ، وهذا ما يثقل عليه ، فأخذ يحتال حتى هرب من سجستان ، فلما رأى أنه أصبح بمنجاة من عبَّاد ، أخذ يردّد الأشعار فى هجائه وهجاء آل زياد جميعا ، ويكتب ما قال على جدران المنازل وأبواب المساجد ليتناقله الناس !

قال عمرو : ويله لم يعتبر بما تقدَّمت به النذر من قبل ، أنسى أن الدولة لأُميَّة ، وأن عبيد الله بن زياد سيِّد العراق ، وإذا نجا من عبَّاد فلن ينجو من عبيد الله ، بل إذا نجا من عبيد الله فلن ينجو من يزيد ، وقد سبَّ أباه وجدَّه .

فرد الأحنف : هذا ما أعجب له ، وقد خاطبته فى سوء ما صنع ، فقال إن الناس فى كل مكان ينزل به يشجِّعونه على هجاء القوم ، فهم لهم كارهون ، وقد أقبلوا على رواية شعره ونقلوه فى أوراقهم كيلا يضيع ؟ فاندفع يقول دون اكتراث ، وقد غرّه طول استماعهم إليه ، وترحيبهم به ، وفيهم من نقلوا الهجاء إلى عباد بسجستان وإلى عبيد الله بالعراق فأقسم ليقتلنَّه إذا ظفر به ، وجاءنى اليوم ليستشفع بى لديه ، وقد مضى زمن أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، أيام كان الأحنف مشفّعًا لدى صحابة رسول الله ! وعشت لأجد الأمر بيد ابن زياد ، وقد تملّأ غرورًا فما ينثنى ، أفأُقدم شفيعًا إلى رجل لا يعرف قيمة نفسه ، فضلًا عن أن يعرف قيمة الناس !

قال عمر : وعلى أى شىء عزم ابن مفرغ بعد أن يئس من شفاعتك !

قال الأحنف : عرضت عليه أن يذهب إلى المنذر العبدرى صهر ابن زياد ، فعساه بمنزلته منه يحدّ من غربه قليلا !

Looloo
www.dvd4arab.com

فقال عمر : رأى مصيب ، فماذا تمّ بعد ذلك !

فعجّل الأحنف يقول : لم يكن رأيًا مصيبًا ، لأن ابن زياد أدركته وضاعة منبته ، فسخر من صهره على الملأ ، وقال فى غلظة : إن كنت تدلّ علىّ بمكانة ابنتك منى ، فلا علىّ إذا أعلنت طلاقها ، لينقطع ما بينى وبينك من وداد ، ولم يرحم مكان المنذر ، وهو رئيس قومه ! ماذا عليه لو سكت . ثم خلا به ، ليفهمه فداحة ما ارتكب يزيد ؟ بدل أن يخجل صهره أمام القوم ! أفتدرى ما صنع المنذر بعد لقاء ابن زياد ، لقد أغلق بابه عليه حزينًا ، وخجل أن يشافه الناس !

فقال عمر : المنذر رجل مروءة ، وقد قام ملبّيًا هواتف النخوة فى صدره فإذا أخفق فلا ملام ، وقد أطلت حديثى وحان أن أنصرف .

فرد الأحنف ، إذا شئت فبسلامة الله .

ـ ٢ ـ

مضت سنوات وقتل عبيد الله بن زياد ومات عباد أخوه ، ودُعى الأحنف لزيارة الموصل على رأس فريق من بنى تميم ، فتناهى إلى سمعه أن شاعرًا كبيرًا قد ملأ المدينة بشعره ، وقد تزوج فتاة فارسية رائعة الجمال تسمّى (أناهيد) فحمّلته من النفقات مالا يطيق ، إذ خضع لسحرها الخالب ، وكلّما اشتدت عليه فى طلب المال إرضاء لحاجاتهما التى لا تنفد جعل يستدين ، وغرماؤه لا يتعجلونه خشية من أن يسلقهم بلسانه الحاد ، وإذا كان لم يترك عبيد الله بن زياد فى عنفوان سلطانه ، وسطوة جاهه ، بل ذم أباه وذمّه بأقسى ما يوجّه

من اللوم ، أفيسكت عمن يلاحقونه بالسداد ، ولا شىء معه ! بل إنّه يحاول أن يزيد الدّين بما يكرّر من الطلب ، ثم قال قائلهم : إننا لنعجب من صاحب هذه الشاعرية الفذّة كيف خُضع لسلطان فتاة فارسية لم يطف بذهنها أن ترأف به ، فتختصر ما تتطلّبه من مرهقات المسكن والمطعم والملبس وكيف يستجيب لما تود دون إمهال .

سمع الأحنف ما يقال ، فقال للقوم :

تقولون : إنه هجا آل زياد ! ما اسمه إذن ؟ فصاحوا : يزيد ابن مفرّغ الحميرى . فقال : ما كنت أعلم أنه يسكن الموصل ، وقد سمعتُ من زمن ماضٍ أن يتنقّل فى ربوع الشام ، أنذهب لزيارته أم تقومون بدعوته ، وسيحضر سريعًا حين يعرف أن الأحنف بالموصل ، وأنه يدعوه !

وكان ظن الأحنف فى موضعه ، فسرعان ما حضر يزيد ، وكأنه كان يطير لا يمشى لتعجّله المتسرع ، واستقبل الأحنف مبتسمًا ملاطفًا ، فصاح به سيّد بنى تميم : لم أدر شيئًا عمّا تمّ مع ابنى زياد فى أمرك ، فحدّث القوم لأسمع معهم .

فقال يزيد : كأنك لا تدرى شيئًا عمّا كابدتُ من الأهوال ؟ أنت تعلم أن صهر ابن مرجانة ـ يزيد عبيد الله بن زياد ـ قد حاول الشفاعة لديه ملحًا ملحفًا ، فقوبل بشر ما يقابل به شفيع ، وحين أتانى والقيد فى كفّى وقدمىّ ما منيت به شفاعته من الخذلان ، علمتُ أن الموت منى قاب قوسين ، فتشهدتُ وجعلت أقرأ آيات من كتاب الله تكون عونًا لى فى ما يمهّد لى

Looloo
www.dvd4arab.com

من العذاب، ورآنى السجان مذهوب العقل، مسلوب السداد، فرحمنى وقال، سأخبر أحد أصدقاء الأمير ببلواك، فقد يفيدك بما يخفف عنك بعض الشىء، وكان السجّان رجل مروءة فعجّل بالذهاب إلى صاحبه، فقال له: الأمر عسير، والأمير غضوب ظلّام، ولكنى سأحتال! ثم ذهب إلى بن زياد، فأخبره بأن أمير المؤمنين بدمشق، سيغضب لو قتل يزيد دون أن يرجع إليه، فعليه إذا همّ بقتله أن يستجيزه معددًا سوءاته، كيلا يقع منه فى ملام، فسكت ابن زياد، ثم قال إذن سأذيقه أشد العذاب، لكن لا أبلغ به حدّ القتل حتى يأتى الأمر من الشام.

ولا تسل عمّا لاقيت من عذاب جهنم! بل إنى لأعتقد أن عذاب جهنم سيكون دون ما لاقيت، فلم يشف البغيض الحاقد أن يسلّط علىّ عذاب السوط فى غياهب السجن ثلاث مرات فى اليوم، بل شاء أن تكون الفضيحة ذائعة شائعة يشهدها البصريون جميعًا، فهداه خياله إلى أن يُطاف بى على الملأ، وقد سقانى مسهّلًا وقرننى بخنزيرة وهرّة، فكنت أفيض على نفسى، والصبيان من ورائى يصيحون ويضحكون، والناس ما بين ساخر وصامت، حتى أغمى علىّ فرددت مقهورًا إلى السجن.

قال أحد الجلساء: علمنا ذلك، وعرفنا أنك سجلته فى بعض قصائدك، قال الأحنف، عجبًا، وهل يسجل العار على نفسه! ماكان له أن يفعل!

فرد يزيد: لا عار علىّ مع ظالم غشوم، إن العار على من سكت عن نصرتى من قريش وحمير، وأنا رهين الأغلال، ثم إنى سجّلت عليه عار الأبد حين قلت فى مأساتى:

ما أتيت الغداة أمرًا دنيًّا ... ولدى الله كابر الأعمال
فاخش نارًا تشوى الوجوه ويومًا ... يقذف الناس بالدواهى الثقال
يغسل الماء ما صنعت وقولى ... راسخ منك فى العظام البوالى

وبعد أن اشتهر أمرى بالبصرة، شاء أن يعيد الكرّة فى سجستان فأرسلنى مع عبيد غلاظ يرهقوننى أشد الإرهاق، ويحتّمون علىّ أن أطوف بكل خان نزلت به من قبل، لأمحو بأظافرى ما كتبته على الجدران من هجاء لآل زياد، بعد أن اشتهر وذاع، فكنت أفعل ذلك، والسياط تلهب جسمى، حتى تقلّصت أظافرى وسال الدم دفاقًا من اللحم، وحين جئنا سجستان رأيت من عباد شرّ ما يرى مطيع من فاسق إذ كرّر فضيحتى فى الملأ ثم رمانى فى غياهب السجن، حتى جاء الأمر من دمشق بإطلاقى بعد شفاعة الرءوس من حمير وقريش! ولم أصدق إلا حين وجدتنى أركب راحلتى منطلقًا إلى حريّتى. فقلت مخاطبًا فرسى.

عدس، ما لعبّادٍ عليك إمارة ... نجوت، وهذا تحملين طليق

قال الأحنف: كفى يا يزيد فقد أوجعتنا!

وحضر الطعام، فأكل الجميع، وكلّهم يخص الشاعر بإكرامه وملاطفته، ثم بدا للأحنف أن يسأل يزيد، فقال:

وما صنعت بعد فراق بردٍ والأراكة!؟

فقال يزيد: لا تُثِرْ مواجعى يا سيد بنى تميم! لقد كان بردًا آية الآيات فى الذكاء، فحين فوجئ بعبادٍ يبيعه مع الأراكة بحجة سداد الدين، كظم غيظه، حتى إذا رحل مع من اشتراه، قال له: لقد جلبت عليك عار الدهر، أتظن أن سيدى يزيد سيسكت عنك، وما سكت

Looloo
www.dvd4arab.com

عن معاوية ويزيد وابنى زياد ! إنه سيرسل الهجاء مشهّرًا بك، فيجعلك مثلًا بين الناس، وكان لدى الرجل مروءة تعصمه أن يزل، فأعتق بردًا والأراكة بعد أن تأكّد من نجاتى بأمر يزيد، وبعثهما إلىّ، فقال الأحنف :!!

وهل تزوجت هذه الفارسية. ومعك الأراكة ؟

فبادر يزيد يقول فى لوعة لبيتها ظلّت معى، فقد فاجأها الموت على غير انتظار وتوقّع، إذا استحمت بالماء الساخن، ثم خرجت إلى السطح الأعلى فلفحها الهواء، وظننت المسألة هينة حين علمت بمرضها ! ولكنى فوجئت بنعيها فى صباح مشئوم !

ثم استدرك يزيد يسأل : وكيف علم الأحنف بزواجى من الفارسية!

فقال الأحنف، لم أعلم وحدى ! ولكنّ الموصل كلها تعلم، وقد تحدثت عن دلالها الذى أفقرك بعد اغتناء ! ولعلّك تفىء معها إلى الصواب!

قال يزيد : أردت أن أتسلّى عن الأراكة، وما تسلّيت ! ولم أشأ الخلاص من (أناهيد) لأنها تملكنى ولا أملكها، وكم حاولت فعجزت .

قال الأحنف : معاذ الله أن أفرق بينك وبين من تحبّ يا يزيد ! ولكنى أوصيك بالتبصّر وحسن التدبير، وإذا كنت لم أقم من قبل بشفاعتى عن ابن زياد، لما أعلم من غلوائه، فسأقوم اليوم بسداد دينك، على ألّا تعود إلى الإسراف .

فابتسم يزيد وهو يقول : ماكنت لأقبل منّةً من غير الأحنف سيد بنى تميم، بل سيد العرب، حين نضع السيادة موضعها الصحيح !

ثم تنقل الحديث إلى شجون مختلفة، بحيث تعدّى منطقة يزيد.

دهاء عبد الملك بن مروان

- ١ -

وقف عبد الملك بن مروان ساهمًا يفكر فيما وقع فيه من خطب تتلاحم حلقاته، ولا تريد أن تنفصل، وقد رأى أصحابه يتسلّلون من مجلسه دون استئذان، وعهده بهم فى دمشق، لا يغادرون المجلس إلّا إذا أشار عليهم، ولم يبق غير صديق صبا . قبيصة بن ذؤيب الخزاعى، فقال له عبد الملك : ولِمَ لمْ تقُمْ يا قبيصة مع من قام؟ ألك حاجة عندى تريد ألّا يطلع عليها أحد ؟

فقال قبيصة : حاجتى أن أعلم ما بنفس أمير المؤمنين، فأنا صفيّه، وأكاد أعرف ما يدور بها من وساوس، ولكنى أريد أن أتأكد، أظنى حقيقى أم وهم داهم .

قال عبد الملك، وماذا ترانى أفكّر فى دائرته الآن؟ سأختبرك فقل ؟

فقال قبيصة : تفكر فى عمرو بن سعيد بن العاص حين أبدى التمارض، وأظهر الوجع وألم الضرس، ثم عاد إلى دمشق، ليعلن عصيانه، وينادى بنفسه أميرًا للمؤمنين، وأنت هنا فى الطريق إلى مكة متجهًا إلى حرب ابن الزبير لتثبّت المُلك فى بنى أُميّة، قال عبد الملك :

وفى أى شىء أفكر أيضًا يا قبيصة ؟ قال تفكر فى النعمان

Looloo
www.dvd4arab.com

ابن بشير والى حمص، كيف نزع يديه من طاعتك، وبايع ابن سعيد، كما تفكر في زفر بن الحارث أمير نسرين، ونائل بن قيس أمير فلسطين كيف نزعا يديهما من طاعتك، وأرسلا البيعة لابن الزبير !

قال عبد الملك، وتفكر في ابن الزبير كيف حشد الجموع واستعد لملاقاتك، وظهر لك ! فعض عبد الملك على أصبعه بأسنانه، وقال: وهل بقيت مصيبة أخرى لم أفكر فيها ؟

قال قبيصة، تفكر في أصحابك الذين انصرفوا عن مجلسك دون استئذان، وهم يعلمون ما نزل بك من مكروه، ولكن دعهم الآن، فالأمر معهم يسير .

قال عبد الملك، لم تعدُ ما في نفسي، ولكني أسألك إلامَ أتوجّه ببقيّة من معي من الجند ؛ أإلى ابن الزبير حيث يوفق الله، وأبلغ مأربي منه، أم إلى عمرو بن سعيد، حيث أعلن خيانته، وأسترد ملكي من يده، وأعاقب من اجترأ على موالاته !!

قال قبيصة : أرى أن ترجع ثانية إلى دمشق، وتترك أمر ابن الزبير إلى غد، إذ لا يضيرك أن يمتد حكمه سنة أخرى تضاف إلى ما قبلها من السنوات، إنما الضير كل الضير، أن تنقلب إلى دمشق فلا تجد لك مكانًا في قصرك، ولا يزال الناس يترقبون عودتك، بين موالٍ ومحايد ومتربّص، فالبدار البدار إلى دمشق يا أمير المؤمنين ؟

قال عبد الملك، ألك حجة قاطعة على صحة ما تشير به ؟ فصاح قبيصة، الحجة واضحة كالشمس، أنت إذا اتجهت إلى

مكة كي تحارب ابن الزبير، قال الناس إنه باغٍ يطلب ما ليس له، فانضموا هناك إلى ابن الزبير أما إذا اتجهت إلى دمشق، تنازل ابن سعيد، قال الناس، مظلوم يطلب حقّه، فكانوا معك، ولأن تكون في الحرب صاحب حق خير من أن تكون باغيًا يتجافى عن الحق !

صاح عبدالملك، أليس لي حق الطاعة على ابن الزبير، فكيف أكون باغيًا يا قبيصة، فقال محييًا، أنا أحدثك عن كلام الناس لا عمّا أعتقد، فلماذا تسألني، وكأني أخاصمك، ولا أصافيك !

فابتسم عبد الملك كمن يحاول أن يظهر استخفافه بواقعه، وقال لقبيصة، هيّا فلنخبر الجند بالرحيل إلى دمشق، ولن يفاجئوا بغير ما يتوقعون، إذ جاءت إليهم أنباء عمرو بن سعيد، وهم معي عليه الآن، فإذا تباطأت فربّما أغرتهم الوعود ممن يندسون في الصفوف، ثم لا أملك من أمرهم شيئًا، هيّا يا قبيصة، أعلن الرجعى دون إمهال .

سار الجيش قافلًا إلى دمشق، وخلا عبد الملك إلى أصحابه الأقربين، يسألهم المشورة، فكلهم أجمعوا على أن يبدأ بحصار دمشق، ثم يعلن عصيان ابن سعيد ومروقه، ويتهددهُ بالقتل إذ خان الأمانة، وفرّق الكلمة، ونكث بالوعد، ثم لم يرسل عيونه إلى أتباع ابن سعيد الأبعدين، يعدهم ويمنّيهم، ليصرفوا وجوههم عن تأييده، يخاطبهم بأسمائهم، ليتأكد كلّ واحد أن أمير المؤمنين حريص على استرضائه بالذات ! أما أتباعه الأقربون، فحين يجدون إحكام الحصار، وتسلّل

Looloo
www.dvd4arab.com

الجند إلى جيش عبد الملك، فإنهم سيفتون فى عضده، بما يهوّلون من الأمر، حتى يضطر إلى الإذعان فتستسلم المدينة دون قتال.

قال عبد الملك، لى رأى، هو أن أختار من المحايدين من يذهب إلى عمرو بن سعيد، فيبلغه أننى أبايعه بولاية العهد من بعدى، وأن يقيم فى القصر معى استشيره فى جلائل الأمور، وأن ينوب عنى فى كل مجلس اضطر إلى الاحتجاب عنه، وأن يكون له من المال والعقار والجاه مثل مالى، فلا فرق إذن بينى وبينه إلا أننى أمير المؤمنين، وهو ولى العهد ..

قال قبيصة، وأنا الذى سأسعى إليه، وأبلّغه هذا مع من اختار من صفوة القوم، كى ينحسم الموقف دون المزيد من الدماء! هذا إذا شاء أمير المؤمنين أن أكون رسوله الأمين!

لم يكن عمرو بن سعيد يظنّ أن عبد الملك سينقلب إلى دمشق بعد أن وصل إلى أطراف مكة، بل لابدّ من الالتحام مع جيش ابن الزبير، فإذا قضى عليه، فله أن يستقل بإمارة الجرمين مكانه وسيصافيه على البعد، ما مدام نائبًا عن دمشق، وإذا دارت الدائرة على عبد الملك، فقد أنقذه الله من شره، وتفرق أنصاره أباديد، وسلمت له دمشق، وما يتبعها من العواصم! ولابن الزبير يوم قرب أو بعد، بل إذا لم يكن له يوم، فلم لا تتعدّد الخلافة فى مكة ودمشق، إنه الآن مطمئن إلى مكانه فى قصر الخلافة، ولن يزحزحه عنه مزحزح، وحوله الأجناد، ومعه الذخيرة والعتاد!

هكذا كان يفكر عمرو بن سعيد، وهكذا كان أتباعه يزيّنون

له الأمر، ثم فوجئ بالجيش الزاحف يحاصر العاصمة، فأظهر حماسةً وتأهّبًا، وجمع الجموع وتهيّأ! ولكن الجيش القادم يحاصر ولا يتقدّم، والأيام تمرّ، والمدينة فى حاجة إلى البرة تفد إليها من الضواحى برًّا وفاكهة وأرزًا، وتمرًا ولبنًا، ثم تأتيه الأنباء بأن فريقًا من جنده يتسلّلون إلى الخارج لينضموا إلى كتائب عبد الملك، إذ أخذت رسله تعدهم وتمنّيهم؛ وفى هذا الضيق الكارب يفد قبيصة بن ذؤيب الخزاعى على رأس وفد من عبد الملك، يعلن رغبة المؤمنين فى حسم الخلاف، على أن يكون عمرو بن سعيد صاحب الأمر من بعده، وله من الجاه والمال والأمر ما للخليفة، إذ يكون جليسه فى قصره، يتشاوران، ويقرّران، وعبد الملك هو الأكبر سنًّا، فهو الأولى بالتقديم! وكانت فى قبيصة لباقة وحصافة، فاستمال ابن سعيد بما ذكره من قرابة أمير المؤمنين، وأنهما فرعا دوحة واحدة، وإذا جاز لابن الزبير أن يعادى بنى أمية، فما يجوز لابن سعيد بن العاص أن يقف من ابن عمّه موقف النابذ العقوق! والأيام تُسرع فى المسير، ولا ندرى ماذا يتنفّس عنه الغد! فى مثل هذه المعانى دار قبيصة ومن معه، حتى استجاب ابن سعيد، وهرع إلى عبد الملك مستقبلًا، فرفع الحصار، وهدأت النفوس! ودخل عبد الملك قصر الخلافة كتفًا إلى كتف مع عمرو بن سعيد!

لم يكن عبد الملك راضيًا فى أعماقه عن عمرو بن سعيد، ولكنه أرجأه إلى أجل يمكنه أن يقتص منه فيه، كذلك كان عمرو يتوجّس الشرّ من ناحية أمير المؤمنين، وفيه عنجهية لا يقدر معها على إخفاء نيّته، فقد جعل لا يذهب للقصر إلّا

www.dvd4arab.com

محوطًا بمئات من الجند، كما أخذ يقيم لنفسه أتباعًا بلغ تعدادهم أربعة آلاف رجل، لا يترك السلاح منهم أحد لحظة عين ليكون طوع إشارته متى تأزم الموقف، وخلا عبد الملك بصديقه ابن ذؤيب قبيصة، فقال له :

أتظن أنى أعيش فى سلم من أهلى، وابن سعيد يصحب الآلاف من ورائه، وكأنه يريد أن يغزو الخوارج أو ابن الزبير ؟

فقال له قبيصة، خادعه يا أمير المؤمنين، وقل له إنك علمت أنك تحشد خلفك الجموع تأهبًا لمنازلة ابن الزبير، فمتى تزمع المسير !

فتطلّع عبد الملك إلى قبيصة وقال: أتراه يطمئن إلى خداعى لو بدا كما أشرت، وهو خبّ حصيف !

فقال قبيصة، وإذن فما العمل ؛ لابد من إجراء حاسم قبل أن يستفحل الشرّ : على خطورة ما نستهدف وتعذّره !

قال أمير المؤمنين : وما وجه الخطورة التى تراها أنت إذا حاولت حسم الشر ؟

فردّ ابن ذؤيب، هؤلاء الذى يلتفون به عن الأيمان والشمائل ! إنه حين يدخل قصر الخلافة يترك خلفه مائة فارس يدجّجون بالسّلاح ! أترى هؤلاء يحيطون بالقصر من جميع الجهات، ثم يأتيهم مصرعه على يدك فينصرفون فى هدوء ! وكأنّهم يبايعونك من جديد !

فتفرس عبد الملك فى وجه قبيصة ثم قال : بأىّ سبيل جمع ابن سعيد هؤلاء الأوشاب؟ إنه نهب مال دمشق فى غيبتى،

وفرقه عليهم ذات اليمين وذات الشمال ، ونظر هؤلاء الغراة الجياع فوجدوا أنفسهم من أصحاب الثراء فشايعوه طامعين ، ولو نفدت أموالهم ، لتركوه غير عابئين ، سآتيهم أنا من طريق المال ، لأضرب الصخر بالصخر وسترى !

قال قبيصة هو ما تراه يا أمير المؤمنين ، وأنا أرتاح إليه لأن الذى جاء طمعًا فى المال ، سينصرف طمعًا فى المال ، مهما أهرق دم عمرو بن سعيد !

ومضى الليل ، وأشرقت تباشير الصباح ، فاستيقظ عبد الملك مبكرا ، وأحضر أخاه عبد العزيز بن مروان ، وأطلعه على ما ينوى أن يصنعه ، ولكن عبد العزيز تلكّأ ، وقال : أرجو أن أكون بعيدا عن دم عمرو ؛ فاطلب لمصرعه سواى !

فلم يغضب أمير المؤمنين ، ونادى (أبا الزعيزعة) وأمره أن يحد السيف ، وأن يجمع آلاف البدو ، وجاء ابن سعيد كعادته مختالا يحمل سيفه ، ويضع الدرع على صدره ، فقابله عبد الملك مؤانسًا ، وجعل ينتقل معه فى شئون من حديث ابن الزبير وما يأمل أن يصيده به ، ثم نظر إلى أبى الزعيزعة نظرة يعرف معناها ، فتقدّم فاستل السيف من يد سعيد ، وكان لا يتوقع أن يُهاجم ، فلم يكن متمكنًا من قبضته ، ثم هجم أتباع (أبى الزعيزعة) فتناولوه بالسيوف ، حتى تركوه قطعًا قطعا ، وأدرجوا جثته فى بساط أعدّ لذلك ، وجزّوا رقبته ، فرموا بها إلى أتباعه حول القصر ، وقد فوجئوا بما لا يتوقعون ، ولكنّ البدو قد تساقطت على رءوسهم ، فذهلوا عن مصرع سيدهم ، وكان همّ الواحد منهم أن ينال بدرته ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ويسرع قبل أن يقاسمه سواه ما بها من الفضة والذهب ! وكأن عبد الملك كان يشهد القوم بعينه حين أحكم تدبيره فجاء وفق مبتغاه ، ثم خرج إلى ردهة القصر ، فتطلّع إليه من بقى ، فخطب القوم خطبة قال فيها ، إن عمرا بايع ثم غدر ، وقد قتل بما كان من القضاء النافذ ، والأمر السابق ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه ، أن يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغنى فقيركم ، ويبلغكم أكمل ما ترجون من العطاء والرزق فاقبلوا أمره ، واسكنوا إلى عهده ، يسلم لكم دينكم ، « ولا عدوان إلّا على الظالمين » ووالى إسقاط البدو فصاح القوم : نعم نعم ، سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين .

ثم أذن لبعض الوجهاء من علية أصحاب عمرو أن يدخلوا إليه ، فأخذوا يتحدثون بعفو عبد الملك وسماحته وأعلنوا أنهم قد خدعوا فى ابن سعيد لأنه سحرهم بأكاذيبه ، ولم يكن من الصدق فى شئ ، فقال عبد الملك : مضى ما مضى ! والأمر لله من قبل ومن بعد ، فاعملوا على تهدئة النفوس ، ورأب الصدوع ، وكل شيخ مسئول عن أهله ، ومعى العفو ، ومعكم الطاعة ، ولله عين لا تغفل ، ثم أخذوا ينصرفون ، وخلا عبد الملك بقبيصة فقال له . أرأيت يا أمير المؤمنين ؟ كيف سبُوا عمرو بن سعيد ، واتهموه بالكذب ، فقالوا إنه لم يكن من الصدق فى شئ !

فقال عبد الملك ، كذبوا والله ، لقد كان صدوقًا فى أكثر أحواله ، ولولا غدره بالبيعة لقلت فى كل أحواله ، ولا يمنعنى بغضى إياه ، أن أعترف بمزاياه ، ولولا طرد أمره على الصدق لبلغ منا كل ما أراد .

ولكنه رام التى لا يرومها من الناس إلّا كلّ حر معمّم !

- ٢ -

جلس عبد الملك صبيحة يوم فى جماعة يتشاورون فيما سينهض به من الأعباء ، بعد أن استراح من عمرو بن سعيد ، وكان من عادته أن يستمع الآراء جميعها ، ويترك لأصحابها أن يدافعوا عنها بعيدا عن تدخله ، ثم لا يصدر رأيه إلّا بعد أن يسكت الجميع ، ويتطلب الموقف أن يقول !

وقد قال روح بن زنباع ، إن علينا أن نتوجه إلى العراق ، فقد استفحل أمر المختار هناك ، وهو يلعن أمية وآل مروان على منابر الجمعة فيلاقى الارتياح .

وقال قبيصة بن ذؤيب ، إن أمْر المختار أسهل من أمر ابن الزبير ، فهو يحلم بامتداد سلطانه إلى الشام ومصر ، وله خصوم داخل دولته ، أعرف أنهم سيتخلّون عنه إذا ذهبت إلى حربه جيوش الشّام ، فإذا سقط ابن الزبير سقط المختار من ورائه ، لأن تحالفًا سريًا بين الرجلين .

وقال أبو المهاجر : وإن زفر الحارث ومعه قبائل قيس تحتل حصن (قرقيساء) وهو المدخل إلى العراق ، ولن يستطيع جيش الشام أن يتقدم إلى المختار أو إلى الزبير حتّى يعترضه زفر ! فهو العقبة الأولى ، والبدء به خطوة من خطى النجاح !

تطلّع القوم إلى عبد الملك فوجدوه يسمع ، ولا يتكلم ، وكان لقبيصة بن ذؤيب دالة عليه ، تجعله يتكلّم معه متى يشاء دون تحرج فقال فى اهتمام ، مالك يا أمير المؤمنين ، تصغى ولا يعنيك أن ترد :

Looloo
www.dvd4arab.com

فابتسم عبد الملك وقال : لقد سمعت كل ما قيل ، وما غاب عنى شىء منه قبل أن تقولوه ، بل أزيد على ما قلتم أنكم نسيتم خطرًا رابعًا ، فقد نكرتم المختار وابن الزبير وزفر ونسيتم أمر الخوارج ، وهم أعداؤنا قبل أن يكونوا أعداء غيرنا ، فلماذا لاتدخلونهم فى الحساب ، لتتعدد أمامنا الجبهات .

ابتسم روح بن زنباع وقال : قد ضممنا الخوارج إلى ما نحذر ، فماذا سنعتزم عليه !

فردّ عبد الملك ، عجبًا لك يا روح ، تريدنى أتعجّل قبل أن أرضى جند الشام ، وفيهم من يغضب علىّ ، وقبل أن أرضى أمراء أسرتى ، وفيهم من أعلنتنى بالقطيعة .. ! كيف أذهب بجيش منقسم ؟ ثم أتجهُ إلى خالد بن يزيد بن معاوية وقال له : أفصح للقوم عمّا واجهتنى به أمس يا خالد ! فقد يحكمون بينى وبينك !

قال خالد : معاذ الله أن يتدخّل بيننا أحد يا أمير المؤمنين ، وإنما أبلغتك ما ترامى ! إلى سمعى من أبناء عمومتك وهم أولو حقوق عليك !

اعتدل عبد الملك فى مجلسه ليقول : أخبرنى خالد بأن أبناء عمومتى غاضبون بعد مصرع عمرو بن سعيد ! ولهم أن يغضبوا إذا جهلوا أنه بايع ، ثم غدر حين كنت متوجها للحرب فى العراق ، وصفحت عنه فأخذ يهددنى بجيش يسير خلفه مسلحًا مدجّجًا ، ولن يجتمع السيفان فى قراب واحد ! فإذا سلم فقد هلكت ، وإذا هلك فقد نجوت ؟ فأيهما الأولى بالهلاك من عاهد فغدر ، أم من انتصر لنفسه بعد أن بغى عليه !

قال خالد بن يزيد : يا أمير المؤمنين . ليس الغضب لعمرو ابن سعيد وحدُه ، بل لأبى يزيد الذى وصفته بالضعف ، ولجدى معاوية الذى وصفته بالخداع ، ولكلّ من ينتسب إلى أمية غير بنى مروان !! من وُلاتك وأعوانك ، أليسوا إخوتك ، وأصدقاءك الأقربين !

قال عبد الملك : علم الله يا خالد أنى معجب بصراحتك ، وأتقبلها بسرور لايحدّ ، لأن من يظهر مكنونه صديق لاعدوّ ، غير أنى أحبّ أن أفصح عن أمر خفى عنك ، هو أنى وصفت يزيد بالضعف ، لأحميه من وصف آخر أشد أثرًا ، لقد شاع بين الناس أنه أمر ابن زياد بقتل الحسين ، وسرى هذا القول الباطل فى قلوب المسلمين سريان النار فى الهشيم ، فأخذوا يلعنون يزيد فى كل مكان ! بل يلعنون بنى أمية جميعًا ، ومن بينهم بنو مروان يا خالد ، فقلت فى خطبتى الشهيرة ، إن زياد هو الذى تولى كبر هذه المأساة ، وأن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد فزع هلعًا حين جاءه نعى الحسين ، وقال لعن الله ابن مرجانة !! فقد دفعنا إلى مضيق كريه ، ثم استقبل أسرة الحسين أكرم استقبال ، وترك لهم أن يقطنوا أى مكان يرضون ! وحين سئلت بعد هذا التقرير الحاسم ، لماذا لمْ يعاقب ابن زياد على جريمته ، قلت قد يكون خاضعًا لبعض لحظات الضعف الإنسانى ! وما زدت على ذلك ! أفيكون هذا اتهامًا لأبيك أم محاولة لاسترضاء المسلمين عنه يا خالد !

قال قبيصة بن ذؤيب ، أمير المؤمنين أبعد نظرا ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وأصدق فراسة يا خالد ، وإذا كان لك أو لغيرك مأرب ما فأبلغه إليَّ ، وأنا الكفيل بتحقيقه ، فأنا أدرى الناس بمشاعر أمير المؤمنين !

فصاح روح ابن زنباع ، تطرق الحديث بنا إلى نزاع سطحى لا أثر له ، وتركنا النقاش فيما سيعتزمه أمير المؤمنين وهو يجابه أربع جبهات !!

فابتسم عبد الملك قائلاً ، أحسنت يا روح ، فماذا ترى أنت ؟

قال أرى أن نشعر أعداءنا بأننا لهم بالمرصاد ، وجيش المختار يصمنا بالكفر ، وبالمروق عن الإسلام ، فلماذا لا تسير جنود الشام إليه ، تحت قيادة ابن زياد ، فهو أدرى بمسالك العراق ، ودروبه ، فلئن وُفق ، فقد كفَر عن خطئه ولئن أخفق ، فقد لقى جزاء ما اقترف !

قال عبد الملك هذا رأى ، فهل من رأى ثانٍ ؟ قال قبيصة ، أرى الشقاق واقعًا لا محالة بين ابن الزبير والمختار ، وبين الخوارج وابن الزبير والمختار جميعًا ، فلماذا لا نترك خصومنا يتصارعون ، حتَّى يهزم بعض بعضا ، ثم نهيِّئ جيشنا للنصر الأخير !

فرد أبو المهاجر ، هذا لو سكت ابن الزبير عنَّا ، فقد أرسل كتائبه للمناوشة على حدود بادية الشام ، وله جماعة بمصر تدعو له ، وقد سعى إلى اصطفاء زفر واستمالته إليه ! ومن يدرى فقد يتحالف ابن الزبير والمختار ويتوجهان إلينا ، أفننتظر .. وإلى متى ؟

قال عبد الملك : أما تحالف ابن الزبير مع المختار ، فمن المستحيل ، لأن كلًا منهما يريد أن يغتصب مكان الآخر ، وقد سمعت كل ما قيل ، ولن أنتظر ، ولكنْ لن أهجم دون تدبير !

قال الجميع : وفقك الله يا أمير المؤمنين !

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

مصرع ابن القاسم

جلس فى المسجد النبوى خارجة بن زيد بن ثابت ، وسالم ابن عبد الله بن عمر ، وكلاهما من فقهاء المدينة الأعلام ، وممّن يمتُّون إلى صحابة رسول الله بأقرب الوشائج ، فأولهما ابن زيد ، وثانيهما ابن عبد الله ، جلسا يتحدّثان عمّا جدَّ بعد تولية سليمان بن عبد الملك من ظلم فادح لحق أبطالاً مغاوير ، فتحوا البلاد ، ونشروا ديـــن الله فى الشرق والغرب ، وبدل أن يلاقوا ما يلاقيه أبطال النصر من التقدير التام ، والحظوة المكافئة ، قوبلوا بمثل مايُقابل الفجرة من قطّاع الطريق ، قال سالم بن عبد الله : ومن الذى سيرضى أن يقود الجيوش ، ويواصل الجهاد ، وهو يرى أنَّ ثمرة النصر فى المعارك الساخنة ، وعقبى الظفر فى المواقع الرهيبة قتل ونفى وتشريد . إنَّ الذين لم يفارقوا دمشق من أبناء مروان ، يرفلون فى المطارف الزاهية ، ويسكنون القصور العالية ، وتموج خزائنهم بالذهب والفضة ، والذين جاهدوا فى سبيل الله وأدوا كلمة الحق فى أقصى البلاد لاقوا أذلَّ مهابط الهوان ، ومنهم من سال دمه بتدبير دنئ . ليقال إنَّه أجرم فعوقب ، والله يعلم المفسد من المصلح !

فقال خارجة ، وأعجب ما نراه ، أن تسكت الألسنة عن الجهر بالحق ، ثم تبجِّل منْ سعى فى الأرض بالفساد ، وتريه من مظاهر الطاعة ، وتسمعه من عبارات الثناء ما يجعله يعتقد

أنه محق فيما أجرم ، أين عهد جدّك عمر بن الخطاب يا سالم ، بل أين جدّك نفسه ، ليرى ما يشيب له الولدان !

قال سالم ، من أوهن المفارقات أن يفرح الوثنيون فى الهند ، والمجوس فى بلاد ما وراء النهر ، والنصارى فى ربوع الأندلس بنكبات محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى ابن نصير كما يفرح الآن أمير المؤمنين ، وحاشيته فى قصر الخلافة بدمشق ، فيكون الشعور واحدًا بين الكافر ، وخليفة الله ، بل إن سليمان أهدى لهؤلاء مابرّد جوانحهم ، وأضاء البسمة فى وجوههم ، حين جعل المخلصين من أبناء الإسلام يتحرقون غيظًا ويلتهبون حفيظة ، ولا يدرون ماذا سيفاجئهم القدر به من أهوال بعد أن تنكب حكامهم صراط الله القويم !

فردّ خارجة يقول : لقد فكّرت فيما ارتكبه هؤلاء الفاتحون من جرائم يحسبها عليهم سليمان بن عبد الملك ، فإذا جميعها تنتهى إلى أمر واحد ، هو أنهم كانوا بناة الدولة فى عهد أخيه الوليد بن عبد الملك ، ولو كان هذا التسرُّع العجول يعيد النظر ، لعرف أنَّهم سيواصلون جهودهم الباسلة إذا تركهم فى ميادين القتال ، فيعود عليه من المجد الحافل ما عاد على الوليد على أيديهم من فتوح ! ولكنه تذكّر أنَّهم طاوعوا أمير المؤمنين على البيعة لولده ، ثم شاء الله فلم تتم البيعة ، وما كان لهم أن يشذُّوا وهم فى ساحات القتال ، فتتفرق الكلمة وينقسم الجيش على نفسه ، وبدل أن يقاتلوا الأعداء يقع بأسهم الشديد بينهم ، فيكونون فريسة سهلة للأعداء هذا ما حذروه وخافوه فآثروا الطاعة دون المروق !

Looloo
www.dvd4arab.com

وما انتهى خارجة من قوله، حتى وجد عامر الشعبى تلميذه الفقيه العالم المتمكن، يتقدّم إلى مجلسهما محيّيًا، وقد سارع فقبّل كفى خارجة وسالم فى أدب يعهد أنه فيه، ثم أخذ مجلسه منهما فى وقار وحياء! فقال سالم، ماوراءك من الأنباء يا عامر، فأنت تلابس الناس، وتفد إليك الأخبار من أقاصى الأرض دون حجاب!

فأطرق عامر الشعبى إلى الأرض، وهو يقول، رحم الله عبد الملك بن مروان، فقد كان رجل بنى مروان الأوحد، وما رأينا بعده من بلغ مداه!

فصاح سالم، فعرف أن عبد الملك كان يجالسك يا عامر، وكنت عنده ذا حظوة، وقد أوفدك إلى ملك الروم لتتحدث باسمه، وها أنت ذا تحفظ له الجميل، وتترك أحداث اليوم لتفيض فى أنباء الأمس، وما تحت كوارث اليوم إلّا بناء على تدبير عبد الملك؟

فرفع عامر رأسه مندهشًا، وقال فى حيرة: كيف تمت كوارث اليوم بتدبير خليفة غاب عن الناس، وترك الأمر لسواه، أيكون قد أرسل من قبره خطابًا، يعجّل بالتنكيل بأبطال الجهاد! إن الله عز وجل يقول: ولا تزر وازرة وزر أخرى، فكيف يتحمل أمير المؤمنين عبد الملك وزر ولده سليمان!

قال سالم: أراك تحاول التجاهل يا عامر، ومثلك فى نباهته المتيقظة، لايفوته ما أعنيه، فأنت تدرى أن عبد الملك قد جعل العهد للوليد ثم لسليمان من بعده، وتطلّعت نفس الوليد إلى بيعة

ولده دون أخيه، فلو أن عبد الملك لم يجعل العهد إلا للوليد تاركًا أمر الغد لتدبير الله، ليئس سليمان، وما اشتعل غضبًا على من وافقوا أمير المؤمنين الوليد، فارتضوا بيعة ولده دون أخيه.

قال عامر، تلك سنة سنّها مروان بن الحكم، إذ أخذ العهد لولده عبد الملك ثم لولده عبد العزيز من بعده، فعبد الملك مسبوق بمن حاكاه!

قال خارجة ـ وقد حدج ببصره عامر الشعبى ـ: كأنك ترى يا عامر أن الخطأ يبرر الخطأ، وسيجىء من الخلفاء من ينكل بأبطال الإسلام، فيقول قوم قد سبق إلى ذلك سليمان بن عبد الملك، فهو مسبوق بمن حاكاه! أهذا رأى الشعبى العالم الفقيه؟

فتراجع الشعبى يقول: أنا عالم فقيه بين العامة، أمّا لديكما فتلميذ أتعلّم، وها أنتما تصحّحان ما أقع فيه من أخطاء، ولا أجد ما أردّ به غير التسليم! وإنّها لمأساة!

فقال سالم: أخبث ما فى هذه المحنة أن سليمان بن عبد الملك، كان صريحًا فى مجابهة فتية وموسى بن نصير بذنبيهما، إذ قال للأوّل: قد بايعت لابن الوليد، وقال للثانى: حملت الغنائم للوليد، ولكنّه أعلن أنّ مصرع القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى كان جزءًا لاعتدائه على امرأة، وهى فرية لم يقم على ثبوتها دليل واحد، وقد وجد من الرعاع من أيّده وحبّذ منحاه!

قال خارجة: جاءتنى أقوال مضطربة، لم تستقم على نهج واضح حول هذه الفرية، وأحبّ أن أقف على وقائعها بالتفصيل، فماذا عندك من أمرها يا عامر!

Looloo
www.dvd4arab.com

قال الشعبى : إن الذى تحققته عن يقين، أنّ سليمان كان يكنّ للحجاج بن يوسف أشدّ قوارص البغض، ويراهُ يد أخيه وسيفه، وبمجهوده الجبار سيصبح ولده ولىّ العهد، ولكن الحجاج مات قبل أن يدرك سليمان ثأره منه، فانتحى بعقابه إلى كل ثقفى له صلة بالحجاج، وإذا كان محمد بن القاسم بن محمد الثقفى من أقرب الأقرباء للحجاج، وقد أخذ قيادة الجيش بتدبيره، فلابد أن يكون موضع الانتقام الجائر ! ولكنّ البطل الفاتح قد ملك قلوب المسلمين بما غنم من مجد، وفتح من حصون، وضمّ من ربوع، فكيف يجرؤ على اغتياله، والمسلمون جميعًا يرددون اسمه بالثناء، لابدّ إذن من اختلاق فرية، والحق أن أمير المؤمنين لم يدبر الفرية بنفسه، بل فعلها سواه ! تزلفًا إليه، إذ لمس هواه فى الإطاحة بالبطل الشهيد.

قال خارجة، هذا مجمل يحتاج إلى تفصيل، فهات كل ما لديك !

فردّ الشعبى يقول : لقد عزل سليمان محمد بن القاسم لأول عهده بالخلافة، وولّى مكانه يزيد بن أبى كبشة، فذهب إليه بالهند ليضع الأغلال فى قدمه وكفّه، ثم تعاون مع صالح بن عبد الرحمن على اختلاق فرية مسمومة، تسىء إلى البطل الشهيد، إذ اتفقنا على اختيار أميرة من بيت (الراجه داهر) الذى صرعه ابن القاسم فى حربه، وبدّد ملكه، لتأتى إلى دمشق فى رعايتهما، وتحدث أمير المؤمنين عن انتهاك ابن القاسم لحرمتها، والأميرة موتورة لمصرع أبيها، وذهاب ملكه على يد البطل الفاتح، وتريد أن تشفى غليلها بأمر يعود عليه بالوبال ! فاستجابت لما طلب منها بتدبير الخبيثين

الحاقدين، وجاءت إلى دمشق، لتُسمع سليمان ما يرضيه، فأمر بالانتقام العاجل، وصدر الأمر بقتل البطل دون أن يسمع له ردًا على اتهام.

قال سالم : هذه فرية مفضوحة، لأن الأميرة قد وقعت سبيّة فى الأسر، ولو أرادها ابن القاسم لنفسه، لحلّت له دون أن يوصف بانتهاك محرم، ولو كانت الأميرة فى قصر والدها المنتصر، واغتصبها البطل كما يدّعون لقبلت الفرية، ولكنّ الفتاة أميرة، وأمثالها يُحبسن بالمئات ! فهل فرغ ابن القاسم من مشكلات الحرب وأعباء النضال فى بلد غريب، ليصبح فارسًا للحسان !

قال عامر : وقد علمت الأميرة أنّ أمير المؤمنين قد قتل ابن القاسم متأثرًا بما قالته، فثار عليها ضميرها، وأذاعت أنها أُرغمت على أن تقول الكذب، وقد وعدها من دبّر الإفك بأنّ المُلك سيرجع إلى أهلها لو وصمت ابن القاسم بالعار، ثم اتضح لها أن صالح بن عبد الرحمن وابن أبى كبشة، قد خدعاها بالأباطل، وجاء النبأ إلى سليمان، فقيل إنه ندم !

قال خارجة : ولات حين ندامة، فقد سبق السيف العزل.

فرد سالم : لو تحقق ندمه لبادر بعقاب من توليا المكيدة، وأهون مظاهر العقاب، أن يعزلهما عمّا بيديهما من الأمر، ولكن ابن أبى كبشة قد ولى الأمر فى الهند بعد البطل، ومازال متمكنًا من إمارته دون أن يزيد شبرًا واحدًا للإسلام فى أرض الهند، وصالح بن عبد الرحمن يقوم على أمر

Looloo
www.dvd4arab.com

الخراج بالعراق، وقد اشط فى جميع ما يرضى الخليفة، ثم ما زال ناهضًا بأمر الخراج! فأين الندم إذن يا عامر ؟

قال عامر : لقد تحدثت بما سمعتُ، وذكرت أن ندم الخليفة قولٌ لم أتحققه، وهأنذا أسمع من الدلائل على لسان شيخى وسيدى سالم، ما أبان وجه الصواب .

قال سالم : أنا أعلم أنّ جدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قد نهى عن غزو الهند، فحين، كتب إليه عامله على البحرين، ـ عثمان بن أبى العاص الثقفى ـ يستشيره فى غزو الهند، هدّده قائلًا : يا أخا ثقيف، لقد حملت دودًا على عود، وإنى أحلف بالله لو أصيب عدد من جندك لأخذت من قومك بمثلهم .

فرد خارجة، كانت حروب الفرس والروم حينئذ مشتعلة بينهم وبين المسلمين، فرأى ابن الخطاب ألّا يهاجم الهند، فيفتح ميدانًا ثالثًا فى وقت واحد، وتلك فراسة منه، وقد تغير الوضع بعد هدوء المعارك فى فارس وبلاد الشام، فتتابعت الغارات الإسلامية على جزر الهند وسواحلها، وأخذ رجالها يستوطنون أماكن مختلفة دون أن يقوموا بمعارك حربية تذكر ثم استهيج الحجّاج بما استفزّه، فقرر الغزو بقيادة محمد بن القاسم .

قال سالم : كيف استثير الحجّاج بما استفزه يا خارجة ؟ فقال سالم : هذا أمر مشتهر فكيف يغيب عنك، ألست تعرف ذلك يا عامر ؟ قُلْهُ إذ علمت .

قال عامر : قبل أن أتحدث عن استفزاز الحجاج، أذكر أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أرسل واليه على العراق، وهو عبد الله بن عامر ليستكشف الهند، مع نفر من جنوده، فلما عادوا، توجه منهم حكيم بن جبلة إلى المدينة ليخبر عثمان بما رأوه، فقال حكيم : « ماؤها وشل، وتمرها دقل، ولصها بطل، إن قل فيها الجيش ضاعوا، وإن كثروا جاعوا » .

قال عثمان على البديهة، أخابر أم ساجع ؟! ثم انثنى عن الغزو .

ضحك سالم وقال : تأتى بالطرائف الأدبية دائمًا يا عامر، فتحدث عمَّا تبع ذلك !

قال الشعبى : حين ولى الإمام علىّ كرم الله وجهه إمارة المؤمنين، اتجه ببصره إلى الهند، فأرسل جيشًا بقيادة الحارث بن مرة العبدى، فوصل إلى الجزيرة الهندية عن طريق خراسان، وظفر وأصاب مغنمًا، ثم انتكس الأمر عليه، فقتل هناك فى مؤامرة دبِّرت له، وعاود معاوية الكرة، فأرسل جيشًا بقيادة المهلب بن أبى صفرة، ومعه أهله من الأزد، فأبلوا بلاءً حسنًا فى أرض (بنّة) بين كابل والملتان، وفيهم يقول الشاعر :

ألم تر أن الأزد ليلة بيّتوا (بيتّة) كانوا خير جند المهلب

ثم عاد المهلب ليصلّى معارك أخرى، أشار بها معاوية، فخلفه عبد الله بن سوار، وجاهد جهادًا ميمونًا، حيث ضرب المثل فى المروءة والكرم والشجاعة، ثم لقى الله شهيدًا فى

Looloo
www.dvd4arab.com

مؤامرة ثانية، وتتابعت الكتائب للاكتشاف، إذ لم ينقطع الاستطلاع فى أرض الهند، حتى جاء الحجاج فأولى المسألة اهتمامه البالغ، وأرسل محمد بن هارون إلى جزيرة الياقوت، فوجد فيها نساء مسلمات من بقايا جنود الغزو التى بدأت منذ عهد الإمام علىّ، وأراد بن هارون أن يبعث ببعضهن إلى العراق كما أرَدْنَ، فساق سفينة محملة بهنّ، ولم تكد تمر بميناء الديبل حتى هاجَمَها فريق من الجند، وصرخت امرأة من يربوع منادية باسم الحجاج، وطار الخبر إليه، فبعث إلى (الراجه داهر) أمير الديبل يطالبه برفع الاعتداء، ورَدّ المسلمات مكرمات، ولكنّ الأمير الهندى استهان برسالة الحجاج، وقال فى ردّه، قد استولى اللصوص على السفينة بمن فيها ولا أعلم شيئًا، هنا كان استفزاز الحجاج، ومن هنا بدأ عزمه الأكيد على تأديب هذا المستخف، بل على غزو الهند جميعها، وأعدّ العدّة الكافية لما يريد ..

قال خارجة: لقد كنت مؤرخًا ياعامر، ولكنّ صورة الحجّاج فى مرآتك مشرقة كريمة.

فرد عامر يقول: أنا ياسيّدى خرجت على الحجاج فى حربه مع ابن الأشعث، إذ كنت وجماعة من الفقهاء نناصبُه العداء، وحين تمّ له النصر، عفا عمن اعتذر، وكنت أحد هؤلاء المعتذرين، فللرجل مظالمه التى دعتنى إلى الانضمام لابن الأشعث ما أنكر هذه المظالم ولا أستطيع، ولكن له مزاياه القيادية الباسلة، ومواقفه المشرّفة فى انتشار الإسلام بخراسان وماوراء النهر، وجزر الهند، وسواحل قزوين!

يجب أن ننصف فلا نحجب حقًا، ولا نتكلم بباطل، لقد كان الحجاج صاحب الخطوة الجريئة الواثبة فى فتح الهند، وما كان من قبله فهو تمهيد محمود لا يبلغ مبلغ الغزو المفضى إلى النصر النهائى، وقد تمّ على يد البطل الفاتح محمد بن القاسم الثقفى، وبذخيرة الحجاج وحسن تدبيره، ويقظته الكاملة لما يتطلب القتال من أعباء!

سكت عامر بعد أن أجاب، وسكت صاحباه بعض الوقت، وكأنهما كانا يتأملان ما قاله الشعبى، فلم يجدا به ما يُعاب، ثم قال سالم بن عبد الله: كيف أسلم الحجاج قيادة الجيش لمحمد ابن القاسم وهو فتى فى السابعة عشرة من عمره؟ ومن أين له أن يعلم ما أحرزه من نجاح قبل أن يتحقق، أتراه كان يرى بعين الغيب!

فقال عامر الشعبى مبتسمًا: أأقول ما لدىّ؟ فردّ سالم: ما ذكرت سؤالى إلّا لأستمع الردّ فهيّا.

قال عامر، إن الحجاج لا يهزل فى أمر خطير كهذا الأمر، فالحرب ليست ميدان لعب ولهو، ولكنها جومة مشتعلة اللهيب، والفتى الثقفى ابن عمّ الحجاج، وقد أُرسل من قبل إلى فارس غازيًا، فجاءته الأنباء عنه بما رفع قدره فى نفسه، وحين صمّم على الغزو بعث يستدعيه من خراسان ليواجه العبء الكبير، وقد أمره أن يتخير من جنوده بفارس من سيكونون أعوانه، حتى إذا قدموا عليه بالعراق كان قد أعدّ الخطة بنفسه، إذ تنتحه الكتائب إلى الرّىّ، ثم تنتظر بشيراز، لتلحقها كتائب أخرى، أخذ يستدعيها على بعد، وهى فيالق من

Looloo
www.dvd4arab.com

خير جنود الشام انتخبهم الحجاج عن تجربة، وكانوا أكثر من ستمائة فارس، والغريب من أمر الحجاج أنه أشرف على المؤونة الغذائية للجيش بقدر ما أشرف على العدة الحربية، فجهّزه بكل ما يحتاج إليه، حتى الخيط والإبرة، وقد علم أن الخلّ يساعد على تبرئة الجراح سريعًا، فاحتال حتّى أتى بالقطن المندوف وغمسه فى ماء الخل المكثف، ليتشبع به، فإذا احتاجوا إلى الخل جاءوا بالقطن وغمسوه فى الماء ليرشح منه أعذب الخلّ وأجوده! أقول ذلك لأصوّر مدى اهتمام الحجاج بنفقات الجيش ومؤونته، لأن الذى يهتم بالإبرة والخيط، ويعمل على صيانة الخل بأدق الحيل لا يفوته شىء.

قال خارجة: فى الحجاج يقظة ونباهة، فقد عرف أن الحملة الهندية محسوبة عليه أمام أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وأن إخفاق محمد القاسم الثقفى لو تمّ، سيحدث تأثيرًا فى قصر الخلافة، إذ يقول القائلون: لقد حابى فتى مراهقًا من أبناء أسرته فجعله رئيسًا لجيش يغزو الأعداء، وفيه من القادة الأكفاء، ومن ذوى الدربة المحنكة فى القتال من لا يبلغ محمد ابن القاسم مبلغهم كفايةً ومراسًا واحتيالًا، لقد عرف الحجاج ذلك، فأعد كلّ شىء بنفسه، وصنعه على عينه، مع اعترافنا بأنه لمس كفاءة ابن عمّه، وأحاط بها عن برهان، فأراد أن يفسح له مجال التألق، ولا نعيبه فى اختياره، إذ صدقت الأيام ظنّه، فنجح القائد الشاب نجاح الشيوخ المحنكين.

قال سالم: نريد أن نعرف كيف تمّ الأمر لهذا البطل الشهيد، فحقق ما حققه من اكتساح، تكلم يا عامر!

فردّ الشعبى: لقد نُفذت خطة الحجاج كما رسمها بقصره، فسار الجيش إلى مكران وكانت بأيدى المسلمين، فانضم إليه من بها من الجنود، ثم زحفوا إلى مدائن قنزبور وأرمائيل والديبل، فوقعت الأوليان فى أيدى المسلمين دون جهد، أما مدينة الديبل فقد كانت من الحصانة المنيعة، والجيش المدافع، والتصميم الجاد على ردّ المغيرين، بحيث استدعت أعنف الجهود، لأنها فوق مناعتها القوية كانت محلًا لصنم وثنى خطير يسمى (البد) يبذل الهنود أرواحهم دونه، ويرون فى سقوط الديبل محوًا أكيدًا لهذا الصنم المقدّس، وقد عرف محمد ابن القاسم قوة اعتقاد الهنود فى (البد) فصمّم على أن يرميه بالمنجنيق، حيث زوّده الحجاج به، وسماه العروس، وقد بلغ من ضخامته أنه كان يحتاج إلى قوة خمسمائة رجل من الأشداء ليقذف بصخوره الضخمة إلى المدى البعيد، وقد طارت هذه الصخور صوب (البد) فسرعان ما تهاوى، وسقطت رايته الحمراء التى كانت تدور مع الريح فى الاتجاهات الأربع، وفطن الهنود أن الهواء مُسخّر لها، يصدر عن أمرها فى الهبوب! وقد فوجئ الهنود بسقوط (البد)، فكان هزيمة معنوية سرت إلى طقوسهم فزعزعت إيمانها به! وحين تلاقى الجمعان تمّ النّصر المبين! وقد سهل الأمر بعد ذلك فى المواقع الأخرى ومن أعنفها موقعة (مهران) التى جمع (الراجه داهر) بها كل قوته، لتكون نهاية العراك، وقد اعتمد على قوة الفيلة التى لم تكن بين العدة القتالية للمسلمين، ولكنّ ارتماء الصخور من العروس فوقها، قد أحدث بها

Looloo
www.dvd4arab.com

ما أحدث من الرعب، مع صواعق نارية أخذ المنجنيق يرسلها فى إصابة موفقة، ففرت الأفيال هاربة ومن ورائها فلول الجنود، إذ رأوا أنّ الدائرة قد دارت عليهم، ولم يبق من أمل فى النصر، وبخاصة وقد لاقى (الراجه داهر) مصرعه، فانتثر من بعده نظام الجيش أباديد.

قال سالم موجهًا حديثه لخارجة: هذا هو محمد بن القاسم الذى صُرع بسيف الحقد، ولاقى جزاء سنمار، ممّن كان من واجبه أن يبوّئه أرفى الدرجات!

قال عامر: لقد كان فى استطاعة ابن القاسم أن يعلن العصيان فى مكانه النازح، حين جاءه الوالى الجديد ليضع فى يده وقدمه الحديد، ولكنه اعتقد أن كفاحه البطولى سيشهد له أمام الخليفة، فرأى أن يسير إليه، ليعلم عن يقين أنه بطل من أبطال الدولة، أضاف إلى الإسلام أرضًا جديدة!

ابتسم خارجة ساخرًا، وقال: أضاف إلى الإسلام أرضًا جديدة!! كأن ابن عبد الملك يعنيه أن ينتشر الإسلام! ولو كان هو القائم على أمره! قل غير هذا يا عامر!

قال سالم: أرى نفسى تمتلئ من الغيظ، وكنت أوثر من قبل أن أسمع من الشعبى مأساة قتيبة بن مسلم بطل الإسلام وفاتح بلاد ماوراء النهر، ولكنّ أحشائى ستتمزق لو أصغيت إلى حديث النكبة الثانية، فلنا الله يا خارجة، قال خارجة: « ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ..... » ثم استأذن الشعبى ليتركهما فى أسف عميق.

(مكافأة الجميل)

اعتاد الشيخ نور الدين النجمى أن يصحب تلاميذه بعد صلاة التراويح إلى منزله، ليتحدثوا فى شجون من أمور الفقه والتفسير، لم يتسع لها حديث الشيخ عقب صلاة المغرب فى رمضان، إذ كان من عادته - وهو خطيب مسجد المزة بدمشق - أن يلقى دروس العلم فى ساحة المسجد بعد أداء فريضة المغرب، وقد يمتد الحديث بعد أذان العشاء قرابة نصف ساعة، فلا ينهض للصلاة إلا إذا أتمّ ما شرع فى توضيحه من تفسير آية أو شرح حديث، أو تعليل حكم شرعى، فإذا انتهت الصلاة، وتفرق الناس خفّ إلى منزله مع نفر من تلاميذه، فظلّوا يسمرون حتى يحين موعد السَحور، وقد يقيمون لدى الشيخ تحت إلحاحه، فيأكلون ما يأكل ثم يخفون إلى المسجد لصلاة الفجر، هكذا كان دأب الشيخ طيلة أيام رمضان، وكان فى سعة من الرزق وسماحة من النفس، فهو يبذل خيره لكل زائر، ويرى ذلك واجبًا إنسانيًا لا محيد عنه، وبخاصة فى شهر الصوم، كما يأتلق وجهه بالبشر إذ يطمئن إلى أنه أغاث ملهوفًا، أو أشبع جائعًا، ويعدّ ذلك مصدر سعادة نفسيّة، قبل أن يكون موضع مثوبة من ربّه، لذلك جعل المعوزون يؤمون منزله فى هذا الموسم الكريم دون تحرّج، فيسمون ما يُدار فى مجلسه الليلى من حوار، ويرجعون بما يريدون دون تقصير، وكأن الله عز وجل قد خصّ الرجل ببركة عامة، فالخير ينهلّ

Looloo
www.dvd4arab.com

عليه من كل طريق، وإذا أعطى مائة حلّت مائة أخرى من أيسر الأبواب، «وماكان عطاء ربك بمنقوص».

وقد جلس ذات ليلة يتسامر مع زائريه، فتطرق الحديث إلى الخليفة المأمون، ووالده هرون الرشيد، وأخذ كلّ متحدث يعبّر عن رأيه دون تحرّج، وقد امتد الحوار بين تلميذين من تلاميذه امتدادًا يتطلّب سرعة الحسم من الأستاذ، إذ ذهب بعض الحاضرين إلى أن الخليفة الرشيد أعظم خلفاء المسلمين، بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، وذهب محاورُه إلى أن الرشيد ذو صيت مدوّ، ونو سمعة هائلة تتردّد في الشرق والغرب، ولكنه كبقية الخلفاء من أهله، فهو كالمنصور وكالمهدى إن لم يكن أقلّ من المنصور، وطال اللجاج حتّى اضطر الشيخ نور الدين أن ينتهى بتلميذيه إلى رأى حاسم فقال:

يا قوم! إنّ القول بأنّ الرشيد أعظم الخلفاء منذ الخلافة الراشدة يحتاج إلى تصحيح، فأنتم جميعًا تعلمون أن الدولة الإسلامية لم تزد في عهود المنصور والمهدى والرشيد والمأمون مدينة واحدة، وكلّ الحروب التى قام بها هؤلاء حروب داخلية بين المسلمين من جهة وبين الروم من جهة أخرى دون أن تضيف إلى بلاد الإسلام من يعتنقون الحنيف، فكيف يقرن الرشيد بالوليد بن عبد الملك وفى عهده ضمّت الأندلس والهند وبلاد ماوراء النهر إلى رقعة الإسلام! قد تكون الظروف غير الظروف، ولكننا بالنظر المجرد نحتاج إلى مراجعة دقيقة للتاريخ، قبل أن نقضى بالرأى الجازم، ونحن إذا تحدثنا هنا عن إنسان ما، خليفة كان أو وزيرًا أو أى

رجل من رجال الدولة، لانحب أن نأتى بأفعل التفضيل فنقول أعظم وأفضل وأجلّ، بل نعطى كل إنسان قدره، وما الفرق إذن بين مجلس علمىّ فى منزل، وأحاديث العامة فى الطريق، دعوا الجدل فى هذه النقطة وانتقلوا إلى حديث آخر!

لم يعقب أحد على كلام الشيخ، فانتقل السّمر بعيدًا عن السياسة والتاريخ، إذ شرع قارئ حسن الصوت يتلو آيات من كتاب الله، وأخذ الشيخ يشرح ما تلاه القارئ، حتى حان موعد السحور. فهنئ القوم بما أكلوا، وتوجهوا خلف أستاذهم إلى المسجد مسبّحين.

لم يكد يمرّ شهر واحد على هذا المجلس! حتى جاء أمر المأمون ببغداد إلى والى دمشق، يأمره أن يضع الشيخ نور الدين فى قيده دون انتظار، وأن يحمله غير مكرم إلى قصر الخلافة، وكان فى الوالى غلظة وشذوذ، فأرسل من يقسو على الشيخ فلا يتركه حتّى لوداع أهله، وأعلن فى الناس أنه لن يعود! وحار الدمشقيون جميعًا فيما سمعوه ورأوه. فالشيخ رجل خير، وصاحب معروف، شمل اليتامى، والأرامل، والمساكين، ومثله إذا فقد يموت بموته خلق كثير، وقد ذهبت ظنونهم كلّ مذهب! فنور الدين لا يشتغل بغير الوعظ والإرشاد، وغلته من أرضه ليست ملكًا له وحده لكنها ملك من يمد يده سائلًا مستعطفًا! أما الشيخ نور الدين فقد رأى من تجبر الوالى وتغطرسه ما أفهمه أن الأمر خطير، وأن المأمون لم يبعث فى طلبه إلا لوشاية كبرى أُحكمت بتدبير حاقد لئيم، ولكنه اعتصم بالصبر وأسلم يده وقدمه إلى القيد،

www.dvd4arab.com

وانطلق به رسول الوالى إلى بغداد، وهو لا يفتأ يردّد آيات الكتاب العزيز بينه وبين نفسه، إذ لا معتصم بسواه.

لم يكد ير المأمون وجه الشيخ نور الدين، وهو يزحف مقيّد اليد والرجل، حتى صاح به! أمثلك يحكم على هرون الرشيد أيها الشيخ المخبول؟

فرد نور الدين، ومن أنا يا أمير المؤمنين حتى أحكم على مولاى الرشيد!

فباغته المأمون بقوله تحكم، وتوازن وتعلّل، وتقول للناس فى مسجد المزّة إن الوليد بن عبد الملك أفضل من المنصور والمهدى والرشيد! أليس كذلك؟

فانكسر نور الدين متخاذلًا، فصاح به المأمون: أدلِ بحجتك يا شيخ.

فقال نور الدين، لم أتحدث فى المسجد طيلة حياتى عن مولاى الرشيد، وقد تذكرت الآن فقط أنى كنت بمنزلى مع عدد محدود من تلاميذى لا يتجاوز الخمسة، فسئلت عن الوليد ابن عبد الملك، فقلت: إن الأندلس والهند وبلاد ما وراء النهر قد ضمّت فى عهده! وقلت إن الظروف الآن غير الظروف.

فقال المأمون: لم تكن بالمسجد! سأتحقّق من هذا الأمر، ثم نظر إلى العباس بن راشد صاحب شرطته وصاح به، خذ الشيخ لديك، واحتفظ به ليلك مكبّلًا، وبكّر به إلىّ فى الغد، فقال العباس فى نفسه: إن المأمون قد أمر بأن أحتفظ بالشيخ مقيّدًا فى دارى لأمرٍ جلل، ودعا نفرًا من الحراس فحملوه إلى منزله، وجعل يطيل النظر فى وجه الشيخ متفرّسًا، وكأنّه

يعرفه من قبل! إذ أحسّ أن صلة ما لابدّ أن انعقدت بينه وبين أسيره، فتقدّم يسأله: من أى بلد أنت؟ فقال فى همس: مِنْ دمشق، فصاح العباس: جزى الله دمشق وأهلها خيرًا، فمن أنت من أهلها؟ قال الشيخ وعمن تسأل؟ فقال العباس: أتعرف الشيخ نور الدين النجمى؟ فقال الشيخ وما صلتك أنت به؟ فرد يقول: وقعت لى معه قضيّة، فقلت أنا أدرى الناس بأحواله، وما أحدثك بشىء عنه، حتّى تعرفنى قضيتك معه!

قال العباس ولا أدرى لماذا أخذتنى رحمة بالأسير المكبل، فدعوت بالطعام والشراب، وجعلت أعينه على الزاد، ويده مقيدة كأمر المأمون، ثم بدا لى أن أُسرّى عنه بذكر ما كان من أمرى مع الشيخ نور الدين النجمى مبسوطًا غير موجز فقلت:

كنت منذ عشر سنوات وكيلًا لبعض الولاة فى دمشق، فبغى أهلها عليه، لأمور أخذوها منكرين، وفوجئت بنفر من العامة يقتحمون منزل الوالى، وقد أفزعه ما كان من تجمّعهم، فتدلّى بزنبيل من القصر أعدّه لمثل ذلك، وهرب، ووجدت بابًا صغيرًا لا يعرفه أحد، فتسللت منه مخافة على نفسى، وجعلت أعدو بين الدروب ولا أدرى أين أتجه، وسرعان ما لمحنى بعض الثائرين، فجعلوا يعدون خلفى، وأنا أجتهد فى الجرى السريع حتى فتّهم، فمررت بمنزل الشيخ نور الدين - ولا عهد لى به من قبل - وكان يجلس مطمئنًا أمام الباب، فصحت به أغثنى أغاثك الله! فابتسم ووقف قائلًا: هلم لا بأس عليك إن شاء الله، فدخلت، وقد سمعت زوجته الكريمة ما قال، وعرفت أنّى مرهق بالطلب، فقال هيا: قف داخل هذه

Looloo
www.dvd4arab.com

المقصورة، وكانت كالمحراب فى جوف الجدار، وعليها ستار من ديباج، فدخلت المقصورة وأنا من فزعى كمن يتردد بين الحياة والموت، ووقف الشيخ نور الدين أمام منزله، فما شعرت إلّا بنفر يقتحمون عليه المنزل، ويقولون هو والله عندك، لقد رآه فلان وفلان يدخل من هذا الباب، فقال، دونكم الدار، فابحثوا كما تشاءون فأخذوا يفتشون كل مكان حتّى قربوا من المقصورة، فوقفت السيدة حاسرة، وفى لبسة المتفضل، وصاحت ما بقى إلّا أن تجرحوا عرضى، وتقتحموا حريمى! إنّا لله وإنا إليه راجعون، فخرجوا منكسرين، ونزل الشيخ بدر الدين ليجلس أمام المنزل كعهده قبل الحادث، وأنا خلف الستارة أرتعد من شدة الخوف، وما تكاد تحملنى قدماى، فلمّا انقشع الكرب، تقدّمت السيدة محتشمة منقّبة، وقالت لا بأس عليك، فقد صرف الله عنك كل سوء، وأنت فى منزلنا على السعة والرحب!

وحضر الشيخ نور الدين فأخذ يواسينى بما لا يصنعه معى أخى الشقيق، ثم قال المنزل رحب، والخير الكثير، وأنا منذ ثلاثين عامًا لم آكل منفردًا دون ضيف، وقد كفيتنى همّ البحث عنه إذا لم أجد، وستأكل وحدك حين يأتى أصحابى، كيلا يعرف أحد من أمرك شيئًا، ومهما طال الأمد فلن أتحمل قليلًا أو كثيرًا وأنت معى فاطمئن، ومرّت الأيام وأنا بينى وبين نفسى خجل كل الخجل من نور الدين حتى إذا نفد صبرى بعد أربعة أشهر، قلت له يا مولاى سأتفقد فى ظلام الليلة المقبلة غلمانى حيث هدأت الفتنة وما أحسّ لها أثرًا، فقال عليك عهد

الله أن ترجع إلىّ، وهو مع هذا لا يسألنى عن اسمى، ولا يريد أن يقف على شىءٍ من سريرتى، وهو مما يزيد فى عجبى، وجاء الليل فخرجت متجهًا صوب منزلى فما عثرتُ على أحد، نُهب الأثاث وحُمل المذخور من المال والملبس والحيوان، ووقعت فى حيرة دامسة، ثم تذكرت أن الشيخ قد أخذ علىّ عهد الله أن أعود، فرجعت كى أقول له: لابد من الرحلة إلى بغداد فقد أجد من أمرى يسرًا هناك، فأطرق الشيخ قليلًا، وقال سمعت بالأمس فى المسجد أن قافلةً ستنهض إلى دار السلام فلتكنْ بها بإذن الله، ثم دعا غلامًا أسود فقال له: أسرج الفرس، وجهّز آلة السفر، فظننت أن الشيخ سيسافر إلى ضيعته خارج دمشق، وسمعت فى المنزل حركة تدلّ على إعداد أشياء، فقلت هم فى أمر سيّدهم ورحلته!

ومضت الأيام الثلاثة، فلما حان السّحر، سمعت من يطرق باب غرفتى طرقًا خفيفًا، فانتبهت على صوت الشيخ يقول: ستخرج القافلة الساعة فتفضّل، فتحيّرت ماذا أصنع، وليس معى ما أتزوّد به، وما أكترى به ركوبة، ولكنى شاهدته يصفق بيده، فحضرت زوجته الكريمة، ومعها أفخر الملابس، وخفّان جديدان، وآلة السفر، ثم جاءت بسيف ومنطقة فشدهما الشيخ على وسطى، وقدّم إلى بغلًا حمل عليه صندوقين، وفوقهما فرش، وقدّم إلىّ الدابة، وقال هى لك وما عليهما، والغلام خادمك فى الطريق، وزاد فى دهشتى أنه أقبل مع زوجته يعتذران من التقصير فى أمرى، وركب ليشيعنى، ثم سارت القافلة فخرجت إلى بغداد، وكنت على

Looloo
www.dvd4arab.com

شرطة أمير المؤمنين، فلم أتمكن من الرحلة إلى دمشق لمكافأته، واتصل العمل، حتى رأيتك قادمًا من دمشق، فأخذت أسألك عنه، وأرجو أن ينسأ الله فى أجلى لأتمكّن من مكافأته .

فاغرورقت عين الشيخ بالدمع، فنظر العباس يتأمله فاحصًا، ثم صاح إخالك والله شيخى نور الدين، وما غيّر وجهك وطار ببهائك إلّا ذل السفر، وضراوة القيد، وقلة الطعام، وترقب المصير، فقال نور الدين، لقد عرفتك من ساعة رؤيتك، فاستبشرت خيرًا، لأن لى اعتقادًا كبيرًا فى فضل الله، وأنا أعلم أن الله عز وجل يجازى على الإحسان فى الدنيا، وفى الآخرة معًا، فلا يأس من روح الله .

قال العباس : ثم ما تمالكت أن قُمت فأخذت أقبّل كف الشيخ وقدمه، قبل أن أنزع عنهما الغل، وصحت به باكيًا : وما الذى اقترفته من الجرم وأنت إمام المسلمين .

فأطرق الشيخ قليلًا، فاستعجلته أن يتحدث فقال : سئلت سؤالًا فى مجلس علمى فى ندوتى التى تعرفها، فأجبت ما أعتقد أن الحق، وكنت مع رهط صغير من تلاميذى ! ولعلّ أحدهم نقل رأيى لآخرين بعد خروجه، فطار الأمر للمأمون وأنا لم أكن بصدد هجاء أحد، ولكن من الصعب علىّ أن أقول ما لا أعتقد ! وقد داهمنى الوالى، وأخرجت ليلًا من أهلى دون وصيّة، وقد علمت أن أحد غلمانى قد تتبّع الركب على بعد لينصرف إلى أهلى بخبرى موتًا أو حياة فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره، حتى أوصيه بما أريد فقد جاوزت حد المكافأة، وليصنع الله بعدها ما يشاء .

نهض العباس فأحضر حدّادًا ينزع القيود برفق، ويزيل ما تسلسل من الأنكال وإنها لغلاظ شداد، ثم دعا الشيخ إلى الحمام ليزيل وَضَرَه، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، وأنقذ من أحضر غلامه من مقرّه، فلما رآه الشيخ جعل يوصيه، واستبعد العباس، ثم استدعى نائبه، وقال علىّ بالأفراس والهدايا ليحملها الغلام إلى مصر مبشرًا بعودة الشيخ إن شاء الله ! فقال نور الدين، إن ذنبى لدى المأمون عظيم، وما أرى إلّا النقمة العاجلة، وإذا تركتنى لأذهب فسيتبعنى جند الخليفة وأعود لألقى سوء المصير .

فأطرق العباس يجيل الرأى فى نفسه، وقال : سأتركك فى منزلى وأذهب وحدى للقاء أمير المؤمنين، فإذا سهّل الله الأمر أنبئك على جناح الطائر، وإن كانت الأخرى، فسأخبر المأمون بأن لا بقاء لى فى الحياة بعدك، وهذا حنوطى وهذا كفنى يكونان معى !!

قال الراوى: وما أشرق الصباح، حتى جاءت رسل المأمون يطلبون الأسير ! فتوجّه العباس وحده إليه وهم يتعجّبون من أن يترك الرجل على خطورة جرمه، وما كاد المأمون يرى العباس حتى صاح به، لله على عهد إن قلت إنه هرب لأضربن عنقك !

فقال يا أمير المؤمنين، إن الرجل فى منزلى طوع أمرك، ولكن لى رجاء أن تضرب عنقى قبل أن يلقى أجله، كيلا أعذب بعده ! ثم انهالت دموعه، فدهش المأمون وصاح به، متى عرفته قل يا عبّاس !

Looloo
www.dvd4arab.com

فاندفع رئيس الشرطة يتحدث بكل ماكان، وفى صوته وحركاته من الانفعالات ما أبدى الصدق دون ريب، حتّى بلغ خاتمة الأمر فقال، سيدى ومولاى لقد أحضرت حنوطى وكفنى، وأمره أمرى، نجاةً ومهوى، وما بقى إلّا أن أسمع نطقك الكريم .

فصاح أمير المؤمنين، لا عليك يا عباس! إن من يكافئك على غير معرفة، ويحفظك بين أهله وذويه لذو رصيد ضخم فى دنيا الأخلاق، وقد عفوت عنه، فاذهب إليه مبشّرًا مهنّئًا، وتعال معه غد، بعد أن يفرخ روعه، ويتملك من سداده ما لا يجده الآن .

وكانت فرحة هانئة غمرت منزل العباس، وقد جعل لسعادته يقوم ويقعد غير مستقر، وأتى الليل فلم يذق للنوم طعمًا لفرط ما احتل فى نفسه من نشاط، أما نور الدين فلم يخرج عن عادته، إذ أنه استأذن بعد صلاة العشاء ليأخذ حظه من النوم، وسريعًا ما طاوعه فأطبق جفنيه لرقاد سعيد، إذ لم يوقظه إلّا صوت العباس يدعوه كى ينهض للصلاة ويؤمه منيبًا داعيًا، كعهده؛ فى دمشق كلّ صباح .

ثم ذهب الرجلان إلى المأمون فقابل الشيخ باسمًا، وقال له: لقد علمت عنك مروءة وهمّة، وأحبّ أن أعرف عنك عقلًا واسع الإدراك .

قال الشيخ أسأل الله أن يرزقنى ما أراده أمير المؤمنين، فقال المأمون .

إن أحاديث العامة لايحسن أن تتطرّق فى المسجد إلى الموازنة بين الخلفاء .

فعجل نور الدين يقول: أنا صادق يا أمير المؤمنين حين أقرّر أنى لم أكن بالمسجد حين ذكرتُ ما ذكرت ولكنّى كنت مع خمسة من تلاميذى، وقد سألنى أحدهم فأجبت بما عنّ لى، وقد أكون مخطئًا .

فقال الخليفة سترجع إلى بلدك رئيسًا موقّرًا، وستتولى خطابة الجامع الأموى هناك .

فعجّل نور الدين يقول: مولاى، إن خطيب المسجد الأموى ذوكفاءة نادرة، ونفع المسلمين به أكثر وأوفى والمسألة مسألة دين وعبادة، وليست مسألة منصب وإمامة! وأنا أعرف الناس ويعرفوننى ويتقبلون ما أقع فيه من قصور ببعض دروسى فى مسجد المزّة، فإذا سترنى الله بهذا المسجد المتواضع فهو ناصر المستضعفين .

فابتسم المأمون قائلًا: وهذه أيضًا مأثرة أخرى تضاف إلى مآثرك، ولن تمنعنى أن أكتب إلى عامل دمشق لتكون صاحب الرأى لديه .

فقال نور الدين: ومن فى الدنيا يستطيع أن يمنع أمير المؤمنين .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

غـدر ووفـاء

كانت الليلة شاتية ذات برق ورعد، وقد انتهى المتوكل على الله من مجلسه بقصر الجعفريّ بالمتوكليّة، وهمّ ندماؤه بالذهاب إلى منازلهم، فعاقهم المطر المتدفع، وكانوا ينتظرون انقطاعه دون جدوى، وأخيرًا صمّموا على أن يبقوا ليلتهم بالقصر في حجرة المهندس سند بن علي، لأنها أدفأ وأحرّ نما احتاط فيها من تدبير يحول دون البرد الهاجم، وذهب القوم إلى حجرة سند، ولكنهم كانوا في وُجوم كئيب، بحيث آثروا الصمت على الكلام، فقال سند بن علي، وهل يبلغ البرد بكم مبلغًا يسد أفواهكم فلا تتحدث ؟

فنظر إليه أحمد بن كثير الفرغاني زميله في العمل الهندسي، وقال في همس : أنت تعرف تأثير ما جرى الليلة على أعصابنا، فلا تحاول إثارتنا بما يجرنا إلى الهلاك .

فقال علي بن الجهم، وذهب القوم إلى حجرة سند، ولكنهم كانوا في وُجوم كئيب، بحيث آثروا الصمت على الكلام، فقال سند بن علىّ، وهل يبلغ البرد بكم مبلغًا يسد أفواهكم فلا تتحدث ؟

فنظر إليه أحمد بن كثير الفرغاني زميله في العمل الهندسي، وقال في همس : أنت تعرف تأثير ما جرى الليلة على أعصابنا، فلا تحاول إثارتنا بما يجرنا إلى الهلاك .

فقال علي بن الجهم، وأي هلاك ! ونحن في مأمن، وبيننا وبين عيون المتوكّل مئات الجدران، والحرس نائمون، لايجرءون على الرواح والمجيء !

فابتسم سند، وقال : هم يقولون للحيطان آذان، وقد تكون أذني إحدى هذه الحيطان، وأنتم لاتدرون !

فقال ابن الجهم ـ في شبه عتاب ـ تعرّض بنا يا سند، فعلم الله أن الوشاية لا ترتقي إلى محل أحد يستحيي من نفسه قبل أن يستحيي من الناس، وكلنا ذلك بفضل الله !

وسكت القوم، يتطلّع بعضهم إلى بعض، فقال عمر بن أحمد الإخباري، يا قوم لو كان الإنسان حجرًا لصعب عليه أن يصرع الليلة العالم اللّغوي الأمثل (يعقوب بن السكيت) دون جريرة !

فابتسم ابن الجهم وهو يقول : دون جريرة، كأنك لا تعلم أن حب علي بن أبي طالب، أكبر الكبائر لدى مولانا المتوكّل حفظه الله ! وقد اعترف الأبله بأن عليًّا أطهر الناس بعد رسول الله.

قال أحمد بن كثير، ميلوا بنا إلى غير هذا الحديث يا قوم، وإذا كان ابن السكيت قد لقي مصرعه، فقد لقي معه الشهادة في سبيل الله، وهو الآن سعيد برضوان الله !

قال ابن الجهم : أصبحت فقيهًا يا أحمد ؟ لست فقيهًا في الدنيا، ولكن في الآخرة أيضًا، إذ تحكم على زيد بالجنة وعلى عمرو بالنار !

فعضّ ابن كثير بأسنانه على شفته، والتفت إلى أصحابه يقول : أتسمعون !

Looloo
www.dvd4arab.com

فتدارك بن الجهم يقول : ما هذا يا أحمد ، أحببت أن أستثيرك فحسب ، وأنت تعلم حديثى معك عن تبذير مولانا المتوكل ! فلو خفت من أحد لخفت منك !

فقال سند : تعرضون بى يا قوم ! نسيت المسئول عن التبذير فى بناء القصور المتعدّدة دون فائدة ، إنى أصدع بالأمر فحسب ، ولو تباطأت للحقت بابن السكيت ، كما تعرفون ! لقد زين رفقاء السوء لمولانا المتوكل أن يبنى (المتوكلية) مثل ما بنى المعتصم (سر من رأى) ، والمعتصم قد بنى المدينة ليبعد الأتراك عن بغداد ، بعد أن ضج أهلها بجرائمهم المنكرة ، وله بعض العذر فيما نقل ، ولكن ما فائدة المتوكليّة وكلها قصور ورياض وأنهار لمتعة رجل واحد من يزينون له الإسراف من ندماء الخداع !

قال أحمد بن كثير ، كان يمكنك أن تقتصد فى النفقات يا رئيس المهندسين !

فتعجّل عمر بن أحمد الإخبارى يقول : فى جهاز البناء مائة مهندس ، كلهم يطمع إلى أن يكون رئيس المهندسين ، وأنا أعلم أن بعض السعايات الدنيئة من هؤلاء ، حاولت أن تظهر سند بن على فى مظهر المقصّر ، وأقول بصراحة إن ابنى شاكر غفر الله لهما قد سعيا فى ذلك ! فهل يستطيع سند أن يقتصد فى النفقات ، ليجد باب النقمة مفتوحا على مصراعيه ، دون شفيع من أمير أو نسيب !

قال بن الجهم ، ولكنّ السكوت على هذا السّفه نقص فى الرجولة ، وتشجيع على التمادى ، فقد علمتُ أن قصر العروس

تكلّف ثلاثين ألف ألف درهم ، وقصور الوحيد والجعفرى والكامل والغريب والمختار ، والمتوكلية ، والماحوزة واللؤلؤة بلغت نفقاتها مائتا ألف ألف وأربع وتسعون ألف درهم ، هذا غير حديقة الحيوانات الوحشية التى تبلغ مساحتها ثلاثين كيلوا مترًا ، تخللها البركة الجعفرية ، ثم نهر الجعفرى الذى امتد خمسًا وستين كيلو مترًا ، ليدور حول المتوكلية فحسب ، أليس لحدائق الحيوان والبرك المائية الممتد نفقات أخرى تبلغ قيمتها ما بلغت نفقات القصور ؟ ولماذا ؟ وما الفائدة ، وكل قصر لا يقيم به غير جوارى الخليفة وندمائه ينتقلون إليه بانتقاله ، فإذا فارقه إلى سواه جلّله الصمت ، فما من حركة أو صوت !

فردّ أحمد بن كثير ، صبه يا علىّ ، فقد مدحت هذه القصور فى تهنئاتك الشعرية ، وما يجوز لك أنْ تنقم عليها الآن ، وتحصى فاتورة الحساب ! إن الذى يسمعك تعد هذه الآلاف ، يقول : إنّك الذى تتولّى إدارة الخراج !

فأطرق ابن الجهم ـ كالذى لا يملك الجواب ـ ورأى عمر بن أحمد الإخبارى حيرته فقال :

ماذا عسى أن يفعل ابن الجهم ، والبحترى قد ملأ الدنيا بوصف هذه القصور وما تضم من البرك وحدائق الحيوان ، أتراه يستطيع أن يغفل عن وصف ما يعدّه الخليفة من مآثره الكبار ، وهو يرى إعجاب المتوكل بوصف البحترى ، ومَدّه بالهبات الجزلة ليشجعه على المزيد !

Looloo
www.dvd4arab.com

قال سند ، كنت فى حضرة المتوكل ، وقد وقف البحترى بعد بناء الكامل ينشد قصيدته التى يقول فيها :

لمّا كملت رويّــة وعزيمـــة   أعملت رأيك فى بناء الكامل
ذعر الحمامُ وقد ترنّم فوقه   من منظرٍ خطر المذلّة هائل
وكأن حيطان الزجاج بجــوه   لجج يمجن على جنوب سواحل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه   نورًا يضىء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق   متلهب الأعلى أنيق السـافل
وافيته والورد فى وقتٍ معًـا   ونزلت فيه مع الربيع النّازِل

فطرب المتوكل طربًا شديدًا ، وأهداه ما عجز عن حمله ، وكان ابن الجهم حاضرًا ؟

فقال على : أكرمك الله يا عمر ، فقد أبنت عذرى ! لم يكن أحد بعد القاضى ابن أبى دؤاد يستطيع بحسن تأتّيه وجميل ملاطفته أن يثنى المتوكّل ، وقد دبّ الواشون بينه وبين الخليفة ، فنحّاه عن مجلسه ، وعن القضاء أيضًا ، وإذا عدم مجلس الخليفة أمثال القاضى ، فلن يسمع غير ما يُغريه ويلهيه .

قال أحمد بن كثير ، ناشدتكم الله أن نترك هذا الحديث فقد خرج عن حدّه ، وأنا الآن لا أسمع صوت المطر ، فلنتأهب للمسير ! هيًا يا قوم .

ـ ٢ ـ

ما كاد الصباح يشرق ، حتى دُعى عمر بن أحمد الإخبارى ، وسند بن على ، وعلى بن الجهم ، وأحمد بن كثير إلى مجلس الخلافة ، فتوجسوا الشرّ ، وبدأ المتوكل يقول :

كنتم بالأمس فى حجرة رئيس المهندسين تتحدثون عمّن ؟

فقال سند بن على على البدين .

لقد أردت أن أغيظ ابن الجهم فتلوت قصيدة البحترى الرائعة فى وصف (الكامل) ودار الحديث حول مقدرة البحترى وعجز علىّ .

فابتسم المتوكّل كالساخر وقال وقد قام ابن الجهم بإحصاء الأموال التى أنفقها فى بناء المتوكلية ، وكأنى سرقتها من خزينة أبيه !

قال علىّ فى استخذاء ، لم أقل شيئا يا مولاى ، واسأل هؤلاء !

فصاح المتوكّل ، لم يتكلم أحد غيرك ، وقد سكت سند وابن كثير ، وكان عليهما أن يصفعاك ، أمّا عمر بن أحمد فقد كان يبتسم ، وكأنه يوافق ، هذا ما جاءنى ممّن أرهفوا السمع إليكم وأنتم لا تشعرون ! لابد أن يصلب ابن الجهم ثم يحبس ، وسأرى رأيى فى سند وابن كثير ، أمّا عمر فله يوم قريب ، لا أريد أن أراكم فى مجلسى منذ اليوم .

وجاء من الحرس من حملوا ابن الجهم إلى مصيره ، على حين أكبّ الثلاثة على قدمى المتوكّل يلثمون ، ويتوسّلون وقد حسبوا للغد ألف حساب .

خلا عمر بنفسه فى منزله ، وهو على مثل موج البحر من القلق والاضطراب ، إذ جعل يستعيد كل كلمة قالها المتوكّل ولم يشغل باله بمن نقل الحديث من متسمّعى الخدم ، ولكنه جعل يقول ، لقد عرفنا مصير ابن الجهم ، فهو إلى الصلب

looloo
www.dvd4arab.com

يومًا أو يومين ثم إلى السجن ، كما أن المتوكل فى حاجة إلى سند فهو رئيس المهندسين ، وبيديه إتمام ما بدأ به المتوكل من قصور جديدة ، فلن يلحقه شيء الآن ، وابن كثير يشغله بالجوارى إذ يشتريها من أقاصى البلاد ويقدمها إلى القصر ، فهو فى حاجة إليه أيضًا ، لذلك قال : سأبدى رأيى فى سند وابن كثير ، أما أنا فقد صرَّح بأن يومى قريب ! ولكن متى يأتى هذا اليوم ، قد يكون الساعة ، وقد يكون فى الصباح ، إنى إذن لعلى خطر عظيم .. وقام عمر من مضجعه وأخذ يسير فى الحجرة يمينًا وشمالًا ، دون أن يستقر بموضع ، وهو يلعن المطر الذى جمعه بالقوم فى حجرة سند ، فجعلوا يتحدثون بما ساءت عقباه ، ثم صفق بيده ثلاثًا ، فهرع إليه خادمه الذى تعوَّد أن يمكث أمَامَ حجرته ليطلبه متى شاء ، فصاح به : أيْقظْ ولدىّ ، عليًا ، والوليد ، فالأمر جلل وسرعان ما حضر الولدان ، وهما يظنان بعض الخطر ، لأن استدعاءهما فى حندس الليل ، ليس له سابقة معهوده ، وقد سألَا الخادم عن أبيهما ، فقال إنه لم يذق النوم طيلة الليل ، وأنه يسمع طرق أقدام ، وهو يقطع الحجرة رائحًا آيبًا غير منتظر ، وما أظن إلا أن همًّا كبيرا شغله ! فكتما ما بنفسيْهما ، وتقدما إليه على وجل .

قال عمر : أخبركما أن المتوكل قد توعَّدنى ، ورأيت الشرر الأحمر فى عينيه ، ومن عادته أن يبعث جنده إلى من سينزل به عقابه فيدهمون المنزل ، ويسلبون كلّ ما به من أموال ونفائس ، وعلينا أن نفعل شيئا قبل أن يشرق الصباح !

قال على بن عمر : ظنَّ بالله خيرًا يا أبى ، فهو الحارس الحافظ ، فأجاب والده : إن سوابق المتوكل مع أقرب أقربائه ، وأصفى أصفيائه ، تدل على أنه لا ينتهى عند حد ، ولا بد أن نحتاط .

فرد الوليد يقول : هو ما رأيت يا والدى ، وما علينا إذا جمعنا ما لدينا من الدنانير ، ونفائس الذهب والفضة وخرجنا بهما ، فنودعها أمانة لدى بعض من نثق فيه !

فقال على : وهل فيمن نعرف أحد نثق فى أنه سيأخذ الذهب والفضة ، ثم يردهما فى الخفاء متى نشاء ؟ فرد والدهما يقول ، الأمانة محتملة ومظنونة ، ولكنّ مصادرة المتوكل لما لدينا مؤكدة ومتحققة ولا بقاء معهما لدرهم ولا دائن ؟ فقل يا علىّ من تختار من أهل الثقة لديك ؟

فقال على : إنه الشيخ صالح بن دهمان ، حجَّ بيت الله عدة مرَّات ، ويلزم المسجد فى الصلوات الخمس ، ولا ينقطع التسبيح من فمه ، ومن أولى به بحفظ الأمانة ؟

فأجاب الوليد : أراه أهلا للخير يا أبى ، فقال عمر لا داعى أن ننتظر .

فبادر الثلاثة بجمع النفائس ، وكانت ممَّا يزيغ العين كثرةً كاثرة ، ثم حملها الوليد وعلى معًا إلى منزل صالح بن دهمان ، وكان يتوضأ لصلاة الفجر قبل أن يؤذن ، ففاجأه بما حملا ، فأظهر البشر والسرور وقال : هى لدىّ فى أحرز مكان ! ولن يعلم بسرِّها أحد ، وستصلكما كاملة أو مجزأة ،

www.dvd4arab.com

كما تريدان، ثم تلا قول الله عزَّ وجلَّ : « إنَّ الله يأمركم أنْ تُؤدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا » ، وأتبعه بقوله : « وأوْفُوا بعهدِ الله إذَا عاهَدْتُمْ ، ولا تنْقُضُوا الأيْمَان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليْكُمْ كَفِيلًا » وعلىّ يمين الله أن أحفظ أمانتكم ، لأرُدَّها متى تريدون ! قال الوليد : نحن نأتمنك يا شيخ دون أن تصدر يمين الله ، وما جئنا إليك فى حندس الليل إلَّا ونحن نراك الورع الأمين .

فقال علىّ لأخيه ، لقد أدينا رسالتنا ، وهيَّا إلى والدنا ، فعلى بركة الله !

ثم ذهبا إلى المنزل فوجدا أباهما قد عثر على صرَّة تحوى ألف دينار ، فقال لولديْه . ماذا نصنع بهما الآن ، فَردَّ على يقول فى حرص : أخشى أن يكون أحد من الناس قد رآنا فى المرة الأولى ، ثم يشاهدنا فى المرة الثانية ، فيتَّبعنا فإذا حلَّ مكروه ، وتعالم الناس أمره ، هداه تفكيره إلى صالح بن دهمان ، فتوهَّم أنَّا أودعناه المال ، ووشى بنا إلى الخليفة ، لن نذهب إليه مرَّة ثانية .

فعجَّل الوليد بقوله ، ولماذا لا نوقظ الخادمة المسكينة ، وهى عجوز لا تعرف شيئا ممَّا تحمل ، فنعطيها الصَّرة لتصونها فى منزلها القريب ، ولن يظن أحد أنَّ بيتها يحوى درهمًا واحدًا .

فقال علىّ ، لها ولدٌ شرير ! وإذا أحاط بما لديها نهبه فى يُسْر لا مشقَّة فيه .

فردَّ عمر : كانت تخبرنى أنه لا يزورها إلا المرة فى الشهر والشهريْن ، وقد تنفرج الغمة ، قبل أن يزورها ، علينا أن نعمل ، والله هو الحافظ لا سواه ، ثم قام بنفسه ، وأيقظ الخادم العجوز ، وأعطاها الصرّة ، وقال إنّها تتضمّن عقودًا من الخرز وعليها أن تسير بها إلى منزلها ، لتحفظها هناك ، قالت : وفى هذا الظلام الحالك ؟ قال : الفجر سيؤذن الآن فاستعينى بالله ، ونهضت العجوز لشأنها ، وتفرق الولدان عن الوالد ، وكل منهم فى شغل شاغل ممَّا يأتى به الغد القريب !

كان حدس عمر بن أحمد الإخبارى صادقًا لم يكذبه ، فلم يمض يومان ، حتى هجم جند المتوكل على منزله ، وأخذوا يسلبون ما به من الأثاث ، كما أعياهم أن يجدوا الثروة التى يتحلبون لابتلاعها ، وقد سئل عنها عمر ، فقال فى ضراعة : إنّه مستور أمام الناس ويأتيه رزقه يومًا بيوم ، وهذان ولداه مثله ، ليس لأحدهما محل خاص يأوى إليه ، ولا عمل يرتزق به ، وإنما يعيشان فى كنف الوالد ، وكأنهما صغيران لم يبلغا الحلم ، ثم سيق إلى السجن تنفيذًا لأمر الخليفة ؛ سيق إلى حيث لا يعلمان ، لأن سجون الدولة كثيرة ، ولا يعلم ولَدٌ أين ينزل الوالد السجين ، إنما يُترك الأمر للتخمين ، فإن صحّ تطرّق الأهل لزيارته فى خفية بعد أن يرتشى السجان ومن معه ، وقد يجاوزون حد العشرة ! وعلى الابن المفجوع أن يبيع نفسه ومتاعه ليرضى هؤلاء المتطلعين ، فإذا لم يأت بما أرادوه فلا صلة للدفين الحىّ تحت الأطباق ، ونقول الدفين لأنه ينام بمحبسه الأرضى داخل المطبق ، كما ينام أهل القبور .. وقد يلفظ أنفاسه فيستريح ..

Looloo
www.dvd4arab.com

بقى المنزل قاعًا صفصفًا، ما به شيء، واحتاج من فيه إلى النفقة، وهم أسرة ذات عدد، ولها خدم وأتباع، وطبيعى أن يتجه التفكير إلى الشيخ صالح بن دهمان فالوديعة لديه تكفل الحياة الهنيئة، والرزق الموفور وقد اتفق على وأخوه الوليد على أن يستردا القليل جزءًا بعد جزء، وأن يقتصدا فى النفقة جهد الطاقة، كيلا يشعر أذناب الخليفة بما يتيسر لهما من العيش الرغد فيبحثون ويتساءلون، ثم ينكشف الأمر فيضران بنفسيهما، وبالشيخ صالح الأمين، اتفق الأخوان على ذلك، وذهبا معًا فى ساعة هادئة قبيل آذان الفجر، وهى الساعة التى حملا فيها الوديعة من قبل إلى منزل الشيخ، فطرقا الباب فى خفة، وقد راعهما أن يجدا الشيخ متجهّمًا غاضبًا، يصيح: أهذا موعد زيارة يا علىّ، احترما آداب الزيارة كما سنّها الإسلام، فقال الوليد فى هدوء: سيّدى، أنت ملاذنا، ونحن نجيئك خفية، كيلا ينكشف أمرنا إلى أحد كما تعلم، فصاح الشيخ ولماذا تجيئان إلىّ، ولا حول لى ولا طول، فهمس علىّ وكأنه يتسوّل، نريد أن تعطف علينا فنسترد قليلًا مما لديك إذ بلغ الجوع بالأسرة أقصاه، فصاح الشيخ مستنكرًا، ألدىّ شيء حتى تستردا منه! أنتما مجنونان، فسكت الولدان قليلًا.. ثم قال الوليد، نقتسم الوديعة معًا يا سيّدى، لك نصفها حلالًا دون شبهة، ولنا النصف الآخر، وسنكون سعيدين موفّقين، فأنت لنا والد ثان. وما جئنا إليك من قبل، إلّا ونحن نعتبرك أبًا مشفقًا وراعيًا رحيمًا!

فحرك الشيخ رأسه ونظر إليهما متفرسًا ثم قال: أعيد عليكما ما قلت فأنتما مجنونان، وقد يكون أحد الناس قد

استولى منكما على الوديعة، ولم تجدا غير صالح المسكين تتهمانه بالزور، وتشيعان بين الناس أنى اؤتمنت فخنتُ، ولابد أن أحرص على سمعتى، فأرفع الأمر إلى أمير المؤمنين.

قال الوليد: ترفع الأمر إلى أمير المؤمنين هكذا دون خشية من الله!! فعجّل صالح، أنتما اللذان لا تخشيان الله حين تفتريا علىّ الكذب، سكوتكما أولى من فضيحتكما أمام أمير المؤمنين، وقد يعلم أنكما فرقتما المال كيلا يحرزه، فتلحقان بأبيكما لتؤنساه هناك!

قال الوليد لأخيه هيّا، فلا فائدة فى الجدال، ورجعا إلى منزلهما يجران أقدامهما جرًّا، وكأنهما يسيران فى جنازة حبيب! قال علىّ، بقى أن نتبلغ بما فى صرّة العجوز.

فابتسم الوليد فى ألم، وقال: إذا كان الشيخ الولى صالح بن دهمان قد أنكر ما لديه، أفتنجو الصرّة من ولد العجوز وهو لصّ يرأس عصابة الشطّار! سلّم أمرك لله يا أخى، وفكّر معى فى مغادرة بغداد.

فردّ علىّ، لا نخسر شيئًا إذا ذهبنا إلى هذا (الشاطر) الجرىء، وسنطلب منه أن نقتسم ما بها، وقد يرى إكرامنا لوالدته أعوامًا طويلة فيلين! فقال الوليد: أمل كالسراب.

وبعث الولدان إلى العجوز، فطلبا منها أن تحضر الصرّة، فقالت هيّا معى، فهى عند ولدى، أعطيتها إياه ليضعها فى حرز مكين! فقال كل منهما فى نفسه، هى لديه، وقد أعطته إياها! ونريد منه أن يعيدها من جديد! إما أن تكون هذه العجوز شديدة الدهاء أو شديدة الغباء، لنذهب ونجرّب!

www.dvd4arab.com

ذهبت العجوز تتقدمهما، فطرقت الباب، فوجدت ولدها جالسًا يغزل الصوف بمغزل بيده، فقالت له: أين الوديعة يا عدنان؟ فقال: هى كما جئت بها، لم أقربها، فاذهبى وأحضريها، فلم يصدّق الأخوان ما سمعا، ولكنهما وجدا العجوز، تدخل فتحضر الصرة من فجوة فى الجدار، وتتقدّم بها إليهما، فظهر البشر على وجهيهما، ثم أخذ كل منهما ينظر إلى (عدنان) فى اندهاش وتعجّب، فصاح بهما: هذه وديعتكما، فماذا تطلبان.

قال الوليد، نطلب أن تأخذ منها حق احتفاظك بها؟ فقال: لحاكما الله: آخذ جزاء الأمانة من مخلوق، أين الخالق؟ فقلّب الأخوان كفًا على كف، وقال الوليد، لقد أودعنا صالح ابن دهمان كلّ أموالنا فجحدها وهو شيخ ذولحية ومسبحة، ولا ينقطع عن المسجد فى صلاة، وقد قيل عنك إنك قاطع طريق، وهأنت ذا وفى أمين!

فانتبه (عدنان) كمن لدغته أفعى، وقال أنا أعرف سوءات هؤلاء الأدعياء، وأرجو أن تدلانى على منزله، وستصلكما ودائعكما بعون الله! صاحا به كلّا، فقد ينتقل الأمر إلى أمير المؤمنين، فقال عدنان؟ لا أدعه ينتقل، وأنا أذرى بهؤلاء، ولى مع أمثالهما قصص تُروى! أين المنزل، فقالا: تعرفه أمّك، فقد سعت معنا إليه، وبربك لا تذكر لنا اسمًا إذا بدا لك أن تقتص منه! قال: اطمئنا، فأنا (عدنان)!

انتظر الشاب الجرىء حتّى تقدم الليل، فصحب معه خمسة من زملائه الأشداء، وأخذ يترقب أن يهبّ الشيخ من

نومه، ليمضى إلى صلاة الفجر كما تعود، فما كادوا يرون الباب يفتح، حتى هجموا عليه، ودفع عدنان يده على فمه، وأدخلوه إلى بيته، وأغلقوا الباب من خلفهم، وصاحوا به، سنقتلك وتذهب إلى غضب الله إن لم تحضر وديعة عمر بن أحمد الإخبارى، وإذا علمت الشرطة، وانتقمت منا، فسنذهب إلى رضوان الله، لأننا نعين على ردّ المال المغتصب، وإذا لم تحضر الوديعة الآن، فمصرعك هو الجزاء، أمّا إذا أنقذت نفسك وقدمتها، فحذار أن تنطق لأحد بكلمة واحدة عن ابنى الإخبارى، لأننا سننتقم منك لو فعلت، لن ننتقم منك وحدك، ولكن من أولادك جميعًا، ونحن عصابة تبلغ الخمسين من البواسل، فلا منجاة لك إذا قبض على واحد أو اثنين! ماذا ترى أيّها الخائن!

انهارت أعصاب صالح، فأرشد إلى مكان الوديعة، فحملها عدنان ومن معه، وقد كرّروا تحذيرهم الموجع، ثم انقلبوا إلى منزل عمر، فتقدّم بها عدنان إلى الأخوين، وقال عليكما أن تفحصا بدقة، فلو ضاع شىء فسأحضره دون خشية، ولم يصدق الأخوان بدءًا، فشردا عن وعيهما لحظات، ثم عاد لهما صوابهما، فأحصيا ما أمامهما من الثروة، فلم يجدا نقصًا يذكر، فقالا لعدنان إذا لم تأخذ أنت أجر بطولتك، فخذ أجر إخوانك، ونحن سعيدان راضيان!

فغضب عدنان، وخرج مستنكرًا، وهو يقول: أيأخذ إخوانى أجرًا على المعروف! أنتم لا تعرفوننا أيها الناس!

Looloo
www.dvd4arab.com

(فى حضرة ابن طولون)

لم يكن أحمد بن طولون بالهادئ فى أعماق نفسه ، وإن بدا لجلسائه أنه ساكن مطمئن ، فقد كان ما لقيه من أعباء الدولة ، ومحاربة خصومه فى الداخل ، ومناوءة جيوش الخلافة فى الخارج ، على هوله الهائل ، أقل وقعًا فى نفسه ، من مأساته مع ولده العباس ، حين شق عصا الطاعة عليه ، وحاول الاستقلال بالحكم دونه ، وجمع حوله من الأنصار من رأى رأيه ، والتف حول رايته ، وكان ابن طولون حينئذٍ خارج مصر يصاول أقوى أعدائه لدًا وخصومة ، وأشدهم بأسًا وقوة ، فانقلب إلى مصر ، ليجمع الأمر بعد أن تشتت ، واستطاع أن يعصف بخصومه عصفًا لا رحمة به ، وكان ولده العباس من ضحاياه ، لأنه لمس أنّ الأمور لن تسير فى مجراها الصحيح إذا بقى حيًا يرزق ، وبقى أنصاره المستترون يحرضونه على الوثوب ، وأفدح بمأساة الأب حين يضطر إلى إهلاك فلذة كبده ، لقد كان ما كان وأصبح العباس خبرًا يُتْلَى بعد أن كان قائدًا يتزعّم ، ولم يشأ أن يباشر أحوال دفنه بعد مصرعه ، بل ترك ذلك إلى رفيقه المخلص معمر الجوهرى ، وكان موضع سرّه ، ومهبط نجواه ، يكاد يؤثره على كل فرد من أفراد الدولة لما لمس من همّته وصدق تفانيه ، وطالما سهرا معًا الليل الأطول يتناجيان فى أمور الدولة ، ويرسمان ما يبدو صالحًا من الخطط ، ويرصدان ما يجرى من التيارات المتصارعة ، ليأخذا لكلّ أمر

أهبته ، فلمّا حدثت مأساة العباس ، كان من رأى معمر الجوهرى أن يصفح أبوه وأن يعتقله فى قصر يقيم عليه الحرس فلا يعود يتصل بأحد ، ولكنّ صلابة الأب وتخوّفه العواقب ، حالا دون مشورة معمّر ، ولما انتهى الأمر إلى غايته ، جعل ابن طولون ينفّس عن صدره بأحاديثه الخاصة مع معمّر وحده ، إذ كان لا يأمن أحدًا من قرابته على مكان نجواه ، وتشاء الأقدار أن يفجع ابن طولون بصديقه الأوحد ، فأظهر من لوعة الحزن ما استكثره الناس وعجبوا له ، لأن مثل ابن طولون فى حزمه وصبره وقوة جنانه فى رأيهم ممّن لا يجزع لموت صديق بعد أن تمّ مصرع ولده العباس على يده ، ثمّ شيّع الوالى الكبير صديقه إلى مقره الأخير بجوار قبر ولده العباس ! ورأى الناس ابن طولون يزور قبر معمّر كل يوم ، ويرجع عنه باكيًا شاكيًا ، تتصاعد زفراته ، فيقدرون وفاءه ومروءته ، ولكن بعض المتأملين يرى ما لا يرى هؤلاء ، إذ يعلم أن ابن طولون حزين على فقد العباس مهما كان مصرعه على يده ، وأنه يشفى نفسه قليلًا بزيارة قبره والترحم عليه ، وكان لا يستطيع ذلك قبل أن يلحق به معمر ، كيلا يُرى الناس ما يضطرم فى أحشائه من حريق ، فلمّا جاور قبر معمر قبر العباس بمشورته ورأيه ، جعل يتردّد على المقبرة نادبًا ولده الذى فجع فيه برغمه ، والمصريون يرون ابن طولون يذهب يوميًا فى السحر قبل أن يشرق الفجر إلى زيارة قبر معمر ، ثم يجلس ومعه أجزاء المصحف ليتلو كتاب الله ، حتى إذا سمع أذان الفجر قام متجاذلًا إلى الصلاة ، وعرّج

www.dvd4arab.com

فى رجوعه إلى القبر ليقرأ الفاتحة، وكأنه لم يكن لديه منذ حين قريب، يرى الناس ذلك فيتساءلون أىّ شخص كان معمر الجوهرى بالنسبة لابن طولون، وقد يقول قائل إنه قتل ولده، ولم يجزع لمصرعه! أفيكون معمر أعز وأغلى! ومن القوم من لا يتغلغل إلى الأعماق فيكتفى بالسطح القريب، ومنهم مَنْ لا يقدّر مآسى القلوب، ولا يعرف سعير الروح حين تحترق بجمر الشجى، ثم تحاول أن تموّه على الناظر ببسمة خادعة، ونظرة زائفة، فى الناس هؤلاء وأولئك، ولكنّ فيهم أيضًا من يلج إلى الأعماق الدفينة، فيقرأ الخوالج المستترة، وكأنه يتلو كتابًا مشرق الصفحات، ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة.

على أن ابن طولون فى رواحه ورجوعه إلى القبر، كان يعبر هذه الأبنية الصامتة المسمّاة بالأجداث، فيجد على البعد امرأة تتشح بالسواد، وقد لزمت قبرًا لا تكاد تفارقه، فمهما بكّر بالذهاب فى السحر فإنه يجدها جاثية ضارعة، لم تتخلّف يومًا واحدًا! ما شأن هذه المرأة التى لم ترهب وحشة المقابر فى ظلام الليل، والتى تنتظر حتى يشرق الصباح فترجع متخاذلة منكسرة، أتكون هى الأخرى ذات مأساة ضخمة تستتر فى أحشائها دون أن تبوح بها لأحد، إن ابن طولون على كثرة شواغله، وضخامة أعبائه يلتفت إليها التفاتًا قويًا، ولو استطاع لذهب إلى مواساتها، فالحزين يلوذ بالحزين، والأسى يجمع بين الملك المتوّج، والسائل المحروم، ولكنه يخشى أن تنخذل لرؤيته، وقد تسقط على وجهها مغشيًّا عليها، أتراه يزيدها همًّا على همّ، وهو يحاول أن ينفّس عن ذات صدرها، بما يملك من نعم جزيلة ليست لدى سواه!

لقد رجع ابن طولون إلى قصره ذات صباح، وقد شغله أمر هذه الضارعة الباكية، ورأى فى كشف أمرها ما قد يسعفه بتصبّر يبدّد ما يغشاه من وجد، فطلب أحد حُرّاسه، وأمره أن يلزم المقبرة بعد العشاء مباشرة، فيقف على بعد بعيد من مكان حدّده ورسم موقعه، ليعرف فى أى وقت تأتى هذه المرأة، ثم يظل مراقبًا متطلّعًا دون أن تشعر به فى قليل أو كثير، حتى إذا رجعت إلى منزلها تتبعها فى حذر يقظ، لكيلا تشعر بمراقبته، واذ ذاك يعلم أين منزلها، ثم يأخذ فى دراسة أحوال المنزل، فيتساءل بطريقته الذكية، مع مَن تسكن؟ وما مواردها؟ ومَن الذى فقدت من الناس! ثم يكتم الأمر فلا يبوح به لأحد، حتى يرجع إليه، وقد ألمّ بكل شىء.

وطبيعى أن يسرع الحارس ملبّيًا أمر سيده فيلزم المقبرة طيلة الليل، ثم يتبع السيدة إلى حيث تقيم، فإذا أشرق الصباح أخذ يسأل عن المنزل، فيعلم أنّ صاحبته أرملة بائسة، فقدت زوجها، فكاد يطير عقلها بعد فراقه، وهى لا تترك زيارة قبره صيفًا أو شتاءً. حتى مع اشتداد المطر، ودوىّ الرعد، وهى فى سعة من العيش، بما تُرك لها من مالٍ وعقار، ولها ولدان نجيبان يشتغلان بالتجارة، وقد حاولا أن يهدّئا من حزنها فما بلغا من ذلك بعض ما يريدان، وإن جيرانها يحبونها ويعرفون أنها ذات برّ وإحسان، وما تمسك شيئًا من المال، ولولا رقابة ولديها لتحامقت مع الكرم فبذلت كُلّ شىء دون شحّ، إن حديثها لعاطر، وإن سلوكها نحو زوجها الراحل ليعدّ من الغرائب المدهشات!

Looloo
www.dvd4arab.com

نقل الحارس ما سمع إلى ابن طولون ، فقال فى نفسه ما بلغ الحزن بهذه المرأة هذا المبلغ إلا لسرّ رائع يجب أن يكشف ، فكثيرًا ما يموت الزوج المشفق الحانى قبل الزوجة ، فتبكيه أمر بكاء ، ولكنّها لا تذهب إلى القبر ساعة الغلس حتى يشرق الصباح ، إلّا لحسرة تتلهّب فى أحشائها ، وتحاول أن تخففها بهذه الزيارات المتتابعة دون انقطاع ، لا بدَّ أن أعرف سرّ هذه الوالهة الجزوع ، ولكن كيف ؟

سأتنكّر فى ملابس العَامّة ، وأفد إليها مع من يفدون للسؤال ، وعندى من الملابس ما أعددته لهذه الجولات ، وأنا حزين منذ مات العبَّاس ، وستقرأ ملامح الحزن فى وجهى فترتاح إلى البث والإفضاء ، وإذ كان الوقت بين المغرب والعشاء مناسبًا للتنكّر ، وقد اعتادت كما خُبِّرت . أن تستقبل من يأتون للصدقة حينئذ ، فالأمر سهل ! قال ابن طولون ذلك فى نفسه ، واستشار أحد خاصته (سالم بن الداية) فيما سيقدم عليه ، فقال له ، ربما تضن بسرها على سائل يطلب النوال ، ولا تستطيع حينئذ أن تجبرها على شىء ، والأوْلَى أن أذهب أنا إليها متلطّفًا ، فأقول لها إن الأمير حفظه الله يراك دائمًا أمام المقبرة حين يعتاد القبور زائرًا كعادته ، فأكبر وفاءك الجمّ ، وعلم أن فى النساء من يحفظن الود طيلة الحياة ، وإن كنَّ من الندرة بحيث لم يعثر على امرأة بلغت مبلغك من الإخلاص ، وهو يريد أن تنهضى إليه مبجَّلة معزَّزة ليسمع منك ما يشفى صدره ، فهو دائم الحسرات ، متصل العبرات ، وقد صمَّم على أن يحضر إليك بنفسه ، ولكنه خاف أن

تنزعجى لمشهده المباغت ، فأمرنى أن أتلطَّف فى دعوتك فمتى ترغبين ؟

أطرق ابن طولون مفكّرًا ، وقال (لسالم) هو ما رأيت ، وإذا استطعت أن تجىء بها مغرب هذا اليوم كان ذلك مبتغاى ، فعلى بركة الله !

أدّى ابن طولون صلاة المغرب بمنزله ، وجلس هنيهة يسيرة ، فجاءه من يخبره بأن (سالم بن الداية) قد حضر مع زائرة تلبس السّواد ، راغبًا أنْ يعلم الأمير بحضوره مع صاحبته ، فهشّ ابن طولون وابتهج ، وانتقل إلى قاعة الاستقبال ، ثم نظر فرأى السيدة تمثل أمامه شاحبة سقيمة ، كأنها تعانى داء دخيلًا لا تهتدى لدوائه ، فأدرك ما يعتمل فى نفسها من الهيبة والرهبة ، فنهض مسلِّمًا مصافحًا ، وغمرها بما يقدر على إظهاره من البشاشة والبهجة ، حتَّى أمن سربها ، وذهبت حيرتها ، ثم قال لها فى تودُّد !

أراك منذ عهد طويل تزورين المقابر دون انقطاع ، فحزَّتْ فى نفسى مأساتك ، واعتزمت على أن أعينك فى بلواك ! فماذا كان ؟

قالت السيدة : وأنا أرى الأمير ، وأرقبه رائحًا غاديًا قُبيل الفجر ، فأقول فى نفسى ، أنا امرأة ضعيفة لا تستطيع الصبر ، ومولاى الأمير رجل الرجال ، وفارس الفرسان ، فكيف بلغ به الأسى ما بلغ من أنثى مسكينة تهب بها الريح فى كل اتجاه .

Looloo
www.dvd4arab.com

قال ابن طولون : إن العواطف ليست بضاعة تستبدل ، وقد كافحت بلواى أشد المكافحة فما استطعت ، ولا أدرى لماذا فكّرت فيك كثيرًا ، حين وجدت الهم المشترك يجمع بينى وبينك .

فصاحت السيدة مقلّبة كفّيها ! أمثل الأمير يفكّر فى امرأة ضعيفة مثلى ! لقد هجس فى نفسى حين رأيتك ترمى بنظرك أحيانًا نحو مجلسى بالمقبرة ، أنك ستنكر صنيعى ، وربما تعجّل بعقابى . إذ أخرج فى الليل المدلهم دون محرم ! وكنت أقول : ليته يعجّل بعقابى تعجيلا ماحقًا فيريحنى من الحياة ، حيث تتم النَّجاة ! وهأنذا بين يديك .

قال ابن طولون : معاذ الله أن تُسائنى أو يلحقك شرّ ما ! وإذا كان أهل الوفاء لا يجدون التقدير من صاحب الأمر ، أفيجده الغادرون الأنجاس ، إنى أريد أن أسمع قصّتك مع زوجك الراحل ! فقد تكون صحيفة رائعة تكتب فى سجلّ يحفظ مكارم الأخلاق وتتناقلها الأجيال .

قالت السيدة : الحادثة خطيرة ، وهى سرّ سأذيعه لك وحدك ، أمّا أن يتعالمها النَّاس فهذا ما يكشف الستار عن أسرة مصونة ، يحترمها الناس .

قال الأمير : وإنّ لك لعقلًا ، وأنا معك فى كلّ ما تريدين ، ولن أبوح بسرّ أضعه بين دمى ولحمى فهيًا !

فتقاطرت دموع رقيقة من عين السيّدة ، وعجّلت فمحتها بمنديلها متأسفة ، ثم قالت : سأأتمن مولاى على سرّ إذا ذاع فضحنى فى أهلى ، وهو نعم الأمين !

فرقّ لها ابن طولون ، وقال ما هذا ؟ إنى والله أصبحت أشعر كأنك ابنتى أو أختى وما حلفت بالله كاذبًا فى حياتى !

فردّت السيدة : لقد حدثتنى قلبى بمروءتك ، وهو لا يكذبنى أبدًا ، وهأنذا أوجز قصّتى كما كانت دون استرسال ؛ لقد زوّجنى أبى ، وأنا فتاة صغيرة لا أتجاوز الثالثة عشرة من عمرى ، فوجدت نفسى مع زوج أمين مخلص ، ولكنه كان يرحل متاجرًا لمدة شهر ويرجع ، وفى بعض الرحلات انقطع مجيئه حقبة طويلة استمرت ثلاثة أعوام ، والتفّ بى من الخادعات الكاذبات من أوقعن فى روْعى أنه مات ولم يعد ، وفيهنَّ من ذكرت لى أن أخاها يريد الاقتران بى ، فطاوعتنى نفسى أن أراه وأتحدث إليه ، وتكرّر اللقاء كثيرًا ، فخدعنى بمنطقه ووعدنى بالزواج العاجل ، وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى اتّصل بى ، وانتظرتُ أن يعقد قرانه ففرّ ، ثم كانت الكارثة حين وضح الحمل فى جسمى ، وأظهر أبى وأمى من الارتياع والفزع ما منعهما الطعام والشراب ، وقد استترتُ عن العيون باكية جازعة ، على حين بذلت شتى الوسائل لإلقاء الحمل فلم تعد بشىء ، وفى الشهر الأخير ، جاء زوجى فجأة ، فخيّل لأبى أن قد قامت القيامة ، وجعل يساطل زوجى فى رؤيتى معتلا بأسباب لا تثبت على التحقيق ، وقد فطن الزوج إلى أن شيئًا غير طبيعىّ قد حدث ، فاقتحم علىّ خلوتى ، وأدركنى الذهول لرؤيته ، ففابت عن نفسى ، وحين عدت إلى يقظتى ، رأيت زوجى يربتُ على كتفى دامعًا باكيًا ، بل وجدته يقبّل يدى وقدمى ؛ ويقول فى

Looloo
www.dvd4arab.com

أسف صادق ، أنا المذنب لا أنت ، فقد أهملتك إهمالًا يخالف شريعة الله ، وقد سترنى الله حين زللتُ مثل زلّتك فى غربتى ، وكدت أفتضح لولا أن أسبل الله علىَّ ستر فضله ، فنذرت فى نفسى أن أعين من يرميه الزمن بمثل مصيبتى ، وهأنذا أجدك فى مثل موقفى ، ووالله الذى لا إلٰه إلَّا هو لن تسمعنى منى ما تكرهين ، ولن ترى غير مابه تبتهجين ، ثم تقدَّم إلى والدى وكان شاحب الوجه ، ليس فى وجْنته قطرة دم ، فقال له ياعمّ : هى أختى قبل أن تكون زوجتى ، وأنت والدى وزوجتك والدتى ، وكأن أمرًا مالم يحدث ، وسنرعى الجنين حتَّى يأتى فيبلغ مأمنه لأن الولد للفراش بحكم الله ، وسأترك زوجتى فى منزلكما فترعيان شئونهما دون أن يعلم أحد من أهلى شيئًا ، وهكذا ظللت مستورة مكرمة بمنزل أبى حتَّى وضعت !

فلمَّا علم أنّى استرحت دخل علىَّ بوجه منبسط الأسارير ، وجلس عند رأسى ، وسألنى عن صحتى ، ثم تناول الطفل وقبَّله وأعطاه لأمرأة كانت تنتظره ، ولم أجرؤ أن أسأله عن شىء من أمره ، ثم بكيت فبكى لبكائى ، ونادى أبى وأمى وقال أعيناها بربكما على الصبر ، فأنا أعرف أنه لامهرب من قضاء الله ولا مفرّ ، وليتنى أملك أن أمحو من نفسها كلّ حزن فأعود إلى ما أعهده من وجهها الطلق ، وابتسامها الوضىء .

فقال أبى : جزاك الله خيرًا ، واذهب أنت ، وسنحاول معها تهوين ماهى فيه ، فقال : سآتى من الغد لأحملها إلى منزلها لدىّ .

وجاء الصباح ، فرأيت منزلى أصبح جنة لديه ، لأنه رجع بأموال طائلة ، وأثاث ورياش ، وحلىّ وجواهر وعقود قدَّمها جميعها إلىَّ ، وأنا بينى وبين نفسى خجلة لا أصدِّق أنى فى يقظة . وأقول هو حلم من الأحلام ، وسيأتى الصحو فأعود إلى ما أتوقَّعه من الإذلال ، ولكنه لم يغيِّر أمره معى ، بل كانت محبته تزيد بمرور الأيام ، وقد أحضر ثيابا حريرية ودعا أقاربى ومن يمت بأدنى صلة لى ، وأخذ يفرقها فى شوق على سبيل الهديَّة . ويقول : لقد أكرمتم زوجتى فى غربتى ، فلا أقل من أن أتحفكم بما ينبئ عن شكرى الخالص ، وامتنانى الجزيل ، ثم اتَّصل أمرى معه ، فحملتُ ووضعت طفلًا نجيبًا تلقى مولده بأعظم سعادة ، وأنفق فى أسبوعه من الهبات مالا يقف عند حصر ، وقال إنه فضل الله ، وعلىَّ أن أشكره بالإحسان .

وما زالت حالتى معه تجمل وتزدان حتَّى بلغت مالا مزيد عليه من المحبَّة والسرور وقد مضت عشر سنين فكبر ولدى ، وحفظ القرآن ، وتعلَّم ما يتعلم نظراؤه من مبادئ القراءة والحساب ، ثم مرض فجأة ، واعتل علَّة ما شكَّ أنه راحل بعدها ، فأحضر من يكتب له الوصيَّة ، وقال إنه خلف من الولد فلانا وفلانا وزوجة هى فلانة ابنة فلان يريدنى ، فقلتُ فى نفسى أله ولد آخر من غيرى ، وأنه كان ينكر علىَّ ، وكتمت الأمر فى نفسى إذ لا أقوى على مواجهته بشىء فقد فكَّرت فيما سلف من خيانتى وقبيح فعلى ، وجميل ما قابل به سوءاتى ، ثم تحاملت على نفسى ، وقلت كالمبتهجة فى ظاهرها ،

www.dvd4arab.com

بعد أن قبّلت رأسه ويده : سيّدى إن لك علىَّ من الفضل والإحسان ما استعبدتنى به ، حتّى ولو تزوجت ثلاث نسوة معى ماكان لى أن أغضب ، وأنا صنيعة معروفك ، فلماذا لم تخبرنى أن لك ولدًا من سواى، ولو كنت عرفت ذلك ، لخدمتُ زوجتك كالجارية ، وأنزلت ابنك منزلة ابنى أو أعز ، وكان هذا بعض ما تستحقه منى ! فقال لى وهو فى آخر ساعة من ساعاته ، أتذكرين الطفل الذى تم ميلاده بمنزل أبيك ؟ لقد حرصتُ على بقائه ، واشتريت له داية تربيه ، وأوفدته معها فى منزل خاص ، وكنت أزورهما الساعة بعد الساعة غير مقصّر فى عطف أو عطاء ، وقد كبر وحفظ القرآن ، وتعلّم ما تعلّم أخوه من الكتابة والحساب ، وإنما ألحقته بى لأن هذا حكم الله ! فحين سمعت هذه الخارقة ذهلت لمدة لا أدرى أقصرت أم طالت ، ورشوا الماء على وجهى فأفقت ، ثم عاد لى صوابى فانحنيت على قدمه أقبّلها فى حرقة ولذع ، فقال لى : إن منزل ولدك قريب منا ، وهو بمكان كذا فهيّا أحضريه لأراه قبل أن أموت !

وما كدت أذهب وأرجع مع ابنى الأوّل ، حتّى بلغ الكتاب أجله ، وارتفع الصوت ناعيًا زوجى الحبيب ! وقد ترك لنا من العقار والأموال ما عشنا به سعداء غير محتاجين ، ولكنه لم يرحل إلى قبره وحده ، بل رحل معه قلبى ، فإذا وجدنى الأمير ذاهبة آيبة إليه ، فأنا أذهب إلى فؤادى ، إذ كيف أعيش بدون قلب ، ثم انخرطت فى بكاء مرير !

قال الأمير : ما ظننت الحياة تسعف بزوج ثان كزوجك ، وإن لزومك قبره لأقل ما يجب نحو مروءته ، وقد شملتك منذ الآن برعايتى ، فإذا اعترضك مكروه فها هو ذا منزلى ، وها هو ذا مجلسى ! وسأسلم عليك كل يوم حين نتقابل فى الفجر في أفجع مكان !

وخرجت المرأة إلى حيث كانت ، وتركت ابن طولون فى خواطر متدافقة تذهب به وتجيء .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

أمّ آسية

كان أحمد بن دعيم يجلس مع صديقه هارون بن ملّول فى أمسية هادئة يتبادلان الحديث، وكلاهما ذو شأن فى الدولة الطولونية، فأحمد ممّن تولّوا أمور الإدارة فى الدولة، فنهى وأمر، وقرّب وباعد، وهارون من كبار التجار الذين اعتمد عليهم الأمير فى التصدير والإيراد، وكانت جهوده حاسمة حين يشح النيل بمائه، ويقلّ المحصول الزراعى، إذ يساعد الدولة على محاربة الغلاء بيعًا وشراءً، وقد نمت ثروته، وانتفع بجاهه وماله كثيرون، ثم مضى أحمد بن طولون إلى ربه، وانتقل الحكم إلى ولده خمارويه، فلم يريا لديه من الحظوة ما كانا يعهدان لدى أبيه، فآثر السلامة، واكتفيا بما جمعا من عقار يمد أسرتيهما بما تبتغيان، ولكنهما يكنّان فى أعماقهما بغضًا لخمارويه، فإذا اجتمعا فى مجلس خاص، وأمنا استراق السمع، تنفّسا ببعض النقدات، فأشارا إلى ما ينكران من أعمال الحاكم فى استخفاف بقدره، وتهاون بما يأتى ويدع من الأمور.

قال هارون بن ملّول، لو عاش أحمد بن طولون، ورأى خمارويه، يبذل هذه الأموال الطائلة، فى غير نفع ملموس، لكان له معه موقف جاد يهديه سواء السبيل، لقد وقفتُ على تشييد مسجد أحمد بالقطائع، ووُكل إلىّ إعداد ما يتطلّب من الصخر والحديد والخشب والصاج، فكنت ألقى محاسبة دقيقة

من الحاكم، إذ كان لا يسمح بأدنى تبذير، بل كان يتعقب الأسعار من خلفى، ليطمئن إلى أنى ألزم جانب الاقتصاد، وكلّ ما أقامه أحمد من العمائر والخطط كان وليد ضرورة ملزمة تعتمد الصالح العام فى مظهره الطبيعىّ، وكان يسير ليلًا لينقد ما لا يوافق مشربه، وأذكر أنه عثر مرّة على كومة من الآجر تُركت أسبوعًا دون أن تُستغل، فدعانى مستفهمًا فى حدّة، فقلت له، إنّ يومها مدّخر لوقته، حيث ننتفع بها فى السطح الأعلى، فعضّ على شفته، وقال: تذكّر هذا، فقد أقلقتنى! فما ظنك بأحمد إذا علم من وراء الغيب أن ابنه قد أنشأ بالقطائع بستانًا لا عهد للناس بمثله جمع به من ألوان الزهور وأنواع الورد والزعفران ما خلب وأدهش، وقد كسا النخيل نحاسًا مذهبًا، وجعل تحت النحاس ميازيب من الرصاص ينبثق منها الماء بترتيب رائع، وكانت الورود تتخذ فى وضعها سطورًا من الكتابة، بحيث تؤلف جملًا يقرؤها الناظر متعجبًا، ولها عمّال يقومون على تشذيبها إذا طال غصن، فغيّر موضعه عن حيّزه الطبيعىّ، ليبقى المدلول واضحًا، وكأنه كتب بالمداد على صحيفة بيضاء! وقد جعل فى جانب كبير من البستان حديقة واسعة للحيوان والطيور، جمعت عشرات الحيوانات المستأنسة، ثم بدا له فأحضر الحيوانات المفترسة من الوحوش الكاسرة، وبنى لها دارًا خاصة تعرف لدى العامة بدار السباع، وقد رسمت فى أبنية متصلة الحجرات كل حجرة تستقل ببيت يسع سبعًا ولبوته، وله باب يُفتح فى أعلاه، وفيه طاق صغير، يدخل

www.dvd4arab.com

منه العامل الموكّل بخدمة الأسد، ليجدّد الطعام والماء، وإذا أراد سائس السبع تنظيف المنزل من فضلات ساكنه، رفع الباب من الأعلى، وصاح السبع ليخرج إلى القاعة الخارجيّة، ثم يغلق الباب، ليهيئ المكان على عهده الأول من النظافة، فيكنس الذبل، ويبدّل الرمل، ويغسل الحوض ويملؤه ماءً، ويضع الوجبة من اللحم، للسبع وأنثاه، ثم يخرج، ويرفع الباب من الأعلى، وحينئذ يتوجه الوحش إلى مقرّه، وهو يعلم مايصنع صاحبه من أجله، وقد تستمر الوحوش ساعات فى الطرقات الخارجية تمرح وتلعب فى بهجة، حتى إذا رفعت الأبواب سارعت إلى مكانها المألوف دون تلكؤ، وأنا أعرف أن ما يقدّم لها من اللحوم فى يوم واحد، يكفى فقراء المدينة دون استثناء !

قال أحمد بن دعيم، تتحدث عن البستان وحديقة الحيوان، وننسى بيت الذهب، لقد شاء لخمارويه إسرافه المتلاف أن يطلى جدران قصره بالذهب، فقل لى بربك كم يتكلّف الجدار الواحد، فإذا نظرت إلى مايمتلئ به القصر من التماثيل والنّصب ثم إلى القبة الفسيحة التى تظلّل القصر، وهى أيضًا مذهبة كالجدران، ثم أحصيت ماييذل فى مجالس الطعام والشراب، وهى لا تنقطع فى يوم! إذا نظرت إلى ذلك كلّه ! فماذا تقول !

ضحك هارون بن ملّول ضحكة الساخر، ثم قال: لقد تحدّثنا عن الأسود، ولكننا لم نشر إلى أسد (أم آسية) فهل علمت قصتها معه !.

قال أحمد: أم آسية قابلة القصر، وصاحبة الأمر لدى نسائه وجواريه، وذات الحظوة البالغة لدى سيدة القصر، بل لدى خمارويه نفسه ! ألها قصة مع الأسود ؟ وما علاقتها بدار السباع ؟

فقال هارون: لقد تناقل الحراس قصّتها متعجّبين ذاهلين، فقد وقعت بين أنياب الأسد، وطاف حولها رائحًا غاديًا، ولم يمسسها بسوء ! أتراها وليّة مباركة كما يدّعون !؟

قال أحمد: فصّل الأمر بجميع ملابساته، فأنا أقدّر هذه السيّدة، وأريد أن ألم بما كان !

فرد هارون فى تؤده: علمت أنها حملت رسالة إلى خمارويه من سيدة القصر، فعرفت أنه يتنزه فى دار السباع، وكانت حريصة أن تبلّغ الرسالة فى أسرع وقت، فانطلقت إلى حديقة الحيوان ظانة أن الأمير بحرّاسه وبطانته فى مأمن من الوحوش، وإذن فلا عليها أن تذهب، وما كادت تطأ الطريق الأول، حتى وجدت نفسها أمام أسد ضخم، فوقعت مغشيًّا عليها، ونامت دون حراك، وجاء الأسد فدار حولها، وجعل يتشمّمها دون أن يقربها بسوء ! ثم جاء الحارس سريعًا، فصحب الأسد إلى مكانه، وبعث بنفر من الخدم يحملون الماء، وعصارة الورد، فرشّوا وجه السيدة حتى أفاقت ! وذهبوا بها لتستريح !

قال هارون: عجيب أمر هذا الأسد، كيف يرى الغذاء الشهىّ ويتعفّف عنه ! أهذا معقول ؟

فعاجل أحمد يقول: لقد تناقشنا فى هذه الحادثة، فقال

www.dvd4arab.com

بعض ذوى الخبرة من خادمى الأسود، إن الأسد بنوع خاص بين السباع، لا يقرب الطعام إلا إذا جاع! فهو لا يهجم على كل فريسة تحين، وقد وقعت أم آسية فى قبضته وهو ملىء مكتظ، فسلمت منه! ولها أجل لم ينقض بعدُ!

فقال هارون: أعرف أنّ أم آسية كانت ذات تأثير على قطر النّدى حين اعتزم والدها أن يزفّها إلى الخليفة المعتضد، وبسياستها الهادئة قرّبت الفتاة إلى قلب أبيها بعد جموح.

فقال أحمد بن دعيم، لقد كانت ورطة شاقة واجهت الفتاة وأباها معًا، لأن خمارويه رأى أن تزف الفتاة إلى وليّ العهد (المكتفى) إذ يقاربها فى السنّ والشعور والأمانى، ولكنه فوجئ بأن الخليفة نفسه، يرغبها لذاته، فكانت صدمة أولى، ولكن السياسة لا ترحم!

- نعم يا أخى إن السياسة لا ترحم، فقد رأى خمارويه ما عاناه والده فى شقاقه مع بغداد، حين ناوأ جيوش الموفّق، وحين أفتى المفتون بلعنه على المنابر، وحين أعلنوا انشقاقه ومروقه، وأنه يتولّى الحكم اغتصابًا، وقد اضطر ابن طولون أن يواجه اللعن باللّعن، وأن يعلن مروق الموفق، ويجمع الملأ فى مصر أنه لم يعد وليًا للعهد بعد أن حاصر الخليفة وضيّق عليه، وكم أرق أحمد بن طولون من ليالٍ طوال يتخوف العاقبة، ويحاذر أن تهب الرياح بما لا يودّ، ثم استقام له الأمر بعد عذاب طويل، وكأن خمارويه قد أحسّ أن الخلافة لا تزال متطلّعة إلى مصر وأنها بسبيل واضح من معاداتها، فأراد أن يوثق الصّلة بالمصاهرة، وقد وجد ابنته ذات جمال وأدب

وفطنة، فتقرب بها إلى ولى العهد، ومادار بخاطره أن الخليفة وعنده عشرات الجوارى فى قصره، يرغب أن يتزوّج من فتاة تصلح أن تكون حفيدته! وما كان لأبى الجيش أن يخالف اتجاه المعتضد، لأنه حينئذ سينسف بكلمة واحدة، كلّ ما بناه من الآمال، ورسمه من الخطط، وهنا جاء دور أم آسية فى إقناع قطر الندى لترضى بالواقع الشاق.

فسأل هارون: وأين كانت أم قطر الندى حتى تتولى الأمر إمرأة مهما قيل فى صلاحها وانقيادها ليست من الأسرة الطولونية، بل وليست من ذوات الحسب الأصيل فى البلاد.

فرد أحمد بن دعيم يقول: الذى يظهر من مجرى الأحداث، أنّ زوجة خمارويه ووالدة قطر الندى، لم تكن مرحبّة بزفاف ابنتها الصغيرة للكهل الكبير، وكأنها نقمت ذلك كلّ النقمة، وإذا لم تستطع إقناع نفسها، فإنها لن تستطيع إقناع الفتاة! وماذا تقول: أترغبها فى السلطان والمال والجاه! كلّ ذلك عند والدها فى مصر، ولن تطمع فى أكثر منه! وهنا لجأ خمارويه إلى أم آسية، إذ كانت قريبة من قلب قطر الندى تقوم على رعايتها خادمة مطيعة، ومهما تكن فقد تمّ الأمر وزُفّت الفتاة! وبذلت أموال مصر فى عرس مترف، لم يسمع بمثله أحد من قبل إلّا فى النادر الشّاذ!

فقال هارون: يا أخى ولا فى النادر الشّاذ، هل سمعت أن أحدًا بنى عشرين قصرًا فى الطريق بين مصر وبغداد لتستريح الفتاة فى كل مرحلة، فتجد نفسها أمام قصر جديد أُعد خاصًا بإقامة يومين أو ثلاثة أيّام! عشرون قصرًا، لكل قصر

Looloo
www.dvd4arab.com

حجراته وأثاثه وخدمه، وطعامه وشرابه، وغلمانه وجواريه ! أهذا عقل أم نزق ؟

فرد أحمد قائلًا : نرجع ثانية إلى أم آسية فأذكر أنها كانت فى موكب الأميرة، بل كانت فى الصف الأول من حاشيتها، وقد رأت هذه المظاهر البالغة، وتحدثت عنها فى براءة، إذ لا تدرك أن إذاعة مثل هذا الإسراف الطائش مما يوقع الألم فى نفوس من يرون الأموال تهدر فى الريح كالهباء .

لقد قالت أم آسية : إن خمارويه قدّم لابنته أريكة ذهبية، مكوّنة من أربعة مقاعد من التبر الخالص، وعليها قبّة من الذهب تتدلى منها عقود لؤلؤية، كما أنها حملت فى الجهاز مائة هون من الذهب الخالص ! فإذا كانت معدّات المطبخ من الذهب ! فما ظنك بالملبس والمضجع والمجلس ! مائة هون من الذهب الخالص ! بماذا نسمى هذا يا هارون .

فابتسم هارون وقال : أتسألنى أنا ؟ وأنت تعرف أنى تاجر أتعامل بالدانق والقيراط ! لقد كدت أخرج عن صوابى يا رجل !

قال أحمد : لقد كدت أضحك وأنا أسمع أم آسية تقول، كنا فى رحلتنا إلى بغداد مع الأميرة، نعاملها كأنها طفلة فى المهد، نحملها ولا نتركها تسير على الأرض، ونجعلها طوال الطريق كأنها فى قصر أبيها لم تبرحه، لأن الهودج الكبير الذى يقلها كان كأنه حجرة واسعة تحملها عشرة من البغال، تسير الهوينى، وفق خطة يرسمها الحادى، فإذا بلغت القصر المشيد، وجدت ما يذكرها بقصر أبيها، وكأنها تنتقل فى حجراته دون اختلاف !

فسأله هارون : وماذا قدم الخليفة المعتضد مهرًا للفتاة !

فقال أحمد : الحق أنه أصدقها ألف ألف درهم !

فصاح هارون : ثمن ما يضم المطبخ ! أليس يضم مائة هون من الذهب الخالص !

- فعاجله صاحبه يقول : رويدك يا أخى أتظن هذه الآلات الذهبيّة ستدخل المطبخ لحظة واحدة، إن لها مكانها المهيأ فى خزانة القصر ! وهذه أكبر غنيمة ظفرت بها بغداد، وقد علمنا أن الخليفة احتفل بزفافه احتفالًا لم تشهده عاصمة الرشيد من قبل، وقد نزل شيبان بن أحمد بن طولون عم الفتاة أكرم منزل بين أمراء الخلافة، فكانوا يلتفون حوله فى سرور ونشوة، وكأن كلّ واحد منهم كان يطمع فى زوجة مماثلة، فهو يتزلّف إلى شيبان ليحوز رضاه .

صاح هارون : يتزلّف إلى شيبان ! واحرّ قلبى عليه، إن والده لم يكن ليثق به فى شىء وإن أخاه يبث حوله الأرصاد، ولا يعطيه أدنى سلطة فى مصر، وحسبه أن يأكل ويشرب وأن ينام ! بل حسبه أن يكون واجهة مشرّفة إذا لزم الأمر ! وها هو ذا قد سار إلى بغداد فى ركب الأميرة نائبًا عن أبيها، فالعمّ والد، ولولا احتياج الدولة لخمارويه، بل لولا خوفه من أحد معارضيه أن ينتهز فرصة رحيله، فيشق عصا الطاعة عليه، لكان فى صدر الموكب دون سواه ! ما علينا منه فقد رحل وعاد .

قال أحمد : وعاد أكثر من ذهب !

فقال هارون : عاد الأكثر ! لم يعد الباقون جميعًا !

www.dvd4arab.com

فرد أحمد: علمت من أم آسية، أن منهم من ذهب إلى الحجّ، وأن منهم من رأى أن يقيم شهورًا بعاصمة الخلافة، وفيهم من أوصاه خماروية بالبقاء بعيدًا عن الأنظار، ليرصد أمور الدولة هناك، ويخبر بما يراه!

ابتسم هارون بن ملّول ثم قال: أكثر أخبارك عن أم آسية؟ فكيف حظيت عندها، حتى تأتى إليك فتعرف عنها أنباء خماروية وقطر الندى، ومادق من شئون السفر وطرائف العرس؟

فعجل أحمد يقول: كأنك لا تعرف صلتى بأم آسية منذ كنّا صغيرين! لقد كان منزلانا متجاورين، وكنت زميلًا لزوجها راشد فى التجارة، حتى فرّق بيننا الموت!

فقال هارون، أعرف زوجها راشد، وأعرف ما بينكما من صداقة، ولكن السرّ العجيب الذى طفر بأم آسية إلى قصر خماروية لم يأتنى بعد!

صاح أحمد: كيف يا رجل، وهو أمر متعالم مشهور!

فرد هارون: إن كان ما قيل عن عنايتها بسيدة القصر حين وضعت ولدها الأخير، فذلك ما يستغرب! إذ يستبعد أن يجىء خماروية بأم آسية لتكون مشرفة على مولد الطفل، ويترك الشهيرات من القوابل، ولم يعرف عن أم آسية أنّها قابلة من قبل!

قال أحمد: الأمور بيد الله، يرفع من يشاء، ويضع من يشاء! وقد أتت رفعة أم آسية من أقرب الأبواب، حين أذن الله لها بالإسعاد!

فقال هارون: أُريد أن أعرف الأمر كما كان! وعند جهينة الخبر اليقين!

فابتسم أحمد وقال: هى قصّة ذات عبرة لمن اعتبر، ودونك فاسْمع!

حين مات راشد التاجر، ترك لأم آسية بنتين صغيرتين، ولم يترك من العروض غير ما استنفدته ديونه على الناس، فأصبحت الزوجة ما بين يوم وليلة مسكينة بائسة تكاد تسأل الناس، وقد اجتهدت فى تربية الدواجن، وحملت الأقفاص إلى الأسواق، ساعية وراء الرزق، فكانت لا تبلغ القوت إلّا بالجهد الشّاق، وإذا ضاق بها الأمر لجأت إلى أختها (سكينة) زوجة التاجر (نعمان) فجعلت تستعطفها بما تسمح به من عطاء على قلته! وكانت كلّما حفزتها الحاجة واتجهت لسكينة قالت فى أدب: أقرضينى يا أختى أرزًا أو خبزًا أو عدة دراهم وفق حاجتها، فكانت أختها تعطيها ممتعضة، وكأنها تقول لها: لقد أكثرت من الطلب فلا تحضرى بعد الآن!

وفى ذات ليلة ذهبت أم آسية إلى أختها سكينة، وابتدأت تقول عبارتها الشهيرة (أقرضينى يا أختاه) وكان فى سكينة حدّة فصاحت بها: كلّ يوم تقولين: أقرضينى كأنك ستقومين بردّ ما تأخذين! فمن أين يأتى إليك ما تقومين به عند القضاء! ألا تقولين كلمة أخرى!

فوجمت أم آسية، وقالت: إن الله عز وجل قادر على أن يجعلنى أقضى الدين، وله خزائنه التى لا تنفد، فصاحت بها سكينة: هذه أحلام الصغار!

Looloo
www.dvd4arab.com

وخرجت أم آسية منكسرة الخاطر ذليلة النفس، فقابلت فى الطريق رجلًا حزينًا يكاد يبكى، فقال لها : امرأتى تطلق فى صعوبة، وليس معها أحد، فهل تسمحين بمعاونتها، فتوجهت من فورها إلى المرأة، وهى فى أشد حالات الألم، فجعلت تشجّعها بما تعودت النساء أن يفعلن فى هذا الموقف، ثم أذن الله فتم الوضع على وجه سريع ! فعُدّ ذلك من مهارة أم آسية .

كان هذا الرجل من خدم القصر عند (خمارويه) وتصادف أن زوجة الأمير قد تعسّرت فى وضع تالٍ، وأحضر أبو الجيش من المتمرسات من عجزن عن راحتها، فقال الخادم : أنا أعرف امرأة ماهرة هى أم آسية فعجّل خمارويه بحضورها، وسرعان ما جاءت متحيّرة ذاهلة لا تدرى ماذا تصنع .

قالت أم آسية فى حديث يرويه أحمد بن دعيم لصاحبه هارون بن ملّول .

دخلت على سيدة القصر، والناس يستقبلوننى كأننى أفعل المعجزات، فملكت أمرى بعض الشىء، ووضعت يدى قارئة الفاتحة على بطنها فسكن ما بها من الألم، فصاح خمارويه : قدومك مبارك يا أم آسية، فقلت دعوها، واذهبوا، وسيأتى الله بالبشرى .

ثم سقطت من عينى الدموع، وأنا أقول فى سرّى، ربّاه لا تفضحنى بين الناس ! أنا عاجزة إلّا بك، أنا مستورة فلا تكشف أمرى، ثم توضأت وصليت، وبالغت فى السجود، وكنت لا أستطيع تمام الكلمات لما يغلبنى من الدموع !

وسمعتُ أنين السيدة، فنهضت، وأنا أستنجد باسم الله، وحاولت معها ما تحاول القابلات، فأذن الله بالفرج، وهلّ وجه الطفل الجديد، وانتقلت البشرى إلى أبى الجيش، فجاء سريعًا كالطائر، فقلت لها يا سيدتى، أسألك بالله أن تبتسمى فى وجهه ليسرّ، فلما دخل خمارويه ولمح ابتسام زوجته، ورأى الطفل بين يدىّ، أخذه فقبّله، ثم قال لى : قدومك سعيد يا مباركة ! لن تتركى القصر من الآن، وسألنى عن منزلى وعن حالتى فغلبنى الدمع ولم أنطق، وكانت فيه فراسة، فألمّ بما أكن، وهنا قال : لك منزلٌ خاص بجوارى، وهو مهيأ بما تريدين من الأثاث والخدم، ولك ألف دينار عاجلة ! وما كادت صديقات السيدة وأصدقاء خمارويه يعلمون ما صنعت، حتى جعلت هداياهم تتوافد على السيدة، وفيها أنفس التحف، وأغلى الجواهر فجمعت ذلك كلّه، وقالت : هو منى لأم آسية فأنا لا أريد شيئًا، وصاحت بزائراتها : أكرمنها جميعكن !

ذهبت إلى منزلى الجديد، وقد امتلأ بالذخائر، وفيها ما لم أشهده من قبل، بل ما لا أعرف قيمته الحقيقيّة، إذ لا عهد لى به، وكأن أبا الجيش قد أدرك ما أضمر من الحيرة، فأرسل مَنْ يخبرنى بحقيقة ما لدىّ، فإذا أنا ذات كنوز من الحلىّ ! وإذا خادم تتبعنى، لتكون خاصة بالمنزل، وأخرى لتقوم على إعداد الطعام، وثالثة لتقوم على غسل الملابس وحفظها، فتشجعت وذهبت إلى أبى الجيش شاكرة، وقلت له : سيكون أكثر يومى فى قصرك الكريم، ولست بحاجة إلى خادمات، فتفرّس فى وجهى قليلًا، وقال : لك ما تشاءين.

وطار الخبر إلى أختى سكينة فجاءت إلىّ مع المهنئات،

www.dvd4arab.com

ولمست ما أنا فيه من إقبال جاوز مدى الظّن، فقدمت إليها قطعة كبيرة من الذهب الخالص، وقلت: هذا سداد الدين يا أختاه، لقد قلت لك أقرضينى، وأنا أعلم أن خزائن الله لا تنفد، فسكتت كالحائرة، وقالت: كأنك لا تزالين عاتبة علىّ، فصحت كلًا، ولك عندى مزيد، فإذا احتجت مالًا فهو طوع يمينك، لا قرضًا بل هبة، فجلست متخاذلة، تحاول الكلام فلا تستطيع، وأردت أن أُسرى عنها بما يمتع، فقلت: القصر فسيح، وأنا وابنتاى فحسب، فتعالَىْ معى، لك طابق خاص ملك يمينك، فنهضت وقبلتنى بين عينىّ!

قال هارون: وما علة بقائها فى قصر ابن طولون طيلة اليوم ولها منزل خاص!

فقال أحمد: أصبحت سيدة القصر ـ لأمر أراده الله ـ تتفاءل برؤيتها، وانتقل التفاؤل إلى أبى الجيش بتأثير صاحبته، فأخذ يتعهدها بالسؤال. ويجد السرور فى وجه زوجته بلقائها، فيهشّ وينبسط، ولا أدلّ على منزلتها من اختيارها لمصاحبة قطر النّدى، لتكون مؤنس الوحدة، ورفيق الرحلة! وما أظنّها ادّخرت وسعًا فى قضاء مهمّتها، ولولا أن سيدة القصر حتمت عليها أن تعود، لبقيت فى قصر الخلافة ببغداد مع الأميرة الحسناء!

سكت الرجلان هنيهة، ثم قال هارون: وتزوركم أم آسية ولا تنساكم مع ما انتقلت إليه من جاه وسلطان.

فصاح أحمد: مهلًا يا أخى! فإن لها نفسًا شريفة، وخلقًا كريمًا، وقد جزاها الله أحسن الجزاء..

★ ★ ★

مبايعة هشام بن الحكم

طلب الحكم بن عبد الرحمن الناصر كتابًا من كتب التاريخ التى تزخر بها مكتبته، وعيّن صباح الغد موعدًا لقراءة الكتاب، فسارع وزيره الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، إلى إحضار الكتاب لساعته، ليتولى تقديمه إلى أمير المؤمنين صبيحة الغد، وتركه على مكتبه ليكون فى متناول يده وقت ما يريد، وقد فارق المكتب لبعض شئونه، فدخل غلام له لينظف مكان سيده، ولم يفطن إلى قارورة المداد، فأمالها عن غير قصد، فعلق الحبر بالصفحات الأولى من كتاب التاريخ، وجاء الوزير المصحفى، فرأى الكتاب على غير ما يودّ، فثار ثائره.

وهرع إليه كاتبه الخاص يعلمه أن شابًا بمجلس القضاء ذا خط جيد، ويمكنه أن يكتب الصفحتين الملطختين بالمداد، على نحو لا يختلف عن صفحات الكتاب الأخرى، ثم يجلّد الكتاب لوقته، ويصل إلى الخليفة فى زمانه الموعود.

طار الطلب إلى محمد بن أبى عامر فى مجلس القضاء، وكان شابًا فقيهًا وسيمًا ذا ذكاء وألمعيّة، فسارع بالحضور إلى مجلس الوزير المصحفى، وعرف ما يُراد منه، فأقبل على النسخ بترحيب وبشاشة فى وقت قريب، وحين تعجّب الوزير من سرعته، ناقشه فى أمره، فذكر أنه قرأ هذا الكتاب من قبل فى مكتبة مولانا أمير المؤمنين الحكم، وأنّه يعرف تواريخ الدّول، وأحداث الملوك، كما يعرف فروع الفقه وما يتطلبه

Looloo
www.dvd4arab.com

مجلس القضاء، فقال له المصحفى: لن تبرح مكانك فى مجلس الوزارة، وسنكون صاحب مشورتى، ولا ننكر أن ابن أبى عامر، بذل جهده فى استمالة المصحفى إلى مواهبه. فكان رهن إشارته فيما يريد، كما كان موضع مشورته الدقيقة فى أخص الأمور، وابن أبى عامر من وراء ذلك كله يدرك من شئون الدولة، ويعى من أسرار الخلافة، مالم يكن يتاح إليه فى مجلس القضاء، وكان طموحًا بعيد الآمال، فرأى فى التحبب إلى الوزير وسيلة أولى لتحقيق أمانيه، ومن ثَمَّ فقد جهد وتعب، ليكون موضع تقديره، دون سواه.

وحانت الفرصة الثانية، لتكون خطوة كبرى فى طريق مجده، إذ احتاجت سيدة القصر الملكة صبح، زوج الخليفة، وأم ولده، إلى إدارىّ حازم يشرف على أملاك ولدها الأمير ولى العهد، ويظلّ حاملًا مسئولية هذا العبْء أمام الخليفة وزوجته الملكة الشّابة، فرأى المصحفى أن يكون ابن أبى عامر مرشّحه الأول لهذا العمل الجديد، ظانًّا أنه سيكون عينه فى القصر، وسيرشده على مايخفى من أمره، وسرعان ما تقدّم ابن أبى عامر إلى الخليفة الحكم وزوجته صبح، ليريا رأيهما فى صلاحيته، فدهشت الملكة بما رأته من مظاهر الفتوة، وأمارات الرجولة فى ملامح المرشح المختار، وفضّلت أن يكون هو المشرف على أملاك ولدها، والقائم برعاية شئونه، وله أن يتسلم عمله من الآن.

لم يكن محمد بن أبى عامر غرًّا ساذجًا، كما اعتقد المصحفى، حين تقدّم به إلى القصر، واهمًا أنه سيصدر عن رأيه فى كل

ما يريد، ولكنه كان من الدهاء بحيث استطاع أن يوهم المصحفى أنه طوع إرادته، وأنه ما قبل هذا العبء الجديد إلا مرضاةً له، وكان يطلعه على أشياء يراها موضع اهتمام الوزير، على حين قد اجتهد كل الاجتهاد فى أن يكون موضع عطف الملكة، وقد لمس من نظراتها مايوحى بقبوله واصطفائه، فلابد أن يمدّ فى أسباب شغفها به، بما يظهر من اهتمام خاص بابنها الحبيب، وبها هى بالذات حين جعل يُرسل هداياه المتكررة إلى سيدته، وفيها من النفاسة المادية ما ينبئ عن ودّ قلبى تكنه السريرة، ولا يفصح عنه اللسان، وقد أهداها ذات مرّة قصرًا صغيرًا من الدرّ الخالص، له شرفاته وأبوابه، وبه مقاعده وأرائكه، فكان موضع دهشة من بالقصر جميعًا، وفيهم من يطول لسانه بالدقيق من القول، والخفى من التلميح، فسرى إلى سمع الخليفة بعض ما يقال عن هدية ابن أبى عامر، وأخذ يلقى بسمعه إلى مشابه مماثلة يشى بها من يريد أن تخلص الملكة من أشراك هذا الواغل المقتحم، وحار الخليفة فيما يهم به، فهو لم ير ما يؤكد الريب، وما زالت زوجته موضع تقديره، ومهوى فؤاده، وهو يعرف تمسكها بابن أبى عامر، ولا يقدر أن يقصيه دون عيب يظهر فى سلوكه، وقد اهتدى إلى أمر عاجل يفجأ به الشاب دون أن يترك له فرصة للاحتيال، فإن قصر الدر، الذى بعث به إلى الملكة، لابد أن يكون قد جار على أموال ولى العهد التى يقوم عليها، وإذن فليطالب ابن أبى عامر بكشف للحساب الفورى عما تحت يده، بحيث تسجل الأموال، وتحصر العقارات،

www.dvd4arab.com

وتحصى الخزائن، ليظهر ما قد تحيّفها من نقص، وأدرك ابن عامر بذكائه اللماح، أن الخليفة يبحث عن سبب جاد لإقصائه، فسارع إلى بعض خاصته مستكملًا كل نقص مالىّ، ثم تقدّم بالحساب إلى مولاه، واجتمع فريق التدقيق والتحقيق ليروا أن الرجل أمين مأمون، وأن أملاك الأمير تزيد ولا تنقص، وتدخلت الملكة فى الوقت الحرج، لتجابه الحكم بأنه يريد إقصاء الشاب دون جريرة، وأن الأمر يتعلق بها قبل أن يتعلق به، فإذا كان يتوهّم أن ألسنة الحاقدين تنال من إخلاصها له، فلها أن تعتزل من الآن، وستترك القصر غير راغبة فى سلطانه، أمّا إذا اعتزل هذا الشاب الشريف عمله دون مبرّر، فذلك ما يوحى بتصديق الأراجيف دون بيّنة، ولن تسكت عمّا يمس طهارتها! واستمع الخليفة المريض إلى ما قالته الزوجة مقرونًا بتقرير المحققين عن أموال الأمير، فلم ير فى الإشاعات الناهضة غير وشايات كاذبة نسجتها الأحقاد، وحاكتها الوساوس، فتقدّم إلى الملكة مستعطفًا، ودعا ابن أبى عامر فغمره بعطفه، وأكّد رضاه التام دون ارتياب، ثم أصدر أمره بأن تضاف إلى عمله إدارة الشرطة بقرطبة جميعها ونظارة المواريث، وهما عملان يجعلان الشاب الطامح شديد التدخل فى كلّ أمر يقع بالعاصمة، كما يخلقان له شيعة وأنصارًا يكونون عيونه قبل أن يكونوا عيون الخليفة! هكذا انقلبت النقمة إلى نعمة، وأصبحت الوشاية سبيل الارتقاء السريع!

خلا الحَكم إلى نفسه، فجعل يدير خواطره المتناقضة،

ويحلّل مشاعره، حين جعل ابن أبى عامر رئيسًا للشرطة، أهو حقًّا قد اطمأن إليه كما حاول أن يبدو أمام زوجته، أم أنّها لعبة سياسية ماكرة أراد بها باطنًا يخالف الظاهر، إن الأمن فى قرطبة مضطرب حقًّا، وإن عصابات اللصوص تهدّد المتاجر، وتهاجم المنازل الثرية فى سواد الليل، وقد عجز المتمرسون من رجال الشرطة السابقين عن استئصال هذا الإجرام الممتد، وفيهم من لقى حتفه بتدبير الأشرار من محترفى الإجرام، أفيستطيع ابن أبى عامر أن يقف أمام هؤلاء المتربصين بالآمنين وجهًا لوجه! لو استطاع ذلك لكان أحد رجال الدولة الأفذاذ، ولما كان المنصب المرموق فوق مقدرته، وإذا لم يستطع فسيواجه بالاغتيال كبعض سابقيه، أو بالعزل منى حين يبدو العذر واضحًا فى إخفاقه، فيغيب نهائيًا عن قرطبة، وتتهاوى آماله فوق رأسه كما تهاوت آمال الكثيرين ممن طمحوا للجاه والرياسة، فنصبوا الحبائل ودبّروا الفتن، ومضى الحَكم بخواطره، فجعل يتساءل: أليس فى إلهاء ابن أبى عامر بمعضلات الشرطة، ما يقطع زياراته المتتابعة للقصر، وما يجعلنى أمنع كل هاجسة تخطر ببالى فى لحظة من لحظات الضعف، هذا ما لا شك فيه، وقد آن أن أستريح.

ولم تجر الريح رخاء كما يود الخليفة الحَكم، فإن ولده عبد الرحمن وقد بايعه الناس بولاية العهد من بعده، قد مات بعد مرض لم يمهله! وابنه هشام صغير لم يبلغ سنّ الحلم، والملكة صبح دائمة البكاء على فلذة كبدها الراحل، وتود أن يعجّل الخليفة بأخذ البيعة لهشام! وكيف، وأخوه المغيرة

www.dvd4arab.com

ابن عبد الرحمن الناصرى، يرى فى نفسه أولى بالأمر من هذا الصبى الصغير، وما بايع عبد الرحمن أخاه إلّا مضطرًا، وفى حاشيته جماعة من الفقهاء، وقضاة الدولة، يرون إمارة المؤمنين أولى به، فهو ابن الناصر، وله عقل يتحمل المسئولية الكبرى، فماذا يصنع الخليفة إذا اصطدم بهؤلاء، ونفوذهم فى الدولة ذو سلطان، أيضطر ثانية إلى محاربتهم كما سبق أن فعل فى معركة المربض، ومن الذى يضمن أن يتم الأمر بنصره، وما نال النصر الأوّل إلّا بمجازفة واحتيال، ثم إنّ جراح المعركة السابقة لا تزال فاغرة تنزف بالدّماء، حلقات متصلة من الشجون، لا يهدأ معها بال الحَكَم، وهو طريح عليل، نهاه الأطباء ألا يفكر فى شىء يجلب عليه التوتر، لأن هياجه النفسى يدفع دماء قلبه إلى التجمد، أو الانفجار، وكلاهما موت محتم!

وقد أدركت الملكة ما يساور أمير المؤمنين من الهمّ البالغ، فعرضت عليه أن يعقد مجلسًا تحضره، على أن يكون به الوزير الحاجب جعفر المصحفى، ورئيس الشرطة ابن أبى عامر، ولابدّ أن ينتهوا إلى حلّ مريح، تتفق عليه الآراء، ويحقق ما يُرضى أمير المؤمنين.

وجاءت الدعوة العاجلة إلى جعفر المصحفى، وإلى ابن أبى عامر، ففهم كلٌّ على حدة المرمى المقصود، وأخذ يفكر فيما سيقوله، وكان ابن أبى عامر من الحذق بحيث استطاع أن يضم الوزير إلى رأيه، فقد عجل بزيارته قبل الاجتماع المنتظر، وأظهر له من عواطف المحبّة ما انخدع به الوزير

عن سلامة قلب، ولم يُبد رأيًا قبل أن يستمع رأى المصحفى ليريه أنه معه، وكان المصحفى لا يفكر إلا فى نفسه أوّلًا، فهو يرى فى انتقال البيعة إلى هشام الصغير بقاء لسلطانه، لأن الأمر سيكون فى يده، أما إذا تولّى شقيق الحَكَم، فلابد أن يختار من الوزراء من يتأكد من ولائهم، ولن يكون المصحفى أحد هؤلاء، هذا الذى فكّر فيه المصحفى وانتهى إلى أمر بشأنه، هو ما توقّعه ابن أبى عامر، إذ قرأ خواطر الرجل، وأدرك قرارها البعيد، عن خبرة نفسيّة بشخصيته وملابساته، وهو أيضًا ما يرتضيه ابن أبى عامر، ويسعى إلى تحقيقه، لأن وجود خليفة جديد غير هشام، سيقضى على سلطان الملكة، وهى ساعده الأيمن، كما سيدفع به إلى العراء مجردًا من كل سلطان، لأن لكل دولة رجالًا غير الرجال، وأعوانًا غير الأعوان، فما كاد المصحفى يبدى رأيه فى ضرورة أخذ البيعة لهشام، حتى قال ابن أبى عامر، إنّى لم أرجح اتجاهًا على اتجاه، ولكن مع سيدى جعفر المصحفى، فهو صاحب النعمة الأولى علىّ، وبإشارته تقربت من أمير المؤمنين، ولن أخذله فى أى اتجاه يريد! واطمأن المصحفى إلى أن رئيس الشرطة طوع بنانه يصدر عن أمره، فشكر له وفاءه وأصالته، وصاح به: هيّا إلى اجتماع القصر، فقد حان الميعاد.

كان أمير المؤمنين يرتقب الموعد على أحرّ من الجمر، فما إن قدم الرجلان حتى التأم الشمل، وظهرت أعراض المرض خطيرة فى وجه الخليفة الأثل، فقامت الملكة بعرض الأمر نيابة عنه، وقد أكدت وعدها فى بيعة هشام،

Looloo
www.dvd4arab.com

وتبادلت النظر الخفى مع ابن أبى عامر ، فقالت له ، وقال لها بلسان اللّحظ ، ولكن ابن أبى عامر كان مَن الحنكة بحيث أشار على المصحفى أن يبدأ ، فيفصح عما لديه ، واعتقد الوزير أنه يقدّمه على نفسه ، فبارك بيعة هشام ، ودعا إلى أن تكون فى المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة فى المشهد العام ، وأن يشير إليها خطيب المسجد منوّهًا فى خطبته . فإذا فرغت الصلاة قام جعفر المصحفى فأخذ البيعة من القضاة والولاة والفقهاء ، ومن أمراء البيت الحاكم ، بعد أن يشهدوا إجماع العلماء ، وسيعرف مَنْ خالف وَمَنْ وافق ، فيقابل كلٌّ بما يستحق !

قال ابن أبى عامر ، سأتصل بالقضاة والفقهاء منذ الآن ، وسأحضر الأعيان جميعًا إلى إدارة الشرطة وأبشّرهم ، وأنذرهم ، وسأعرف المريب من الصادق ، فإذا حان الموعد ، تكفّل رجالى بمنع من يهمّ بالشغب ، إذا عرفتُ فى وجوه بعضهم ما لا أحب . وسيمضى الأمر على وجهه المألوف دون حذر ، ولنا طاعة أمير المؤمنين ، وخدمة آل بيته ما يوجب أن نتفانى ، وأن نعدّ الأرواح رخيصة فى جنب استقرار الأمن ورعاية الحقوق !

بدا بشر الارتياح على وجه الخليفة المريض ، ورأى المصحفى دلائل الحيرة فى ملامح الملكة ، فشجّعها متحمّسًا وأسهب فى عبارات الاطمئنان ، أما ابن أبى عامر فلم ينطق بشىء ، سوى أنه عند السلام على الملكة ضغط على كفها ، فقال كلّ شىء ، وفهمت كل شىء !

خرج الوزير المصحفى مستريحًا ، وقد اعتقد أنّ الأمر قد

تم له قبل أن يتم لولىّ العهد ، ولم يكن لديه فى أمر البيعة المرتقبة ما يشغله ، إذ وُكل الأمر إلى ابن أبى عامر ، وقد تعهّد أن يمهد السبيل ، وهو أهل لما ينهض به .

أمّا ابن أبى عامر ، فقد اتجه من فوره إلى إدارة الشرطة ، واختار من أعوانه عشرين رجلًا ، جعلهم أرصادًا على منازل معينة ، من منازل علية القضاة والأمراء ، ثم دعا إلى مجلس خاص بكبار الفقهاء ، ومنهم قضاة قرطبة ، ليوافوه فى صباح الغد دون تأخير ، وقد توجسوا شرًّا من دعوة قائد الشرطة ، فهو حازم يرقب كلّ حركة ، ويعرف مصدر كل نبأة ، وقد يجتمعون فى منزل ، فتأتيه أنباؤهم ، وكأنه كان يحضر بينهم ، ثم هو قاضٍ سابق ، ورجل من رجال التشريع ، يجادلهم فيطيل الحوار ، وينتصر عليهم فى ميدانهم ، فهم منه إزاء جبل لا يرتقى ، وقمة لا تُنال .

وما أزف الموعد حتى وجدوا ابن أبى عامر يلبس ملبس القضاة فى استقبالهم ، وقد حدّد لكل فقيه مكانه ، ووضع اسمه وفق ترتيب يُراعى فيه السنّ والدرجة ، وللحراس من حوله هيبة لم تعهد لخليفة المسلمين نفسه ، فقال القاضى الزبيدى ـ وكان رئيسًا لابن أبى عامر فى مجلس القضاء من قبل ـ :

ما هذا يا قائد الشرطة ، أرجعت إلينا بعد أن فارقتنا ؟ وكيف ترجع ، وقد شغلت عن دروس الفقه والتشريع وتفرغت للسياسة والأمن ؟

فقال ابن أبى عامر باسمًا ، حفظ الله القاضى الزبيدى ، إنه يظن أنى تركت كتب الفقه والحديث ، فهو لا يدرى أننى مهما غرقت فى أعمال الدولة لا أنقطع يومًا عن دراسة العلم ، ولى

www.dvd4arab.com

ساعة معيّنة أقضيها فى هدوء الليل، مستمعًا إلى آراء أعيان المذهب، ثم إلى آراء مخالفيه ! لقد حضرنا اليوم للحديث عن بيعة ولى العهد (هشام) ابن أمير المؤمنين ؟

فتغيّرت الملامح ؟ وصاح القاضى ابن ذكوان ؛ وهل البيعة من شأنك يا ابن أبى عامر ؟ فابتسم الرجل ملاطفًا ؟ وقال: يا ابن ذكوان، إن كرامة العلماء عندى بالمحل الأوّل، وقد شئت أن تكونوا أصحاب الأمر، قبل أن يفرض عليكم فرضًا، فهل أخطأت أم أصبت ؟

قال ابن ذكوان: إن هشامًا صبى صغير، فكيف نبايعه ؟

فقال ابن أبى عامر: وقد كان الأمير عبد الرحمن صبيًا صغيرًا، وقد بايعته يا ابن ذكوان، وكنت شيخ القضاة فى مجلس المبايعة فما الفرق إذن بين أخ وأخيه !

قال ابن ذكوان: كنت مضطرًا لأن أمير المؤمنين الحكم كان منحرفًا عنى منذ خرجت عليه فى فتنة الربض فحاولت أن أستل سخيمته !

فالتفت ابن أبى عامر إلى القاضى الزبيدى وسأله: ماذا تقول فى كلام ابن ذكوان؟ وهو يقرّر أنه يبايع للاسترضاء لا لإحقاق الحقّ! وعندى خطابات وجهها بنفسه إلى أمير المؤمنين يعلن فيها أن عبد الرحمن سيعيد مسيرة جده عبد الرحمن الناصرى، وأنه رأى له منامًا مبشّرًا، وكان متوضئًا قبل أن ينام !

فالتفت القضاة بعضهم إلى بعض، وسأل الزبيدى ابن

ذكوان ؟ متى كتبت خطابك لأمير المؤمنين، وأنت فى أحاديثك الخاصة تحرضنا عليه، أتريد أن يخلو لك منصب قاضى القضاة ! حين توغر صدورنا فنبتعد ثم تقترب أنت !

قال ابن ذكوان، لا ابتعاد ولا اقتراب، لقد رجعتُ عن مخالفتى، وأنا أبايع سيدنا هشام بن الحكم خلفًا لأبيه، فانتهز ابن أبى عامر تراجع ابن ذكوان، وقال: يا قوم: لقد عرفتم شرور الفتنة، وقد اطمأن مولانا أمير المؤمنين إلى طاعتكم، ففيم الخلاف ؟

قال الزبيدى: إذا بايع شيخنا ابن ذكوان، فكلنا من ورائه، فصاح ابن أبى عامر: على بركة الله، وسيكون ابن ذكوان خطيب الجمعة فى المسجد الجامع، وعلى يديه تتم البيعة، فهو أكبر الحاضرين سنًا، وأنا أحفظ له مقامًا لن ينساه أمير المؤمنين !

فقال المجتمعون فى ابتسام. أجل لن ينساه أمير المؤمنين.

فانفرج وجه ابن أبى عامر بالبشر وصفق، فجاءه حارس الشرطة، فقال له، أحضر الكُسى الجديدة للقضاة، حيث يرتدونها فى مجلس البيعة، وقد تكرّم بها أمير المؤمنين.

فقال ابن ذكوان، وهل سيحضر مولانا الحكم، ليشهد بيعة ولده هشام ؟

فرد ابن أبى عامر، أود أن تسعفه صحته، لأن أكبر أمانيه أن يشهد حفل البيعة، وإذا لم يتيسّر ذلك فسيدوّن كاتبا المجلس كل ما يقال، وسيرفع إليه فى قصر الخلافة، وما إخاله إلا

Loolob
www.dvd4arab.com

منتهزًا هذه السانحة ليغدق على العلية والرعية بعض هباته، وهو بها جودا معطاء ! ولعل الوزير المصحفى قد فرغ اليوم من تدوين الأسماء ! فعلى بركة الله، وبعونه الكريم، ثم نهض واقفًا، ليسلّم على القضاة والعلماء فى بشاشة، وله فى كل وجه نظرة، ومع كلّ مصافح إشارة يفهمها كما يريد ..

وماكاد القوم ينصرفون حتى عجل ابن عامر باستدعاء الصف الأول من رجال الشرطة، وناط بهم مراقبة العلماء والأمراء معًا، وإخباره الفوريّ بكل ما يحدث من اتّصال، ليكون الرأى جميعًا دون نشاز، ولم يفته أن يكتب خطابين، أحدهما لأمير المؤمنين، وثانيهما للوزير المصحفى، ينبئهما أن الرأى قد اجتمع على المبايعة وسيقوم بها القاضى ابن ذكوان فى المسجد الجامع بعد يومين، وأن عينه متيقظة لكلّ نأمة، وجنوده من حوله يرون ويرصدون !

وتلا أمير المؤمنين خطاب ابن أبى عامر، فأتلق وجهه، وصاح بالملكة ! لقد كسبت الرجل بعد أن كدت أخسر معونته، فقالت الملكة : كنت حريصة على أن يبقى عمادًا للخلافة، إذ لاصلة بغير أمير المؤمنين، وقد ناصبه أعداء الخلافة البغضاء، فلم يجابه إعصارًا بإعصار، ولكنه طامن واتّأد، ثم غمرهم ببره، وإنعامه، على حذر من غدْر الغادر، وتدبير المتآمر، حتى التأمت الجراح بمسعاه، ولنا فيه منذ اليوم سند وطيد ..

جرت الأمور على ما دبر ابن أبى عامر، فتمت البيعة، وسكتت الألسنة، وتأكد لقصر الخلافة أن قائد الشرطة هو رجل القصر، فأخذ يجلس مجلس المستشار من الخليفة، وتراجع دور المصحفى وإن بقى له المنصب، حيث كان يفاجأ

بتعيين أناس من أتباع ابن أبى عامر دون أن يرجع إليه، ونظر فوجد الأمور تتجمع شيئًا فشيئًا فى قبضته، على حين يسير نحو الاعتزال وكأنه يسعى إلى طرد متوقّع !

ومات الحكم، فتربّص الصقالبة من حرس القصر بهشام، ولم يروا أنْ يأخذ مكان أبيه، وسارعوا بدعوة عمه على كُرْهٍ منه كى يتبوأ المنصب المرموق، إذ رأوا فى سيطرة الملكة وبقاء هشام ما يزيد من سطوة ابن أبى عامر، ولكنّ عين الشرطة الحازمة قد أخذت الطريق على المتآمرين، فبادر ابن أبى عامر بمحاربة الحرس مستعينًا بجنود الشرطة، ومن التف حوله من جنود الدولة، وكانت موقعة حمراء انتهت باستئصال المتآمرين، وتسنّم هشام عرش أبيه، ولم يفت الملكة أن تقدّر للرجل إخلاصه المتفانى فى الساعة الفاصلة، فأصدرت أمرها بتوقيع ولدها الخليفة بتعيين ابن أبى عامر وزيرًا للقصر وحاجبًا للخلافة ! مع رئاسة الشرطة، وتدبير أمر الجيش، ولم يفاجأ أحد بهذا الارتقاء السريع ؛ لأنّ الرجل قد أنقذ الأسرة الحاكمة، ولولا وقفته الباسلة لأصبحت فى الصف الثانى بين عامة الأمراء، هؤلاء الذين يأكلون ويشربون وينامون دون أن يصنعوا شيئًا ! وقد اغتاظ المصحفى حين وجد نفسه يحمل لقب الوزير والحاجب، ولا شىء فى يده، فتآمر ودبّر، ولكنّ الأعوان قد سايروا الريح فى اتجاهها فوشوا به إلى حيث انحدر إلى مهواه ! وأصبح الملك المنصور محمد بن أبى عامر رجل الدولة، وحاكمها الفعلى، تاركًا لهشام لقبه الرسمىّ، وأهون به،

Looloo
www.dvd4arab.com

إذ كان سليب الأمر والنهى، لا يجتمع مع غير الجوارى والغلمان !

فهكذا أراد الملك المنصور، وهكذا عمل على أن يكون سيد البلاد ! وإنصافًا للرجل نذكر أنه أعاد جلال الدولة وكسر شوكة المتربّصين من الفرنجة، إذ أكثر من الغزو، فأطار النوم من عيون الأعداء، وقمع من تحدثه نفسه بمناوءة البلاد ! وكان دائمًا فى طليعة الجيش لا يترك أمر القيادة لأحد، وحين خوطب فى أن يخلد إلى الراحة بعض الوقت، صاح بأن الحياة رسالة وليست متاعًا ! وإنه ليسأم الراحة فى ظلال الدعة، ويجدها متاع الخاملين، ولذة الضعفاء. أما الدفع والجذب، أمّا الكر والفرّ، أمّا الانتقال من نصر إلى نصر فضريبته مفروضة على الرءوس، وعبء فادح على الذيول !

وكم جلس الملك المنصور فى محافل النّصر، تساق بين يديه الأسرى، وتمر عن جانبيه الغنائم والأنفال، وهو يبتسم سعيدًا طروبًا، ثم يدعو جنوده ليأخذ كلّ ما يريد، مترحمًا على من استشهد ذاكرًا أسرته بسابغ عطفه، وجزيل برّه ! حتى أصبحت الأندلس لعهده غيل أسد، وحومة أبطال..

هذا عن البطل الغازى، أمّا الملكة الأرمل فقد هالها أن ينهمك المنصور فى شئون الدولة دون أن يلتفت إلى حق القصر، وما ارتقى إلى الأوج إلّا بمسعاة الملكة، فهل كانت سلّمًا يبلغ به موضع الشمس، حتى إذا ائتلق فى الأفق كالكوكب، أزاح السلم وأقصاه، ثم ما هذه الأنباء التى توافدت على سمعها، فأبلغتها أنه خطب أسماء ابنة القائد المظفر غالب دون أن يستشيرها فى شىء، إنّها تستمع إلى

أعماقها الصارخة فتجد الرجل خائنًا لا يرعى عهدًا، ولا يفى بذمام، ثم تجلس إلى جاريتها لتفضى لها بما يتأجج فى صدرها من لهيب فتجدها تصدّق ما تقول، ولا تحاول معارضتها فى شىء ! فتسألها : أترسلها إليه تستدعيه كعهدها من قبل ؟ فتبتسم الجارية، وتطأطئ رأسها، فتصيح بها لماذا تسكتين ؟ فتجمع الجارية حزمها لتقول فى هدوء مستكين، مولاتى : كان ابن عامر يُسرع إلى نقائك حين كان فى حاجة إلى عونك، وأخشى أن أذهب لاستدعائه، فيتعاظم ولا يأتى، وإذ ذاك لا نملك ما نؤدبه به، فالأحرى أن ننتظر، قالت الملكة : وإلى متى؟ فردت جاريتها ؟ أخشى أن نصدم بما لا نستطيع دفعه ؟ فتطردها من مجلسها وتقول، حتى أنت ! عليك اللّعنة .

ثم تخلو إلى نفسها، فتعتزم أمرًا !! تعتزم أن تزوره فى مكان سلطانه مفاجأة دون إنذار، وسترى العاقبة، وإذا تشامخ فستذكره بأنها رفعته من الحضيض، وهى حقيقة لا يستطيع إنكارها !

وفوجئ المنصور بمن تدخل عليه قصر الحكم فى خاصته وأتباعه، وهذا ما لم يتوقعه بحال، فنهض واقفًا، وأبدى من آيات الإجلال والإعظام ما لم تكن تحسب، ثم أمر فانصرف الحاضرون، ليقول لها فى أدب :

مليكتى، لم لمْ تأمرى باستدعائى، فأهرع إليك كما تعوّدت ! أيبلغ بى الأمر أن أرهقك بالمسير إلى من أنت صاحبة نعمته، ووليّة أمره ! هذا كثير !

فقالت الملكة : أريد أن تناقشنى وأناقشك فى صراحة

www.dvd4arab.com

تامة : فقال المنصور : لا أسمح لأحد أن يناقشك ، ولو كان سيدى الحكم رحمه الله ، فكيف أسمح لنفسى ؟

قالت ، وفيم احتجابك عن زيارة القصر كما تعوّدت ! بل فيم إحاطته بالعيون والأرصاد لتحسب خطواتى وخطوات أمير المؤمنين هشام بن الحكم !

قال المنصور أما احتجابى عن القصر فلأقطع ألسنة من يرجفون بالباطل ، ولو كان الأمر يقتصر علىّ وحدى ما اهتممت ، ولكنه يشملك أنت ، وواجبى أن أحافظ على سيرتك ، وارتفع بها فوق لغو الموتورين ، أمّا أنى أحيط القصر بالعيون والأرصاد ، فلو صحّ ذلك نعلمت بمقدمك قبل أن أشرف بلقائك الآن ، ولكنّى فوجئت ، فأين عيونى كما تتوهمين ؟

قالت الملكة ، أجروُ فأسألك ، لماذا اخترت أسماء بنت غالب زوجة لك ، وهى ابنة عدوّك ومنافسك ! ألتتعاونا معًا على أمير المؤمنين ؟

قال المنصور مصطنعًا الدهشة ! ألختار بنت غالب ، لأتعاون معه على أمير المؤمنين؟ يا مليكتى إن غالبًا كان يضمر الشرّ لى وللخلافة معًا ، فقلت فى نفسى لابدّ أن تستميله بأن تعقد صهرًا بينك وبينه ، حتى لا يتهوّر فى حرب معى ، يكون المسلمون وقودها المشتعل ، وحينئذ نفرغ معًا لحرب الفرنجة ، أو على الأقل أفرغ أنا ، وظهرى غير معرض للطعن من الخلف ، وقد وجدت ابنته أسماء ذات إخلاص ووفاء ، فعاملتها أطيب معاملة ، لتكون رسولى إلى والدها ، فلا تتحرك أفاعيه .

أطرقت الملكة إلى الأرض قليلًا ، ثم قالت : وهل أخبرتنى بقرانك قبل عقده ، وهو أهون ما كنت أنتظر ، أم أنك حرصت على أن تفاجئنى به ؟!

فأدرك المنصور ما تموج به أعماقها من شجون ! فأخرج من جيبه مصحفًا صغيرًا ، وقال لها : أتصدّقيننى حين أحلف بهذا الكتاب العزيز ! علم الله أنى سارعت بالزواج من أجلك أنت ، فإن ألسنة السوء قد سارت بحديث الإفك ، وقيل عنك ، ملكة شابة جميلة أرملة ، ووزير شاب وسيم عزب لا زوجة له ، يجتمعان فى القصر متى يشاءان ! سمعت ذلك فأجبرت نفسى على الزواج لأخرس لغة البهتان ، وأقول لك مرّة ثانية لم يكن هذا من أجلى ، بل كان من أجلك أنت !

فطفرت من عين الملكة دمعة حاولت أن تمنعها فلم تستطع ، ورأى المنصور صورة الدمع فى محجريها ، فأطرق إلى الأرض خجلًا مستخذيًا .. وأدركت حرج الموقف ، فأرادت أن تنتقل إلى موضع آخر فقالت : ولماذا تمنع أمير المؤمنين أن يتّصل بالناس ، وتجبره أن يخرج متنكّرًا ...

فقال المنصور ، اكتشفت عدة مؤامرات لاغتياله من أهل الربض ، انتقامًا لمن أهلكهم سيدى الحكم ، وقمت بعقاب المتآمرين ، ورأيت من الاحتياط أن يحتَجب أمير المؤمنين ، لأنى أشد حرصًا عليه من نفسى ، إذ أنى يده التى يبطش بها ، ومصيرى معقود بمصيره !

فرفعت الملكة رأسها متحيّرة ، وقالت : تغلبنى دائمًا

Loolo www.dvd4arab.com

بحديثك يا ابن أبى عامر ، تغلبنى دائمًا لأنك تعرف أن قلبى ليس معى .

فهمس المنصور قائلًا فى رقة : قلبى وقلبك فى مكان واحد ، ولا خوف عليهما إلّا إذا افترقا ، ولن يكون ذلك منى !

ونهضت الملكة فنهض المنصور يودّعها ، وكأنه يهم بالسجود !

وماكاد يخلو إلى نفسه ، حتى جاءه حاجبه يقول ، قضاة المدينة بالقصر يريدون لقاءك ! فقال المنصور : قضاة قرطبة ! قل لهم إن الموعد غدًا ، فما يجوز أن أتكدر بعد لحظات الصفاء !

(إلى فردوس الأندلس)

- ١ -

جلس أبو العلاء صاعد بن الحسن إلى أستاذه أبى على الفارسى وعلى وجهه علامات الحزن ، وأبو على يعرف فى تلميذه بشاشة المحضر ، ولطف النادرة ، كما يقدّر مكانته فى اللّغة والأدب ، ويراه مع إمعانه فى الغريب النادر من كتب اللّغة شاعرًا ذا بديهة ، وقلّ أن يجتمع الشعر الرقيق بعالم لغوىّ يحفظ الغريب الوحشىّ ، ويتألف أوابد الكلمات ، فلم يشأ أبو علىّ أنْ يتغافل عن إحساسه نحو صديقه وتلميذه ، وقال له فى ملاطفة :

إيه يا أبا العلاء ؟ مالى أراك على غير عهدك حزينًا كاسف البال ؟ فسكت صاعد دون أن يجيب ، فصاح به أستاذه : إنك لتعانى همًّا دخيلًا ، ولابدّ أن أقف عليه ، فقال صاعد فى ألم :

سيّدى .. لقد ضاقت علىّ منافذ الرزق ببغداد ، وما تركت الموصل إلا طامعًا فى رفاهية العيش ، ونعيم الحياة ، وقد لزمت الأعراب فى البادية سنوات عدة حتى جمعت ما لديهم مما لم ينفق لأحد ، وعكفت على دواوين الشعراء ، حتّى ألممت بالدفين المستتر مما لا يعرفه الخاصة بل العامة ، وهأنذا أتحسّس موضعى ببغداد فأجده ، خشن المضجع ، مليئًا بالشوك ، وكأنى أتقلّب على الإبر فما أهنأ بمنام !

Looloo
www.dvd4arab.com

قال أبو على: ألست تجد من الأجناس الموقوفة على طلاب المسجد، ورجال الحلقة ما يشبع جوعتك، ويكسو جسمك ويروى غلتك، ففيم الملام ؟

فزفر صاعد زفرة حارّة ! وقال كنت أجد ما يشبع جوعتى فى الموصل، وما جئت بغداد، إلّا لأنعم بالقصور وأتصدّر المجالس، وأسحب ذيول الرخاء ! كيف لى بالصدارة فى بلد حافل بكبار العلماء بأبى على الفارسىّ وبعلى بن عيسى الربعى، وبأبى الفتح بن جنىّ، وبالخطابىّ وصفوة الأماثل من الفضلاء !

فوجئ أبو على الفارسى بما قاله تلميذه، وكان يعتقد أنه يطلب اللّغة والأدب لذاتهما، أمّا أن يكونا باب الرفاهيّة والترف، فهذا ما غاب عنه، ولم يشأ أن يلومه، فهو أدرى بتطلّعات النفس الطامحة، وأعلم بم يشتعلُ فى صدور الشباب من آمال، ففكر قليلًا ثم قال فى تؤدة :

أبا العلاء، أتعرف شيئًا من أمر أبى على القالى ؟ فصاح صاعد : ومن ذا لا يعرف أبا على القالى صاحب البارع، ومؤلف الأمالى، وعالم الأندلس !

فضحك أبو على، وقال : عالم الأندلس ! لقد قلتها يا صاعد، كان أبو على ببغداد هنا على مثل حالك، وكان يهتم بالصدارة فيعوقه شيوخه الكبار ممّن ذاع صيتهم العلمى من قبله، فرأى أن يترك المشرق ومن فيه، ثم رحل إلى الأندلس، فكان أكبر رأس فى اللغة والأدب، وقد اجتباه الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر، ورفع مكانته فى القوم

وله جمع كتاب الأمالى، بعد أن ألقاه دروسًا فى مسجدى قرطبة والزهراء فإذا كنت ذا همّة كهمة أبى علىّ فهيّا !

لمعت عينا صاعد، كمن بوغت بأمر مفاجئ، ولكن السرور لم يلبث أن سطع فى وجهه، وقال لأبى على ؟ وهل ترى أن لدىّ من العلم ما يرفعنى إلى منزلة أبى علىّ.

فتبسّم أبو على الفارسى وقال، ما حدثُ عن الحق فى شهادة علميّة، أبو علىّ القالى صاحب رواية ولغة يقف علمه عندهما، وأنت تعرف اللغة والرواية وتزيد عليه نظم الشعر الفائق، وقوة البديهة الحاضرة، فلئن وفقك الله إلى الرحيل فستبلغ مكانة القالى، بل ستزيد عليه، إذ تعرف بمدائحك الشعرية كيف تصل إلى منافذ القلوب؟ وستستر ضعف أبى على !

قال صاعد : أأستر ضعف أبى على ؟ كيف هذا ؟

فصاح أبو على الفارسى : أتعقل أم تتغافل؟ كلّنا يعلم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، قد احتفل بمقدم ملك الروم، وصاحب قسطنطينيّة بقصر الزهراء، وجمع الحشود من أعلام الدولة ووزراء الخلافة، وشيوخ الأدب والعلم هناك، ثم طلب من أبى على القالى أن يلقى خطبة الاستقبال، فصعد مضطربًا، وما نطق بشىء، لولا أن تدارك الموقف المنذر بن سعيد قاضى القضاة فشفى وكفى! فلو كنت مكانه فى هذا اليوم، أفما ستنثر اللآلئ يا صاعد !

فتألّق وجه أبى العلاء، وقال إن كلمة الاستقبال ليست

Looloo
www.dvd4arab.com

معجزة، وإنما هى قول يذاع؟ واقترح ما تشاء علىَّ الآن من فنون الخطب، لترى ما يرضيك!

فقال أبو على: لم أقترح عليك الذهاب إلى الأندلس، إلَّا وأنا أقدر ما حباك الله به من هبات علمية وملكات أدبيَّة لا تقف عند حد؟ وهناك شىء آخر أعلم أنه سيذلّل لك الطريق.

فتعجّل صاعد يقول: أى شىء؟ بربّك أسعفنى بما، لديك فقد فتحت أمامى طريقًا أرجو أن يعود علىَّ بما أشتهيه!

فقال أبو على الفارسى: إن صاحب الأمر فى الأندلس اليوم هو المنصور بن أبى عامر؟ وقد حاول أن يتشبه بالناصر فى احتفائه بالأدباء، والتفافه بالعلماء، لترسخ مكانته فى القلوب، ولشعرائه المادحين حظوة لديه لا تفوقها حظوة قائد أو وزير، فإذا علم بمقدمك. وقدمت فى مجلسه ما ينبئ عن براعتك، فلك الجزاء الأوفى والصدارة الأكيدة، أما تعرف قصة ابن أبى عامر مع الشاعر الرمادى؟

انتبه أبو العلاء بكل قواه، وهو يقول لأستاذه، لم يصلنى شىء عن الشاعر الرمادى، ولا أدرى قصته مع صاحب الأندلس ابن أبى عامر؟ فهل تتفضل علىَّ بسردها!

قال أبو على، على الخبير سقطت فاسمع:

جلس المنصور بن أبى عامر يومًا مع حاشيته من أهل السياسة والأدب، فقال لشاعره أبى يوسف الرمادى: كيف ترى حالك معى يا أبا يوسف؟ فتعجَّل الشاعر قائلًا: فوق قدرى، ودون قدرك، فأطرق المنصور كالغضبان، فانسلَّ

الرمادى متحيّرًا، وندم على ما قال، متوهِّمًا أن المنصور سيناله بقوارص العقاب، وجعل يقول فى نفسه، لقد ضيّعت كل مدائحى، وما عرفت أن الحقَّ يضيع عند الملوك إذا لم يوافق أهواءهم؟ أنا فريسة الانتقام.

ولما خرج الرمادى فى أسفه الهالع، تبرع أحد الحاضرين، فقال موجّهًا حديثه للمنصور: وصل الله لمولانا الظفر والسعد، إن هذا الصنف من الناس صنف زور وبهتان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون ذمة، كلابٌ من غلب، وأصحاب مَن أخصب، وأعداء من أجدب، وحسبك أن يقول الله فيهم «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون» والابتعاد منهم أولى من الاقتراب، وما ظنك بقوم يستحسن منهم الكذب ولا يؤاخذون به فى شىء!

فرفع المنصور رأسه، وقد اسود وجهه، وظهرت عليه علائم الغضب المفرط، ثم قال: ما بال أقوام يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون؛ أيرضى أم يسخط؟ وأنت أيها المنبعث للشر، دون أن يبعث، قد علمنا سوء نيتك فى أهل الأدب عامة، وفى الشاعر الرمادى خاصة، ولسنا نبلغك الغرض فى أحد، فقد ضربت فى حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، وإنى ما سكت عند قول الرمادى إنكارًا عليه، بل وجدتُ له كلامًا يجلّ عن الأقدار الجليلة، وتعجبْت كيف فاه به على البديهة، وإياكم أن يعود أحدكم إلى الكلام فى شخص قبل أن أطلب منه الرأى، فلا تحكموا فى أوليائنا، ولو أبصرتم منا ما يدل على التغيّر، فإنا لا نتغيّر بغضًا وانحرافًا، بل تأديبًا

Looloo www.dvd4arab.com

وإنكارًا، ومن نريد إبعاده رميناه وطرحناه، ووالله لو سمعت كلام أحدكم فى الآخر، لتفرقتم أيدى سبأ، وجونبت أنا مجانبة الأجرب، وهاأنتم قد عرفتم جليّة أمرى، ثم أمر باستدعاء الرمادى، وقال له: أعد كلامك، فارتاع وجزع، فقال له: الأمر على خلاف ما قدّرت فثوابك أولى من عقابك، وأمر له بمال جزيل، وخلع عليه أحسن الخلع، ثم اتجه إلى من تكلّم فى شأن الشعراء، فقال: والعجب من قوم يقولون: الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب، نعم، لمن ذلك ليس له مفخرة يريد تخليدها، ولا أيادٍ يرغب فى نشرها فأين الذى قيل فيه.

إنما الدنيا أبو دلف بين مبداهُ ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

أما كان فى الدنيا أحسن من أبى دلف، ولكن شاعره خلّد له ذكرًا وأبقى له ثناء يتردد على الأحقاب!.

سكت أبو على، فرأى وجه أبى العلاء صاعد يتّقد حماسة كالجمرة المشتعلة، ونهض ليقبّل يد أستاذه، ويقول له: جزاك الله خيرًا، ومثلى لن يضيع عند المنصور بن أبى عامر، وقد عشق الأدب، وفهم رسالة الشعر، فى إحياء المآثر، وتدوين المكرمات، لن أتقاعس منذ اليوم، وسأرحل إلى الأندلس من الغد، فليس لدى زوجة تخدعنى وتثبطنى، ولا أولاد أخشى عليهم نوائب الأيام، ولا أم ولا أب، أنا غريب فى بغداد، فلأكن غريبًا فى الأندلس! وقد يكون ما هنا دون ما هناك!

خف صاعد إلى قرطبة. وتقدم إلى مجلس المنصور، وأنشده بعض ما هيأ لهذا المقام من مديح، وكان بالمجلس

شعراء المنصور وأدباء العاصمة، وشيوخ حلقاتها العلميّة، فرأوا من إقبال المنصور وحسن احتفائه بالزائر الجديد ما أوقد قلوبهم غيظًا، وعرف الشعراء أن غريبًا وافدًا يوشك أن يزيحهم عن مكان الصدارة، كما عرف شيوخ الأدب والعلم أن الوافد القادم لم يكن حسن التأتى للأمور، فقد أهمل الاتصال بهم، وأظهر من الغرور فى حضرة المنصور ما يدل على خفّة وطيش، ولئن تمكن من قلب الحاجب المنصور، مع ما يظهر من غروره المتعالى ليكونن أداة قطع لا قنطرة وصل، ثم إن المنصور قال له فى أول مجلس عرفه به، إنه يأمل أن يؤلف كتابًا فى اللغة والأدب يكون نظيرًا لكتاب الأمالى الذى ألفه أبو على القالى من قبل للخليفة الناصر، حتى يشيع عن الحاجب ما شاع عن الخليفة من حب للعلم والعلماء، ومن كتب صدرت عن توجيهه وانتشرت برعايته وتأييده! على أن الفرق فى نظر هؤلاء بين القالى وصاعد بعيد جد بعيد، فأبو على القالى شيخ متواضع لا يكاد يفارق مجلسه العلمى فى مسجدى قرطبة والزهراء إلّا إلى منزله، فإذا زاره أحد من أهل الأندلس فهم طلّاب العلم وتلاميذ الحلقة، ولم يُشهد القالى فى قصر الخلافة إلّا فى محفل رسمىّ، دُعى له بالاسم، وحدّد له فيه المكان، فيجئ على ثقل واستكراه، وكأنه يحمل عبئًا ثقيلًا يود الخلاص منه، أمّا صاعد فكل همّه أن يلازم المنصور وأن يكون مع حاشيته، ولولا الخوف من زجره لآثر أن يبيت بقصر الحاجب مع خاصة خاصته، فكيف يبصر أدباء قرطبة وشعراؤها على نزق هذا الضيف الثقيل، لقد أذاعوا عنه أنه غير بصير بمسائل النحو واللغة، والحق

www.dvd4arab.com

أن صاعدًا كان إلى الأدب أقرب منه إلى العلم، ولكنه يدّعى التفوق فى كل فن، فإذا نوقش، وضيّق عليه الخناق افترى وكذب! وله ادعاءات عريضة لا تروج على المتخصص الدارس إذا راجت على المنصور الحاجب، وقد أكثر هؤلاء من تزييف بهرجه، ووصموه بالكذب والافتراء، ولكنهم رأوا المنصور يعجب بأمداحه الشعرية، أفتكون هذه أيضًا منتحلة! لقد تجرءوا على ذلك، وحاولوا أن يقنعوا المنصور أن الشرقى الوافد يحفظ من آثار المشارقة وفيهم مئات الشعراء ممن لم تبلغ قصائدهم أهل الأندلس، يحفظ من آثار هؤلاء ما ينسبه إلى نفسه، دون أن يجد من يجبه بالادّعاء، والمنصور حائر فيما يقال، يسمع المديح من صاعد فيترنّح عجبًا، ثم يضايقه أنْ يكون ما سمع مما قيل فى سواه من عظماء الشرق، وانتحله صاعد انتحالًا؟ أين الدليل الراجح، وأين شعاع ينير فى غياهب الشك ليجلو الحقيقة للعيان!

لقد فرح خصوم صاعد حين جعلوا المنصور يتردّد فى أمر الشاعر بين الشك واليقين، فهو إذن قد فارق منطقة الاعتقاد الجازم، وعليهم أن يصطنعوا الحيلة الماكرة، ليجعلوا الشك يقينًا، والتردد ثباتًا وفيهم من يقدر على الاحتيال، وما أشدّ ضرام الحاقدين يلتهب بين جوانحه، فيضطره إلى الكيد دون اتئاد.

كان ابن العريف أحد هؤلاء الحقدة الملتهبين، وقد أمكنته الفرصة، فقام بمكيدة تثبت ادعاء صاعد إذا صحت وقائعها وطبيعى أن يتقن حبكها بحيث تنطلى على المنصور، ومن

حديثها أن ابن أبى عامر جلس فى صدر إيوانه، وحوله حواريوه من الوجهاء والشعراء، فأهديت إليه وردة فى غير وقتها، وكانت براعمها مغلقة لم تتفتح بعد، فقال صاعد على البديهة حين رأى إعجاب المنصور بالوردة الغضّة.

أتتك أبا عامر وردة ... تذكّرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطّت بأكمامها رأسها

فسرّ المنصور، ومدح صاعدًا فأطال، واشتعل قلب ابن العريف بالغيظ، فدنا من المنصور، وقال: هذان البيتان مشتهران بالمشرق، وقد سمعتهما من بعض البغداديين حين كنت بمصر، وهما عندى ظهر كتابٍ بخطّه، فقال المنصور أرنى كتابك ولا تبطئ!

فخرج ابن العريف مسرعًا، وحرّك دابته لتجرى أوسع ما يكون الجرى حتى أتى مجلس الشاعر ابن بدر، وكان أحسن أهل زمانه، سرعةَ بديهةٍ، وحسن انتباه، فوصف له ما جرى، وطلب منه أن يقول أبياتًا يدس فيها هذين البيتين، وكان ابن بدر ممن يحمل الحقد الصاعد، ويراه قد سلب مكانه لدى المنصور، إذ لا يقل عنه سرعة ارتجال، ولطف حاضرة، فصادف مطلب ابن العريف قبولًا من نفسه، وصنع على الفور هذه الأبيات

غدوتُ إلى قصر عباسة ... وقد جدّل النوم حرّاسها
فألفيتها وهى فى خدرها ... وقد صرّع السكر أُناسها
وقالت أسارٍ على هجعة ... فقلتُ، بلى، فرمت كاسها
ومدّت يديها إلى وردة ... يحاكى لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطّت بأكمامها رأسها

Looloo
www.dvd4arab.com

فسار ابن العريف بها، وعلّقها على ظهر كتاب بخطّ مصريّ، ومدادٍ أشقر، ودخل بها على المنصور بعد أن تفرق الجمع فاشتد به الغيظ، وعزم على أن ينتقم؟ ولكن كيف!

لقد علم صاعد بما كان! فاستنجد بدهيته ليكشف الاحتيال، وحاول أن يتصل بابن أبى عامر، فلم يأت له الإذن، فقال لبعض أصدقائه من رجال القصر، أبلغوا الملك الحاجب أن الحديث مفتعل، فمن العباسة هذه؟ ومن قائل الأبيات؟ إن التاريخ لا يعرف غير العباسة أخت الرشيد، وهل يعقل أن يزورها شاعر لا يُعرف اسمه فيقول عنها ما يكشف أمرها للناس، ثم هى تقبل أن يزورها فى قصر الخلافة، فتهدى إليه وردةً، وكأنها تداعب حبيبًا فى مجلس أنس! هذا مما يستحيل أن يحدث، وعلى ابن العريف أين يقول لنا مَن العَبَّاسة؟ ومن شاعرها الحبيب إذا استطاع!

وبلغت الشكوى المتظلّمة أذن المنصور، وليس من السهل لدى المنصور أن ينزع الشكّ باحتمالات تتردّد، فلابد من اليقين الجازم، ولن يكون إلا بامتحان الشاعر فى مجلس حاشد، حين يُعدّ له منظرًا لم يُعرف من قبل، ثم يُطلب منه أن يصفه على البديهة وحينئذ لا يستطيع أن يستعين بشعر محفوظ، لأن المشهد طريف غير مألوف! لقد فكر المنصور فى صنع طبق واسع الصفحة غطّته قطعة شفيفة من أوراق الزهر، لتظهر ما تحتها، ومن فوقها دمى من زهر الياسمين كأنها الجوارى، ومن تحتها بركة ماء ألقى فيها الدر مثل الحصباء، وفى البركة حيّة تسبح!! هل وجد هذا الطبق إنسان

من قبل؟ إن الخيال قد جاز بصاحبه أقصاه فهداه لا إلى الطريف بل إلى ما يشبه المستحيل! نسيج من الورد، ودمى على شكل العرائس من الزهر، وبركة ماء بها اللآلئ اللامعة! وحيّة تسبح وسط البركة دون أن تملك القدرة على اجتياز السطح الوردى الجميل! هذا ما أعدّه المنصور لامتحان الشاعر، وقد عقد مجلسًا أحضر فيه جميع الندماء. وأمر بصاعد أن يدخل فيرى، ثم يصف!

قال المنصور لشاعره: هذا يومك يا صاعد، إمّا أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقى به عندنا، لأنهم زعموا أن كل ما تأتى به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى فصفه بجميع ما فيه، فقال صاعد بديهة - ولله هو -:

أبا عامر هل غير جدوك واكف
وهل غير من عاداك فى الأرض خائف
يسوق إليك الدهر كل غريبة
وأعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع زهر صاغها هامر الحيا
على حافتيها عبهر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت
عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنّا
تظلّلها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر

Looloo
www.dvd4arab.com

إلى بركة ضمَّت إليها الطرائف
حصاها اللآلئ سابح فى عبابها
من الرقش مسموم الثعابين زاحف
ترى ما تراه العين فى جنباتها
من الوحش حتى بينهن السلاحف

فدهش الحاضرون لروعة ما أتى به صاعد، وتهلّل وجه المنصور، وكتب الأبيات بخطه، وكان إلى ناحية من الغطاء الوردى سفينة بمجاديف لم يرها صاعد، وفى السفينة دمية على هيئة الجارية، فقال له المنصور، أحسنت إلَّا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية، فقال صاعد:

وأعجب منها غادة فى سفينة ... مكلّلة تهفو إليها المهاتف
إذا راعها موج من الماء تتقى ... بسكانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب ... تصرف فى يمنى يديه المجانف
ولم تر عينى فى البلاد حديقة ... تنقّلها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو أن ساقت معاليك روضة ... وشتّها أزاهير الربا والزخارف
إذا قلت قولًا، أو بدهت بديهةً ... فكلْنى، له إنى لمجدك واصف

فطرب المنصور، وأمر له بألف دينار، ورتّب له فى كل شهر ثلاثين دينارًا، وألحقه بالندماء.

— ٣ —

جلس زيادة الله بن مضر وابن العريف، وابن البتانى، وهم خصوم صاعد فى قصر الحاجب، فجعلوا يتساءلون كيف يجرؤ

هذا الشاعر على تأليف كتاب (الفصوص) فى اللغة، معارضًا به كتاب أبى على القالى، وهو كذوب يختلق الكلمات ويرصد لها من المعانى ما لا يخطر على بال؟

فقال ابن العريف، والعجيب أن المنصور يعرف عنه ذلك، وقد تأكّده دون أن يعصف به ظن، ومع ذلك، يستقبله أحسن استقبال.

فقال ابن مضر: أتقول إنّه تأكد اختلاقه تأكّدًا، لا يعصف به ظنّ؟ متى كان هذا؟

فرد ابن العريف أنسيت أنى ما زلت أفتل للحاجب فى الذروة والغارب، حتى جعلته يمتحن صاعدا، فيأتى بلفظ لا وجود له، وسيريه بإجابته أنه مختلق كذوب!

قال ابن مضر؟ ومتى تمّ هذا؟ وأين كنت؟

فقال ابن العريف أتم ذلك حين كنتَ غائبًا فى اشبيليه، ففى بعض مجالس المنصور، وفد إليه كتاب من عامله ببعض البلاد، يذكر فيه أن الأرض قد قلبت وزُبلت، فضحك الحاجب لهذا التعبير، وأسرّ فى نفسه أن يمتحن صدق صاعد، فقال له: هل وقع لك كتاب (القوالب والزوابل) لبرمان بن زيد، فرد من فوره يقول: لقد رأيته فى بغداد، فى نسخة لأبى بكر ابن دريد بخط كأكرع النمل، وفى جوانب النسخة علامات بأوضاع كذا وكذا فضحك المنصور متهكمًا، وقال له: أما تستحْيى يا صاعد، هذا كتاب عاملنا فلان يذكر فيه أن الأرض قد قلبت وزبلت، فأخذت من قوله ما سألتك عنه، فجاوبت بالبهتان، ولا كتاب يوجد تحت هذا العنوان!

Looloo
www.dvd4arab.com

فأسرع ابن التبانى يقول، لم يكن امتحان واحد، بل تلاه امتحان وامتحان !

فقال ابن مضر : وأنا لا أعرف شيئًا مما كان، بالله فلتذكرا ما تعلمان .

قال ابن التبانى: جلس المنصور وأمامه تمر يأكل منه، ومعه صاعد ينظر إليه ولا يأكل، فأراد الحاجب أن يعبث به فقال ما هو التمركل فى كلام العرب يا صاعد، وهل مرّ بك هذا اللفظ، فانطلق المسكين يقول : تمركل الرجل، أى التف بكسائه، فصاح المنصور : كفى، فقد اخترعت اللفظ، وأنا آكل التمر فلم يخذل صاعد وقال، اخترعت ماوافق كلام العرب فماذا فى هذا ؟

قال ابن العريف، وثالثة أرويها، فقد بدا للحاجب أن يواصل سخريته بصاعد، فقال له بين أسئلة لغوية، لها معانيها الحقيقية، ما معنى الخنفشار يا صاعد ! وليس للخنفشار معنى لأنه لفظ اخترعه المنصور لساعته، فسمع صاعدًا يقول :

الخنفشار حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتكم بقلبى كما عقد الحليب الخنفشار

وضرب المنصور كفًا بكف، وهو يقول له، قد افتريت، فاللفظ من عندى ..

فقال زيادة الله بن مضر، يقف المنصور على افترائه المتكرر، ويصطفيه، ما معنى هذا ؟

فأجاب ابن العريف، المنصور واسع الإدراك، فهو لا يفرط فى شاعر يصف أمجاده، ولا يهمه أن يهل كلماتٍ من غريب اللّغة !

قال ابن مضر : هو لا يجهل فحسب، ولكنه يفترى !

فابتسم ابن العريف وهو يهمس ضاحكًا، لا يهم مولانا المنصور أن يكذب كاذب فى اللّغة، إذ ليس الكذب فى هذا المجال بناقصٍ من سطوته شيئًا ! دعوا هذا المنحى فلا نتحدث فيه .. ثم إن صاعدًا استغلّ كذبه فى اختلاق أحاديث الحب، وأشعار الغرام، فصنع للمنصور كتابين، أحدهما يتضمّن قصّة غرام الجواسى بن فضل فى ابنة عمه عفراء، والثانى يتضمن غرام ابن غيْدقان فى حبيبته الخنّوت، ويعلم الله أننا لم نسمع بالجواس وابن غيدقان والخنّوت من قبل، كما سمعنا بقيس وليلى وجميل وبثينة، وعروة وعفراء، وكثير وعزة، وابن ذريح ولبنى، فأطرف صاعد المنصور بما نجهل جميعًا، وقد ملأ الكتابين بماجذب الحاجب إلى تلاوتهما، حتى خصّص من يقرؤهما بحضرته فى أوقات معيّنة ! وبلغ من سروره بالقصتين المخترعتين، أنه نسخ منهما عدة كتب ليطرف بهما من يحبّ، أفيجفوه بعد هذا ..

سكت القوم سكوتًا طال بعض الوقت، حتى قطعه ابن التبانى بقوله : وهل نسكت على ذيوع كتاب الفصوص وأكثره ممّا لا أصل له ..

فقال ابن العريف، تركنا حديث الفصوص دون أن نتمه، إذ استطردنا إلى خواطر متتابعة، نقد أنقذنا الله من شرّه، لأن

www.dvd4arab.com

صاعدًا حين أتمّه، دفعه لغلام له، يحمله بين يديه، وعبر به نهر قرطبة، فزلّت قدم الغلام، فسقط فى النهر، وسقط معه الكتاب، وقد قلتُ فى ذلك :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص
وهكـذا كل ثقيـل يغـوص

وطار البيت إلى مولانا المنصور فابتسم، وتلاه على صاعد، فأدركته بديهته التى نحار فى أمرها، وسرعان ماردّ بقوله :

عـاد إلـى معـدنـه إنّمـا توجد فى قعر البحار الفصوص

فقال زيادة الله، ولماذا نخشى على اللّغة إذن بعد أن فقد كتاب الفصوص ؟ لقد هان الأمر، فهيّا يا قوم .

(صنائع المعروف)

جلس الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية بالمدرسة النظامية قبيل صلاة العصر بمسجد بغداد، ليؤم الناس كعادته، ثم ينصرف إلى درس الأصول بالنظامية، فوجد رجلًا يسعى إليه باكيًا مستغفرًا، ويقول إن رئيس الشرطة ببغداد أرسله كى يتوب على يده فى المسجد الجامع، وكان رضى الدين يعقد مجلس التوبة عصر كل جمعة، وليس اليوم يوم الجمعة، وهذا ما يعرفه غانم الكرخى رئيس الشرطة، فكيف تعجّل بإرسال هذا التائب فى غير موعد، وشاهد نفر من المصلّين قدوم الرجل إلى الإمام، وسمعوا منه ما يرجوه، فنظر الشيخ رضى الدين إليهم مبتسمًا، وأجلس الزائر جانبه حتى أذان العصر فنهض للإمامة، ونهض الناس من خلفه، فلما فرغ من الصلاة، تحلّق القوم من حوله، فقال لهم ليس اليوم مجلسنا للوعظ، ثم لقاء التائبين، ولكنّ الله يقبل التوبة عن عباده فى كل وقت، وسنسمع قصّة هذا الرجل، وإن له لشأنًا جعل غانم الكرخى يهتم به، وفى أمثاله عبرة عملية تغنى غناء الدرس، اللفظى، ثم توجّه إلى الزائر فقال له، قُلْ حديثك يا بنى .

وكان فى الزائر شجاعة وصلابة، على رغم زلّة نفسه، وبكاء عينه، فقال بصوت قوىّ دوىّ بالمسجد فسمعه الحاضرون، وكأنه واعظ يُلقى موعظته، لا مذنب يشرح جريرته، قال الرجل :

Looloo
www.dvd4arab.com

أنا محمد بن واسط البغدادى، وقد شاء حظّى أن أنتظم منذ عشرين عامًا فى عصابة ابن واصل الكردى، لأقطع الطريق مع الشطّار، دون أن أحسّ فى عملى ما يشين، لأن جمعنا يقترف هذه المهنة، وكأنها وظيفة معلومة، وفى يوم ما منذ خمسة عشر عامًا، وقع فى أيدينا غانم الكرخى قبل أن يصبح رئيس الشرطة، وكنت أتولّى تفتيش الضحيّة لأنهب ما معها، فمددت يدى إلى جيب غانم، فرأيت مصحفًا شريفًا تلمسه كفّى، فأخذتنى رهبة لا أعهدها من نفسى، ووقع فى خاطرى أن كلام الله يتشفع لهذا المنكوب، فوقفت دون حراك، مع أنى أزاول هذا الأمر ولم أستشعر قط ما شعرت به ساعتئذ، فقلت لأصحابى، انصرفوا عن الرجل، فهو فى حمايتى، ولن أسلبه شيئًا، ونحن نستجيب إذا بسط أحدنا حمايته لأحد، فانصرف قومى، ونظر غانم إلىّ نظرة الشاكر، وسمعته يقول: ومادمت قد احترمت كتاب الله، فلم تزاول قطع الطريق، فقلتُ له كانت زلّات لى لم أحسب حسابها، ولو فارقت القوم تائبًا، لبعثوا من يقتلنى من شياطينهم، كيلا أشى بأماكنهم ومنازل أهليهم، وتركته يمضى ثمّ قدمنا بالأمس ليلًا لنهب متجر بغدادى قيل أنه بعيد عن الحرس، فما كدنا نهم بما نريد حتى دهمنا غانم برجاله، وكلهم مسلح مدجج، وهم أكثر منا عددًا وعُددًا، فقبض علينا وساقنا مكبّلين بالأغلال، ورأيته ينظر إلىّ فاحصًا، فعرفنى وعرفته، فابتسم، ونزع عنّى القيد، وقال أتذكر قولك إنى أخاف الشياطين من أصحابى، لا خوف عليك الآن فستكون فى جماعتى بشرطة بغداد، وعليك أن تحلق رأسك، وتغتسل

ثم تذهب اليوم إلى المسجد الجامع، فتعلن توبتك، ويأخذ الإمام رضى الدين القزوينى عهد الله عليك أن تتطهر من الإثم ولا تعود، ففرحت وكأنى ولدت من جديد، وهأنذا قدمتُ ضارعًا أتوسّل.

قال رضى الدين وقد أشرق وجهه، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار، وقد صدق من قال: إنّ صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وقد سبقت من الرجل صنيعة قدّمها لغانم فوقته اليوم وخامة العاقبة. أقول ذلك، لأؤكد معنى مُهمًا، هو أن كثيرًا من الناس يظنّون أن جزاء المعروف أخروىّ فقط، ولكن الأيام تثبت أن الجزاء دنيوى وأخروىّ، لأن عين الله لا تغفل، ولن يذهب العرف بين الله والناس، فالخير لا يعدم جوازيه، وقد شرحت لكم من قبل حديث الصخرة، وهو يؤكد أنّ الطاعات تفرّج الكربات فى الحياة الدنيا، قبل أن ينال الطائع ثوابها فى الآخرة وأنتم تعلمون!

قال المذنب، سيّدى لا أعلم حديث الصخرة، وأحب أن أسمعه لأزداد يقينًا، فقال رضى الدين، هو حديث نبوى مشتهر ولن أرويه أنا، كيلا أنشئ مجلس وعظ هذا اليوم، لأن المجلس لغيرى بعد صلاة المغرب، فلا اعتداء ولن أحرمك الآن من سماعه، فليتقدّم أحد التلاميذ ليرويه، وأشار إلى جارٍ له، فاتخذ سمت المتحدث، وانطلق يقول: روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا غارًا فى جبل، فانحطّت عليهم صخرة، فقال بعضهم

www.dvd4arab.com

لبعض : أدعوا الله بأفضل عمل عملتموه، فقال أحدهم : اللهم إنى كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى، ثم أجىء فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى به أبوىّ فيشربان، ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى، فاحتبست ليلة، فجئت فإذا هما نائمان، فكرهت أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجلى، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله عنهم، وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى كأشدّ ما يحب الرجل النساء، فقالت لا تنال ذلك منى حتى تعطينى مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا فرجة، قال ففرج عنهم الثلثين، قال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيرًا بفرق من ذرة، فأعطيته، وأبى ذاك أن يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، حتى اشتريت منه بقرًا وراعيها، ثم جاء فقال : يا عبد الله أعطنى حقى، فقلت : انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك، قال أتستهزئ بى، فقلت، ما أستهزئ بك، ولكنها لك، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فكشف عنهم .

سمع المذنب حديث الصخرة، فأكب على يد الشيخ الإمام مقبّلًا، فاستتابه، وردّد أقوال التوبة خلفه، ورددها الحاضرون، وصادف أن قدم إلى المسجد الإمام أبو الفرج

عبد الرحمن الجوزى، والإمام صدر الدين الخجندىّ، وكلاهما من زملاء رضى الدين فى المدرسة النظامية، فابتسم ابن الجوزى حين رأى حلقة الدرس، وقال مداعبًا رضى الدين : اليوم لى يا شيخنا، وسأعظ بعد الغروب، فقال الشيخ، وأنا لم أتحدث، وإنما روَى الطالب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمناسبة استدعته، ثم أوجز ما كان من أمر التائب، فتهلل وجه ابن الجوزى، وقال : جزى الله صاحب الشرطة خيرًا، فهو ما يزال يبعث إلينا بمن يسعد الناس بتوبته النّصوح.

فقال رضى الدين، وقد تعمّدت أن أسمع القوم حديث الصخرة، لأعلمهم أن جزاء المعروف ليس وقفًا على الآخرة وحدها، ولكنه يثمر فى الدنيا والآخرة معًا، وقد صنع هذا التائب معروفًا أدرك ثمرته اليوم قبل أن ينتقل إلى جوار ربّه، فماذا يرى شيخنا ابن الجوزى !

قال الشيخ : لقد جئت الآن لأخلو بنفسى، حتّى تحين صلاة المغرب، فأؤدى الدرس، ولكنى آنس فى روحى انطلاقًا لا عهد لى به من قبل، لأن فرحتى بتوبة العبد المؤمن، تذهب عنّى بوادر الكسل، وما قرّره الإمام القزوينى من أن ثواب المعروف يتحقق فى العاجلة والآجلة معًا ممّا لا شك فيه، وقد أحصيت عدّة وقائع صحيحة تثبت هذا الرأى القاطع، وسردها الآن متعذر، وسأسجّلها فى كتاب يتداوله الناس !

قال صدر الدين : ما هذا يا ابن الجوزى، تحضر مجلس التوبة، ويتجمع الناس معتبرين، ويكون لديك من القصص ما يؤكد حقيقة اجتماعية نود أن تذيع بين الناس، ثم تقول إنك

www.dvd4arab.com

ستدوّن القصص فى كتاب، لابد أن نستمع إلى قصّة تنهض دليلًا جديدًا، فهيّا وأسعف يا رجل !

قال رضى الدين، وهأنذا أرى التلاميذ ينظرون فى شوق وارتقاب ! فلا تهمل رغبة الجميع يا أخى، وهذه ساعة رضًا، ولحظة قبول .

قال ابن الجوزى، لقد جاءنى اليوم كتاب (الاعتبار) للأمير أسامة بن منقذ، وهو ممن عرفتُ وصاحبت، فقرأت فيه مدهشات من الغرائب والعجائب، ومنها ما يصلح دليلًا على ما يؤكده الإمام القزوينى من وقوع المثوبة فى الدنيا مع الآخرة، وسأذكر ممّا قرأت به هذه النادرة :

قال القاضى أبو بكر بن محمد بن عبد الباقى الأنصارى : بينما كنت أحج ببيت الله، وجدتُ عِقدًا من اللؤلؤ فشددته فى طرف حزامى، وبعد ساعة سمعت إنسانًا ينشده فى الحرم، وجعل لمن يردّه عشرين دينارًا، فسألته علامةً له، فأخبرنى بها، فتسلّمه، وقال لى تجىء إلى منزلى لأدفع إليك الجُعل، فقلت مالى حاجة إلى مالك، وأنا من الله فى خير كثير، فقال : أكان صنيعك لله عز وجل؛ قلتُ نعم، فقال : استقبل بنا بناء الكعبة، وأمّن على دعائى، فاستقبلنا الكعبة، فقال : اللهم اغفر له، وارزقنى مكافأته، ثم اتفق لى أن سافرتُ من مكة إلى ديار مصر، فركبت فى البحر متوجّهًا إلى المغرب، فوقعت المركب فى أيدى الروم، وأُخذت أسيرًا، فكنت من نصيب بعض القسوس، ولم أزل أخدمه حتّى مات، وكان قد أوصى بإطلاقى بعد موته، فحررت، وخرجت من أرض الروم إلى

بعض بلاد المغرب، فجلست أكتب على دكّان خباز بأجر يومىّ، وكنت أكتب بخطى ورق الحساب لمن يعاملهم الخباز من أعيان المدينة، فجاءه بعض الوجهاء، وقال للخباز، تتنازل عن هذا الكاتب لأجلى، لأن معرفته بالحساب والخط تعيننى على إدارة أملاكى، فوافق الخباز لمنافع يرجوها من الرجل، وانتقلت إلى منزله، فإذا نعمة سابغة، وجاه مديد، فأوقفنى على ما يرغب منى، فكنت أؤديه كأحسن ما يكون الأداء حتى اطمأنّ لى، فلما مضت مدة قال لى : لماذا لا تتزوج ؟ قلت : سيدى، وهل أملك ما آكل به وحدى حتى أضمّ إلىّ زوجة تأتى بأطفال ! فقال سأتكفّل بكل ما تحتاج، فقلت إذن لا أمتنع، فقال يا ولدى : إن التى ستتزوجها ابنتى وهى دميمة غير مقبولة، قلت : رضيت مادامت ابنتك، فلما كان بعد أيام قال لى : تهيأ لدخول منزلك، ثم أمر لى بكسوة فاخرة، ودارٍ تعادل داره بهاء وسعة، وذهبت بعد اجتماع القوم للعروس، فوجدتها أجمل فتاة وقعت عليها عيناى، فخرجت هاربًا من الدار، فلقينى والدها، وقال ما شأنك؟ قلت ليست هذه الزوجة التى وصفتها وذكرت من عيوبها الكثير، فتبسّم وقال : هى زوجتك وليس لى سواها، وقد قلت لك ذلك لتستقلّ ما ستراه ابتداء، فإذا اطلعت قنعت .

فلما كان من الغد، جعلت أتأمل ما لدىّ من الحلىّ والجواهر التى حملتها العروس معها، فرأيتُ من بينهاالعقد الذى وجدته بمكة من قبل، فعجبت كثيرًا، وجاء والدها يزورها، فرأى على شفتى كلامًا، فقال : ما خطبك ؟ قلت :

www.dvd4arab.com

هذا العقد رأيته بمكة مفقودًا لإنسان مغربى وأعطيته إياه، فقال: أأنت صاحبنا بمكة، قلت نعم، قال وقد دعوت الله أن يغفر لك ويرزقنى مكافأتك، وأنت تؤمّن! قال نعم، قال أبشر بمغفرة الله، لأن نصف الدعوة تحقّق، وسيتحقق النصف الثانى! وقد سلّمتُ إليك مالى وابنتى وهى كلّ أقاربى، فأصبح كل شىء لك، وأوصيك بها!

غمّر الوجوه سرورٌ مضىء! وقال الإمام القزوينى، من أين كنا سنعثر على هذه النادرة، لو لم يقدم شيخنا عبد الرحمن؟

فقال صدر الدين؟ ومَن ببغداد مثل الإمام ابن الجوزى، فى سعة اطلاعه، وشمول معرفته! على أننى أضيف شيئًا صغيرًا، فأذكر أن أحمد بن يوسف الكاتب ألّف سفرًا سماه (المكافأة) ملأه بالأقاصيص الدالة على أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وقال فى مقدمته ما معناه: إن قصص الكرام المشتهرة، تذكر فعالهم المجيدة، وقلّما تشير إلى عقبى هذه الفعال من مكرمات تتحقق لأصحاب الفضل من الناس، فأردت أن أثبت ما لقيه هؤلاء من جميل العقبى فى الحياة، ليكون ذلك دافعًا حثيثًا للمكرمات! ثم ذكر من القصص الجميلة ما وقع من نفسى موقع الارتياح، وأذكر أنى قرأت كتاب ابن يوسف عدة مرات.

قال ابن الجوزى، وهذا كتاب لم أقرأه، وقد ذكر شيخنا الصدر عن سعة الاطلاع، وشمول المعرفة، فمن الجدير بهذين الوصفين سواه؟ نرجو أن تتكرم بذكر قصّة مما علق

بذهنك من كتاب المكافأة، فإن النفوس على استعداد وليكن اليوم، يوم الاحتفال بالفضل والفضلاء من ذوى المكارم، وسيرتهم جديرة بالدرس، لأنها تطبق ما يدعو إليه الإسلام من المحامد، فهى دَرْسٌ من أمتع الدروس، هيّا يا صدر الدين.

قال الصدر: نقل ابن يوسف عن محمد بن يزيد من أصحاب البريد لعهده، أن ابن طولون قد أطلق من حبسه جماعة من اللصوص ومنهم فتى تظهر عليه ملامح الشراسة، فأراد ابن يزيد أن يثنى من شره بالتى هى أحسن، فهنأه بالسلامة من الحبس، وأوصاه أن يتقى الله فى أموره فلا يشارك بعد الآن فى قطع الطريق، فقال الفتى واسمه مسافر: يا سيدى إن النفس أمارة بالسوء ولن يكون المتاب إلا بتوفيق من الله، قال ابن يزيد فاستحسنتُ جوابه، وقلت له: كم يكفيك إلى منزلك، فقال: دينار، فدفعته إليه، وقلتُ له: إذا حدثتك نفسك بقطع الطريق، فلا تطعها، وابعث إلىّ فسأكفيك، فما مضى شهر حتى اضطربت نواحى البهنسا بتسلط رجل من اللصوص فى جمع حاشد من أتباعه، وكانت لى أموال وأثمان زروع، فخرجت لتحصيلها هناك مع جماعة من التجار، وما كدنا نلم بالبهنسا حتى داهمنا اللصوص بأسلحتهم المهدّدة، وفيهم فتًى تأملته فإذا هو مسافر صاحب النصيحة التى وجهتها إليه من قبل، فلمّا عرفنى أكبّ على رأسى مقبلًا، واحتفى بمن معى من أجلى، وقال لأصحابه: أخطأ والله ظنكم، هذا سيّدى ولن نزعجه مع جماعته فى شىء، ثم قال لى أعلم أنك ستلومنى إذ خالفت نصيحتك، ولكن

Looloo
www.dvd4arab.com

النفس أمارة بالسوء، فاذهب إلى سبيلك مع جماعتك، وأملى أن أراك فى رجوعك من هذا الطريق لأحرسك حتى تصل إلى الأمان! فلما وصلنا إلى أهناس، شاع خبر اللصوص، وجاء المتقلد لها من أصحاب ابن طولون يستطلع الخبر، فأعلمته بشأن مسافر معى، فقال والله: إنه رئيس القوم، وقد بذلت الجهد فى استمالته إلى الرشد فعييت، وأنا أسألك أن تسفر بينى وبينه، فإذا أجاب وأجابت معه عصابته، فإنى سأؤمنه وأكرمه، وأقلّده صيانة الأمن فى الإقليم، فرجعت إلى مسافر، ولى أمر فى احتوائه، فقال يا سيّدى: أعلم أنك دليل الخير، ثم نهض إلى أصحابه صارخًا: من يساعدنى على التوبة، والالتزام بأدب الدين، فقالوا جميعهم نحن معك، فسار مسافر وأتباعه من خلفه، وقد وضع فى عنقه وأعناقهم الحبال، وقال: ادخلْ بى فى زىّ الأسرى ليعلم الناس صدق التوبة، وجعلت أثنيه فأصرّ، فلما أتينا إهناس خرج الناس للقائنا فى دهشة بالغة لقيادتى نفرًا من شياطين الإنس، وعجبتُ كيف لشيخ ضعيف مثلى أن يقوم بما أعجز رجال الدولة هناك، فاستبشر المتقلّد بتوبة من أزعجوه وأقلقوه، ثم طلب مسافر أن يرحل إلى الحج فى القافلة تائبًا، فاستجبنا له، وعرف ابن طولون الخبر، فقال لى لم يضع دينارك يا ابن يزيد.

قال الإمام المقريزى، هذه لؤلؤة، ولن نكتفى بها، فعليك بأختها يا صدر الدين.

قال الصدر، لم يحك الإمام ابن الجوزى إلّا قصة واحدة، فإن عاد عُدت، فصاح ابن الجوزى بالله إلّا استرسلت، فأنا

إلى هذه الفوائد أحوج، لأن دروس الوعظ ببغداد لا تجد صداها لدى العامة إلّا بهذه الطرائف وسأنقلها عنك.

قال الصدر، ولدىّ نادرة من هذا الوادى بطلها شرير تاب الله عليه لمناسبة كمناسبة مسافر، وقد عاد النفع بها على من تقدّم بحسن الصنيع! إذ ذكر ابن يوسف عمن يسمّى بإسماعيل ابن ساباط أنه قال: كانت لى دار للخيل أفد إليها بين الحين والحين على ضفاف الصحراء، فقصدتها ذات صباح فرأيت حشدًا من العامة ضاقت بهم الأرض على سعتها، ومعهم حارس الأمن، فاستقبلتنى امرأة هائجة تلطم وتقول: يا سيدى وحيدى وكافلى يُعرض الساعة للقتل، فالله الله فىّ، وأنا أمّه ولا يعولنى أحد سواه، فذهبت لحارس الأمن أسأله عن قصته، فقال، إنه خنّاق شرير، فقلت بصوت مرتفع، ما حقه غير الإحراق بالنار، وسأكتب فيه للسلطان، فاحبسوه ليأتى الأمر بقتله، ففرح الناس، ورفعوا أيديهم بالدعاء لى، وما قلتُ ذلك إلا لأصرف العامة مخافة أن يحدث الهياج إذا أطلقته، فلمّا صليت العشاء بعثت فى استدعاء هذا الخنّاق، فإذا شاب ظاهر القسوة، بادى اللؤم، فقلت له: أما تتقى الله فى أمّك، وقد كانت بين الموت والحياة وهى تستشفع بى؛ فقال يا سيدى، أعطيك عهد الله على أن أتوب ولا أعود، فأوصيته بخير، وأمرت من يخرجه من البلد إلى مكان قاصٍ كيلا يهيج عليه أحد.

قال إسماعيل، وقد مرت سنون، وتغيّرت أحوالنا، إذ قدم من دار الخلافة من أشخصنى إلى بغداد مخفورًا لذنوب لم

Looloo
www.dvd4arab.com

نرتكبها، وحين وصلتُ إلى دار الوزير طالبنى بأموال زعم الواشون أنى اختلستها من الناس، واشتد فى خشونة أرهبتنى، ثم نادى رجلًا غايظ الطبع، أقام على بعض أمره، فقال له: استخرج منه مائة ألف دينار اليوم، وإلّا فعذّبه حتى يقر، فأيقنت بالهلكة، ولكن صاحبى الذى سرتُ معه، أخذ ينظر فى وجهى ثم سأل عن اسمى، فحين أجبته سكن فوره، وهدأ غضبه، وقال ألا تعرفنى يا سيدى، أنا الخنّاق الشرير الذى أطلقتنى من مصر، والله ما خنقت أحدًا بعدها، ولكن الوزير رأى شدّة بأسى حين قدمت إلى بغداد فاختارنى لأستخرج الأموال بالتعذيب، ثم صحبنى إلى حجرته بقصر الوزير، وأخرج صندوقًا يحمله غلامان، وقال فى هذا المال ما نكتفى به جميعًا إذا هربنا من بغداد، قلت: وكيف نعمل إذا تنبّه الوزير وساق خلفنا من يردنا مقهورين؟ قال، معك الحق، ثم انكفأ إلى الوزير فجعل يبكى بين يده، ويقول عاشرته بمصر فعرفت أمانته، فقال الوزير: أصدقك لأنى لا أعرف فيك ميلًا للرأفة إلا عن اقتناع، وقد أعفيته، فاعمل على رجوعه سالمًا، فكاد الخنّاق يشق ثوبه من الفرح، وقال لى: أحمد الله فقد قدرت على ردّ الجميل، وأعدّ لى سفرًا مريحًا مع قافلة ذات شوكة وسلاح، قال ابن الجوزى، لن أترك الصدر حتّى يعيرنى كتاب المكافأة هذا، فقد أحسست برغبة فى استظهاره، فضحك الصدر قائلًا: ستكون أعجوبة بين الناس حين يعرفون أن ابن الجوزى يستعير كتابًا من الصدر، وهم يعلمون أن عبد الرحمن ما ترك مصنّفًا دون استيعاب.

فقال ابن الجوزى، سأعلمهم أنّك قرأت ما لم نقرأ، ليلتفوا حولك أنى سرت، فتستريح وقتًا للقراءة والتصنيف، وتطلّع ابن الجوزى إلى الإمام القزوينى فقال له: على وجهك كلام يا رضى الدين، وقد جاء دورك، ولابدّ من طرفة قال رضى الدين، ألم أنكر حديث الصخرة يا أخى، وحديث رسول الله أشرف الحديث! فقال ابن الجوزى، متى يا رجل؟ قال: قبل أن تجيء!

فابتسم ابن الجوزى قائلًا: لا تهربْ، فأحاديث رسول الله ذائعة مشتهرة، نريد أن تأتينا فى هذا المنحى بطرفة نعتز بها، وكل الصيد لديك! والتفت ابن الجوزى إلى الطلاب، فقال: إنه مجلس نادر يا قوم! لقد أغناكم عن مجلس المغربى، فلا وعظ الليلة لتستجمعوا هذه الفرائد قبل أن تضيع.

ثم صاح برضى الدين، قل يا أخى فقد اشتاقت الآذان! وقد بدأت فأتمم.

قال القزوينى: جميع ما سمعناه من النوادر يدل على تحقق المكافأة لمسدى الجميل فى حياته، ولكنّ ما سأرويه الآن سيتقدم خطوة تالية فتُعطَى المكافأة فى الحياة أيضًا، ولكن لورثة صاحب الصنيع، وهذا ما نطقت به صحائف التاريخ، فقد ذكر الرواة أن أبا عبد الله محمد بن على بن العباس أبا الخلفاء أتى هشام بن عبد الملك بالرصافة، فأخّر الإذن عليه أيامًا، حتى شكا لأخيه مسلمة بن عبد الملك فصاح هشام؛ أتشفع فى رجل لو طاوعت شيطانى لقتلته الآن؟! إنه

Looloo
www.dvd4arab.com

يحلم بالخلافة ويسمّى ابنيْه عبد الله و عبد الله ، والله لولا انتقاد الناس لسال دم الآن ، فخرج مسلمة إلى أبى عبد الله ، وقال له ، إنى يئستُ من هشام ، وما حملتُ معى إلاّ ألفًا وثلاثمائة دينار هى لك ، وسيصلك غيرها ...

مات مسلمة ومات أبو عبد الله ، وسهر هارون الرشيد ذات ليلة مع ندمائه ، فجرى ذكر هذه الحادثة ، فقال الرشيد ، والله لا أمكث حتى أجزى أبناء مسلمة ذكورًا وإناثًا بما يقر عين جدهم فى قبره ، مكافأة على صنيعه بجدّى ، ثم أحصى الأبناء فوجدهم أربعين فأعطاهم أربعين ألف دينار لكل واحد ألف ..!

قال ابن الجوزى هذه نادرة النوادر ، وجزى الله الحطيئة خيرًا حين قال :

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

ونهض الأساتذة ، فنهض التلاميذ ..

مناظرات علمية

شاع فى المدرسة النظامية ببغداد أن شمس الإسلام أبا الحسن على بن محمد الطبرى المعروف بإلكيا الهرّاس ، وإلكيا كلمة أعجميّة معناها الكبير القدر المقدّم بين الناس ، شاع أن هذا العلاّمة الفقيه سيناظر الإمام أبا الوفاء بن عقيل الحنبلى فى مسألة من مسائل الوصيّة مساء هذا اليوم بعد صلاة العشاء فى ساحة المناظرات بالجامعة ، وأساتذة المدرسة وطلاّبها يعرفون أن ألكيا الهرّاس من أكبر فقهاء الشافعية فى عصره ، وهو قريع أبى حامد الغزالى وزميله فى التدريس ، كما أن أبا الوفاء بن عقيل شيخ الحنابلة ، وله مقامه الشهير تدريسًا وتأليفًا ومناظرة ، فتحفز أهل العلم لشهود هذا المحفل الجهير ، وما صليت العشاء حتى تقاطر السّامعون وفى مقدمتهم قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى والشيخ العلاّمة أبو طالب الزينبى ، ثم ابتدأ المناظرة أبو الوفاء ، فهجم على آراء الشافعيّة فى حدّة ، وأظهر من المباهاة ما كان جديرًا به أنْ يخفيه ، وتوقّع السامعون أن يكون هجوم ألكيا الهراس أعنف وألذع ، ولكنه ـ وكان صبيح الوجه ، جميل الإلقاء ـ بدأ المناظرة بالثناء المستطاب على مناظره وقدّر فى إعجاب سعة اطلاعه ، ولطف تهديه لعلل الإحكام ، وداعبه منشدًا قول القائل :

أرفق بعبدك إنّ فيه يبوسة   جبليّة ولك الفرات وماؤه

Looloo
www.dvd4arab.com

مشيرًا إلى أنه فارسىّ لا يملك من عذوبة البيان ما يملكه أبو الوفاء وهو عربى صريح، ولكنه مع هذا التواضع الباهر قد أبدى من البراهين، وأوضح من العلل ما عصف بآراء أبى الوفاء، إذ أخذ يكرّ على مقرراته الفقهية كرّ الشجاع الماهر بأساليب الصيال، حتى اقتنع الحاضرون بكل ما قال، ثم أخذوا يقارنون بين استعلاء أبى الوفاء وتواضع ألكيا الهراس فزاد الرجل بهاء فى العيون وسعة فى الصدور، وحبًّا فى القلوب، وما تمت المناظرة، وأخذ الناس يتهيئون للخروج حتى عجّل أبو الوفاء فسبق، وانتظر ألكيا الهراس إذ أحاط به جمهور السّامعين، واضطرّوه إلى أن يجلس معهم بعض الوقت فى قاعة المناظرة ليتحدثوا عن بعض المسائل، وسارع أبو الحسن الدامغانى فقال: لقد صار كلام أبى الوفاء كالفراش المبثوث، فقال أبو طالب الزينبى: مبتسمًا وكالعهن المنفوش، ولكن ألكيا توجّه للحاضرين فى هدوء وقال مبتسمًا:

تمهلوا يا قوم، فأبو الوفاء رأس الحنابلة اليوم، وهو فى مؤلفاته ودروسه لا يُضارع، وكنتُ صادقًا حين أنشدت قول القائل (ارفق بعبدك) لأنى أعلم غوره البعيد، ومنطقه السديد، ولكن موضوع مناقشة الليلة لحسن حظّى قد قمت بتدريسه فى النظامية سبع سنوات، حتى أحطت بكل ما يقال فيه، ولو أنّ أبا الوفاء صرف عامًا واحدًا فى تدريسه لأتى بالأوابد الحاسمة، فلا تظلموا الرجل!

قال أبو الحسن الدامغانى، إن أبا الوفاء أثار الناس بتعاليه

وتهجّمه، ولو أنّه ترك هذا التعاظم وواجه المقررات الفقهية مواجهة الناقد المتحفظ ما أثار هذا الشعور المنقبض نحوه، إن نقاش العلماء فى المدرسة النظامية ليس كنقاش الجمهور فى مساجد بغداد! لأن العامة ترى الانتصار فى ارتفاع الصوت، وشدة الرنين، أما نحن فننتظر أسباب الترجيح، ونناقش مواضع التعليل، وهذا ما لا ينفع فيه التطاول والادعاء!

قال ألكيا الهراس: حقًّا إن للنقاش الفقهى مكانه ورجاله! وأنا أرى أن تقتصر دروس المساجد على المسلّمات التى لا نزاع فيها، أمّا دروس أهل العلم فى مثل المدرسة النظامية فهى موضع المشتبهات من الأحكام.

فقال أبو طالب الزينبى على أن يُترك المراء واللجاج فى كلّ نقاش!

فرد أبو الحسن الدامغانى؛ وهل ملك ألكيا الهراس قلوبنا اليوم إلا بابتعاده عن اللجاج والمراء!

فتطلع الهراس إلى القوم، وكلهم يرمقونه فى إعجاب، فقال:

نحن نعلم أن السلف من كبار المتناظرين من أمثال الشافعى ومحمد بن الحسن رضى الله عنهما لم يكونوا يحيدون عن آداب البحث وقواعد العلم فى المناظرة، فكل فقيه يعرف قدر صاحبه، ويقدّر فى نفسه أنه قد يعلم ما لا يعلم فهو إلى تلمّس الفائدة أقرب منه إلى إظهار مكنون ما لديه، وقد كان إمامنا الشافعى رضى الله عنه يقول: ما ناظرت فقيهًا إلا تمنيت أن

www.dvd4arab.com

يصيب، فأجد الحق عن طريقه، كما أنّ مسائل المناظرة لدى هؤلاء الكبار لم تكن من الأحاجى والألغاز، ولم تلج باب الافتراضات العقليّة التى لا تتحقق فى دنيا الواقع لذلك كان الوفاق قريب التوقّع، وكان الشقاق أبعد ما يكون !

قال تلميذ من تلاميذ الشيخ : لقد قلت يا مولاى إن للمناظرة آدابًا وقواعد، وأحبّ أن نستفيد الليلة بمعرفة هذه الآداب .

قال الدامغانى : إن للمناظرة وآدابها كتبًا مشتهرة ! فارجع إليها .

فابتسم إلكيا الهراس، وقال لا مانع أن أطفئ غلّة السائل ببعض ما يقال، ثم التفت إليه قائلًا فى تودّد : اعلم يا بنىّ أن الصواب بيّن، وأن الخطأ بيّن، وأن مراعاة الآداب العامة ممّا جبلت عليه النفس، فقد لا يلم الإنسان بما قال العلماء فى آداب البحث والمناظرة. ولكنه لو رجع إلى نفسه، لعلم أنّ مراعاة المشاعر الإنسانيّة، وتجنب الهذر فى اللفظ، والبعد عن التجريح، والنفاذ إلى صلب الموضوع دون دوار، والخلوص لله وحده دون رغبة فى استهواء النفوس وجذب الأنظار .. كل ذلك ممّا يجعل المناظرة العلمية تؤتى أحسن الثمار، لقد تكلّم زميلنا حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى آداب البحث والمناظرة، وأذكر أنه اشترط أن يكون المناظر مجتهدًا يفتى برأيه، ولا يتقيد بمذهب إلا إذا اقتنع بأدلة حكمه، فإذا رأى الأدلة أقوى فى مذهب مخالفه سارع بالرجوع إليه !

قال أبو الحسن الدامغانى ! وهذا ما يتعذر كثيرًا لدى المتناظرين، فأنا أعرف من الفقهاء من تأتيه بالدليل الصريح

من الكتاب والسنة فلا يستمع إلى قولك، ويقول أنا متمسّك بمذهب فلان .

فقال إلكيا، لم تَعُدْ الصواب فيما ذكرت، فأنا كابدت من هؤلاء ما لا قبل لى باحتماله، ولكنّ أهل العلم من الأصلاء ينفرون من هذا الضيق، ولا يقيمون لمثل هذا المتعصّب وزنًا !

فعاجل أبو طالب الزينبى يقول : لقد أشار إلكيا الهراس حفظه الله إلى ما وصفه أبو حامد الغزالى من آداب البحث والمناظرة، وأذكر أنه اشترط أن تكون المناظرة فى خلوة ! فما معنى هذا ؟

فرد إلكيا الهراس يقول : إن المناظرة فى المحافل تستدعى احتشاد الخصوم، وقسمة المجتمعين إلى فريقين، فريق مع فقيه شافعىّ مثلًا وآخر مع فقيه حنفى ! وهنا يكون من همّ المناظر أن يرضى طائفته من أبناء المذهب الواحد، وهذا الاتجاه يحول دون الاستماع إلى أدلّة المعارض، والتسليم بها مهما كانت قوية، إلا لدى من عصم الله من أفذاذ العلماء، وهؤلاء قليل قليل، لذلك كانت المناظرة فى الخلوة أجدى .

فصاح أحد الطلاب أىّ خلوة؟ وما نفع الناس إذن ؟

فقال أبو الحسن الدامغانى : ليس المراد بالخلوة فى قول الغزالى، أن يكون المتناظران منفردين معًا فحسب ! ولكنه يريد بالخلوة خلوة أهل العلم فى الحلقة الواحدة، فيكون المجتمعون فى منأى عن مجالس السلاطين والوزراء والأمراء، إذ عهدنا أصحاب الأمرين من هؤلاء يحبون أن

Looloo
www.dvd4arab.com

يظهروا فى مظاهر من يشجعون البحث العلمىّ، فيجمعون الفقهاء للمناظرة، وهمّهم أن يجتمع الناس، وأن يشعر كل مناظر أنه يدافع عن قضية هو وحده المصيب فيها، وغيره هو المخطئ! أضف إلى ذلك ما يجلبه هذا المجلس الحاشد أو المحفل الصاخب، من دواعى التهريج الزائف، والإصرار على الخطأ حتى مع وضوحه، والتحبب إلى الجمهور، والوقوف عند الحقائق الأولى دون اقتناع بما يسفر عنه الجدل! هنا تكون الخلوة العلمية فى الحلقة المحدودة أجدى وأسلم، وما أظن الغزالى قد ارتضى ذلك إلا بعد تجربة واقتناع!

قال إلكيا موجّهًا الخطاب للدامغانى: حيّاك الله يا أبا الحسن، فقد شفيت الصدر بما أوضحت، وأزيد على ذلك فأقول إن الغزالى تطرّق إلى العلل النفسيّة المانعة من فائدة المناظرات العامة فى المجالس الحاشدة، فذكر منها الحسد، والتكبر على الناس حتى إن بعض المتناظرين يحرص على أن يكون فى مجلس أرقى من مجلس مناظرة، كما أن فيهم من يترك المسألة العلمية موضع النقاش إلى أمور شخصية لا مجال للحديث عنها، وفيهم من يحشد الأنصار قبل المناظرة ليكونوا عونًا له، وليحدثوا من وسائل الترويج ما لا يقبله الموقف، وقد يتملّقون الرؤساء من الحاضرين بشتى الأماديح، وكأنهم يحرصون على تأييدهم بما يزجون من ثناء، أما انزلاق اللسان إلى ما يكره من الألفاظ فكثيرًا ما يقع! وقد حرصت فى مناظرة الليلة أن أعيد للنقاش العلمى

هدوءه وجماله، وأن أقف فى الصف المقابل للضجّة، ورأيت من تشجيعكم ما دفعنى إلى التزام هذا الموقف فيما سيجد من المناظرات إن شاء الله! وهكذا كانت مناظرات الفحول!.

ابتسم أبو طالب الزينبى، وقال: لم تخل مناظرات الفحول السابقين من بعض العناد، كمناظرة الإمام الشافعىّ مع قريعه محمد بن الحسن فى مسألة الغصب!

فقال إلكيا: لم أجد فى هذه المناظرة شيئًا من العناد لا من الشافعى ولا من ابن الحسن رضى الله عنهما، والجهر بالحقيقة الملزمة لا يسمّى عنادًا.

قال أحد الطلاب: تتحدثون عن هذه المناظرة وكأنها مشهورة متعالمة، ونحن لا ندرى عنها شيئًا، فهل يتكرم أحد أساتذتنا بتلخيص ما كان!

قال إلكيا: سيطول المجلس كثيرًا.. فقال أبو الحسن، أنت تزداد نشاطًا مع النقاش، وأرى فى وجهك من دلائل الابتهاج والارتياح ما يدعو إلى أن تجيب الطالب فى إسهاب! لقد كنا يا أخى نتناقش فى بعض الفروع من العشاء حتى مطلع الفجر دون سأم! أو نسأم الآن، والمجلس رائق مستطاب.

فقال إلكيا: ما تقولون؟ فصاح الجميع: كلّنا آذان!

فعجل الهراس يقول: قبل أن ألخص هذه المناظرة، أذكر أن كتبًا كثيرة، تسطر عن الشافعىّ ومحمد بن الحسن ما لا يليق، لأن تعصّب بعض الناس يدفعه إلى الاختلاق الكاذب، فبعض الزاعمين يقرّر أن محمد بن الحسن سعى إلى

www.dvd4arab.com

قتل الشافعيّ وأن الشافعيّ سبّ ابن الحسن، كما يزعمون شيئًا من هذه السقطات زلّ به لسان الشافعيّ نحو الإمام أبى حنيفة، وتلك أكاذيب ينكرها الواقع، فابن الحسن أشاد بالشافعيّ فى مجلس الرشيد، وشهد له شهادة أنجته من مأزق كريه، والشافعيّ يعترف لابن الحسن بفصاحة اللسان وقوة الحجة، ويؤكد أن مؤلفاته جمعت مذهب أبى حنيفة فذاع على يديه الخير الكثير، وإمامنا الشافعيّ زار قبر أبى حنيفة وصلّى الصبح فى مسجده، وقنت قبل الركوع استحبابًا لمذهبه! فإذا كان الأمر كذلك فكيف تضعف أخلاق بعض الكاتبين، فيتوهمون أئمة الإسلام رعاعًا يتقاذفون بالسباب! ساء ما يأفكون!

ابتسم أبو طالب الزينبى، وقال هذا مؤكّد لدى الكبار من أهل الفضل، ونعدّه مقدمة جيّدة لمناظرة الغصب، فلا تبخل على طلّابك بتلخيصها دون مقدمات.

فقال إلكيا، المسألة تحتاج إلى تقرير يسير، ففى مسألة الغصب يقرّر الحنفيّة أن الغاصب إذا زاد شيئًا فيما غصبه كأن غصب قطعة أرض فضاء وزاد فبنى عليها منزلًا، فإن المالك عليه أن يدفع ثمن البناء الزائد ويسترد الأرض المغصوبة أو يترك الأرض للغاصب على أن يدفع ثمنها المقرّر، أما الشافعية فيرون أن المالك له الحق فى أن يأخذ قيمة الأرض إذا قبل ذلك عن سماح، وإن لم يقبل أمر القاضى بإزالة البناء المستحدث، ورجوع الأرض خالية إلى مالكها، إذ ليس من شأنه أن يخسر الغاصب ما شيّد به البناء، إذ أقام على باطل،

والباطل لا يعتد به، هذا هو فقه المسألة التى دارت حولها المناظرة! ومن حديثها أن محمد بن الحسن رضى الله عنه قال للإمام الشافعيّ: بلغنا أنك تخالفنا فى مسائل الغصب، فقال الإمام، أصلحك الله إنما هى أمر يصلح للمناظرة، فهل لك أن تبدأ بها؟

فقال ابن الحسن: ما تقول فى رجل غصب ساحة أرض، وبنى عليها منزلًا أنفق عليه ألف دينار، وجاء صاحب الأرض وأقام شاهدين على أنه يملكها، وأن صاحب البناء قد تعدّى عليه؟

قال الشافعيّ: أقول لصاحب الساحة أترضى أن تأخذ قيمتها، فإن رضى فلا إشكال، وإذا رفض أمرت بهدم البناء ليتسلم الأرض من صاحبها، فهى حقّه المقرّر.

سكت محمد هنيهة ثم قال: ما تقول فى رجل غصب لوحًا من خشب فأدخله فى سفينة، وسارت السفينة حتى بلغت لجّ البحر، وجاء صاحب اللوح المغصوب بشاهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟

فقال الشافعيّ: لا، قال ابن الحسن: الله أكبر رجعت عن قولك إلى قولنا!

ثم قال ابن الحسن: ما رأيك فى رجل غصب خيطًا من حرير، ثم جرحت بطنه فخاطها بهذا الخيط المغصوب وجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين فقررا أن الخيط مغصوب؟ أفكنت تنزع الخيط من بطنه، وتعطى الحرير

www.dvd4arab.com

لصاحبه، قال الشافعيّ: لا فقال محمد: الله أكبر، رجعت عن قولك إلى قولنا.

وهنا تأمل الشافعيّ فى وجوه القوم، وقال لا تعجلوا. ثم تقدّم لابن الحسن يسأله، قائلًا:

أرأيت لو كان لوح السفينة لمالك السفينة نفسه، وأراد أن ينزعه وهو فى لج البحر، أكان ذلك مباحًا له أم غير مباح؟

قال ابن الحسن: غير مباح بل محرم.

قال الشافعيّ: أرأيت لو كان خيط الحرير هو خيط المريض نفسه، فهل له أن ينزعه فينتحر، قال الحسن كلّا، بل محرم عليه أشد التحريم؟

ثم واصل الشافعيّ السؤال فقال: أرأيت يا ابن الحسن، لو أن مالك الأرض التى أقيم عليها البناء قد أراد هدمه أيحرم ذلك عليه أم يحل؟ فقال ابن الحسن: بل يحلّ.

فقال الشافعيّ ظهرت القضية إذ لا يجوز أن تقيس ما يحل على ما يحرم.

قال محمد: فكيف تصنع بصاحب السفينة، فقال الشافعى، آمره أن يسير إلى أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وقدّمه لصاحبه إن لم يرض بالثمن؟

فرد ابن الحسن يقول: روى عن رسول الله أنه قال: لا ضرر ولا ضرار.

فقال الشافعيّ: من الذى جلب الضرر؟ إنه الغاصب الذى أخذ غير حقّه.

وسكت الشافعيّ فقال ابن الحسن، هل عندك شىء آخر، فقال الشافعيّ لدىّ سؤال إن أردت، فقال محمد: عجّل به!

فقال الشافعيّ: ما تقول فى رجل من الأشراف غصب رجلًا من الزنج جاريته فولدت له عدّة أبناء شرفاء وأتى الزنجيّ بمن يشهد أن الجارية جاريته وأن الشريف قد اغتصبها.

قال محمد أحكم بأن الجارية للزنجى، وأولادها له لا للشريف.

فقال الشافعى أيهما أهون أن يهدم البناء وترد الأرض لصاحبها، أم تحكم برق الأولاد ورجوعهم إلى الزنجى؟

فسكت ابن الحسن، وقال: قد اكتفيت!

قال أبو الحسن الدامغانى لإلكيا الهراس. أنا كما تعلم من فقهاء الحنفية، ولا زلت مع هذه المناظرة الدقيقة، أميل إلى رأى الأحناف وآخذ به!

قال إلكيا: أنا أقرر ما كان، ولسنا الآن فى مناظرة جديدة، فضحك الجميع!

وهنا قال أبو طالب الزينبى، إن المناقشة فى مسائل الفقه مضمونة الخلاف، فلكل وجهة هو موليها ما دام يملك الدليل الذى يرتضيه، ولكنّ المناظرة فى مسائل علم الكلام تنتهى إلى الإفحام، حيث يتعذر على المخالف أن يأتى بما يقنع معارضه، وعليه حينئذ أن يؤثر الانسحاب! كما فعل أبو علىّ الجبائى مع أبو الحسن الأشعرى! صاح أحد الطلاب، وماذا كان من أمر هذا الشيخين؟

Looloo
www.dvd4arab.com

فهمَّ إلكيا بالقيام، وقال أراكم تريدون أن نتحدث حتى يشرق الصباح ! ولكنّ الطلاب تحلقوا عليه يرجونه أن يبقى ليكتمل الحفل، وصاح به رفيقاه الدامغانـــى والزينبـــى فاستجاب !

قال أبو طالب إن خلاف الأشعرى للجبائى مما يقال فيه ما يوم حليمة بسرّ، فكيف لا يعرفه السائل ؟

فقال إلكيا : لعلّه يعرف ذروا منه ويريد أن يستمع إلى تمام من إمام فاضل كالزينبى، فلماذا تبخل عليه، وقد جاء دورك فى الحديث !

قال الزينبى : جاء دورى : أهناك ترتيب ؟ فرد إلكيا : ترتيب غير متعمّد، إذ شاء الله أن نجتمع، وشاء الطلاب أن يسألوا، ولا مناص من الجواب .

قال أبو طالب الزينبىّ : قبل كل شىء أؤكد أنى ناشد حقيقة، ولست فى علم الكلام مع طائفة معينة، ولكنّى أعرف الدليل العقلى مقارنًا بالدليل النقلى، وأقرأ ما يقال من البراهين المختلفة، والقضايا المتعارضة، ثم أخلو إلى نفسى مستهديًا بصيرتى فيما أتجه إليه مستمدًّا من الله عونًا وتوفيقًا، وهو نعم المعين الموفّق، وفيما دار بين الأشعرى أبى الحسن وأستاذه أبى علىّ الجبائىّ، أقرر أنّ أبا على كان ذا عقلية جبّارة، وكان يصل إلى اللباب خائضًا دونه أحرّ الصعاب، وتنعقد حلقة النقاش وتتوالى الأسئلة فلا يكلّ ولا يملّ، وقد ورث عنه تلميذه أبو الحسن الأشعرىّ قوة المعارضة، وسرعة البديهة، وبُعد الغور، وعرف الأستاذ هذه المزايا لدى تلميذه، فكان

ينبيه عنه فى أحرج مواقف الحجاج، بل كان يحلو لديه أن يحيل عليه الجواب فى الحلقة، ثم يستمع مصغيًا فى تعجب، حتى قرّ لدى المعتزلة جميعًا أن الأشعرى وارث إمامته، وولى عهده، ثم جاءت مسألة الصلاح والأصلح فكانت مبدأ الخلاف !

قال تلميذ من المستمعين، أريد تحرير هذه المسألة ولو بإيجاز .

فقال الزينبى، ويلك، لقد اشتهرت المسألة حتى صارت من البدائة، ولكنى أجملها فى أن المعتزلة يقرّرون فيما يقرّرون أن الله عز وجل أوجب على نفسه أن يفعل الأصلح للإنسان، فكلّ ما يحصل للفرد من أمور فهو أصلح ما ننفعه، ولا يوجد سواه أصلح منه ! وهذا الكلام مردود عند أهل السنة، إذ لا يجدون النصّ المبين على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ! وقد فكّر أبو الحسن الأشعرى فى هذه المسألة، وجعل يقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ليهتدى إلى دليل مقنع، فلم يوفّق، ثم رأى بعد طول التفكير أن يناقش أستاذه أبا علىّ فقد يهديه سواء السبيل، وانتظر حتى انعقدت الحلقة، وتصور أستاذه للبحث، فنهض أبو الحسن يسأل قائلًا : ماذا يرى شيخنا فى قول المعتزلة بوجوب الأصلح على الله فيما يقدّر من الأمور .

فقال أبو على : أنت تعرف رأينا فى ذلك، فهل من اعتراض ؟

قال أبو الحسن، ما يقول الشيخ فى ثلاثة إخوة أولهم مؤمن

www.dvd4arab.com

برٌ تقيّ، وثانيهم كافر فاسق شقيّ، وثالثهم توفى صغيرًا فلم يُعرف منحاه !

فقال الجبائى : أما الأول ففى أعلى الدرجات بالجنة، وأما الثانى ففى أسفل الدركات بالنار، وأما الثالث فمن أهل السلامة فحسب .

قال الأشعرى : أليس الله فاعلًا للأصلح لكل إنسان، فإذا أراد الصغير أن يرتقى إلى درجات المؤمن التقى البار فهل يؤذن له ؟

قال الجبائى، لا يؤذن، لأنه يقال له إن أخاك قد وصل إلى هذه الدرجات بسبب ما أسلف من الطاعات، ولم تقدّم أنت مثله فتلحق به !

قال الأشعرى : فإذا قال الطفل الصغير، إن التقصير ليس منى، لأنك أمتنى صغيرًا، ولو تقدّم بى العمر لجئت بالطاعات .

قال الجبائى : يقول البارى جلّ وعلا، كنت أعلم أنه لو امتد بك العمر لعصيت، وصرت مستحقًا للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك !

قال الأشعرى، فلو قال الكافر مخاطبًا ربّ العزّة، يا إله العالمين، إنك علمت ما سيعصى به أخى، فاخترت الأصلح له وأمتّه صغيرًا، فلماذا لم تختر لى الأصلح وتميتنى قبل أن أقترف الذنوب .

فهاج الجبائى وقال : صه إنك مجنون !

فقال الأشعرى : لست بمجنون ولكن وقف حمار الشيخ فى العقبة .

فانسحب الجبائى، وقام الأشعرى فأعلن براءته من الاعتزال بعد هذه المناظرة الحرجة .

قال إلكيا الهراس، لقد أحسن شيخنا أبو طالب تلخيص ما كان، ولكنّى أرى أن هذه المسألة وحدها، لا يعقل أن تكون السبب فى خروج الأشعرى من الاعتزال، كما أنه لم ينسحب فجاء بعد أن انقطع شيخه عن الجواب، ولكن المعقول أن يكون أبو الحسن قد فكر فى أمور كثيرة، فالتبس عليه وجه الصواب فى أكثر ما يذهب إليه أبو على، ومن نحا منحاه، ثم جاءت قضية الصلاح والأصلح تابعة لأخوات لها من قبل، لم تجد الاقتناع من أبى الحسن فكانت خاتمة المطاف !

ظهر البشر على الوجوه، وأظهر الطلاب من الاستحسان والبشر ما جاوز التعبير إلى التصفيق، ثم قال قائل منهم لقد تحدث شيخنا إلكيا الهراس عن مناظرة الشافعىّ وابن الحسن، وتحدث شيخنا أبو طالب الزينبى عن مناظرة أبى على الجبائى وأبى الحسن الأشعرى، وبقى أن يختار لنا شيخنا قاضى القضاة أبو الحسن الدامغانى مناظرة ثالثة تكون مسك الختام .

فقال الدامغانى، يا أبنائى أنا مشغول بالقضاء، وشيخاكما متفرغان للتدريس، فهما مع العلم فى فيض لا ينقطع، وأنا مع العامة من الناس !

قال إلكيا : عفوًا شيخنا الكبير، وهل ارتقيت إلى مرتبة

Looloo
www.dvd4arab.com

قاضى القضاة إلّا بعد أن حصّلت ما لا نزال نعالجه من القضايا والمعضلات ! هلمّ أيها المولى، فالطلبة مشوقون !

قال الدمغانى، أما إذا أصررتم فسأتحدث عن مناظرة مشتهرة، ولكنّ بطلها عالم مجهول .

فصاح الزينبى : يالله، كيف تكون مناظرة مشتهرة، وبطلها عالم مجهول !

فابتسم الدامغانى وقال : هو ما تسمع، إنها المناظرة التى كادت تنتهى بها محنة خلق القرآن، ثم ارتفع صوته موجهًا الحديث إلى الطلاب كمن يحاضر، فقال :

تعلمون أن المأمون مال إلى رأى المعتزلة فى مسألة خلق القرآن، وأن المحنة قد امتد سنوات متصلة فى عهود المأمون والمعتصم والواثق، وأن خيار الفقهاء من سادة القوم قد نالوا أشد العذاب، وفيهم من مات شهيدًا تحت السوط، ومن قضى نحبه فى ظلمات السجون، ولعل حديث الإمام الصابر أحمد ابن حنبل وما كابد من العذاب يأبد لا ترحم من الشهرة بحيث ضرب به المثل فى التحمل والثبات، تعلمون ذلك ولا تجهلون، كما تعلمون أن قاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد كان يتصدّى للفقهاء لينا ظرهم بين السيف والسوط فى مجالس تُرهب الآساد وتفتك بالسباع، وفى مناقشات ابن أبى دؤاد من التطاول والتحامل، ومحاولات الإفحام ما لا يقف عند حد، والدولة ناصرة، والهوى متحكم، والباطل لجوج .

تعلمون ذلك جميعًا ولا تجهلون ! فصاح الملأ : أجل نعلم ذلك، ونعلم أكثر من ذلك، مما تشيب له النواصى، وتزلزل الأقدام .

قال أبو الحسن الدامغانى ! ولكنّ ابن أبى دؤاد الذى ألجم رؤساء الفقهاء، بما رتّب من قضايا هى إلى السفسطة أقرب، قد ألجمه شيخ مجهول، صمّم على أن يبذل روحه غير هيّاب، بعد أن يفحم ابن أبى دؤاد على رءوس الأشهاد، وفى مجلس الواثق بالله أمير المؤمنين، وهنا كانت المناظرة .

صاح المستمعون، وكيف كان على ذلك .

قال الدامغانى : لقد نقل إلى ابن دؤاد أن شيخًا من (اذنة) يجاهر بتخطئة الواثق وعلماء الاعتزال ويعدّهم بغاة، فتقدّم للواثق طالبًا استدعاءه لمزيد خطره، ونقل إليه من أقواله ما جعل الواثق يصمّم على أن يحضر مجلس النقاش .

وحانت الساعة الرهيبة فى مجلس حكومى قاهر يتصدره الخليفة ويجلس جواره القاضى أحمد بن أبى دؤاد، ويقف الشيخ (الأذنى) وحده جريئًا غير هيّاب، فيصيح به ابن أبى دؤاد:

ـ ماذا تقول فى القرآن يا شيخ؟ فيقول له الشيخ دعنى أسألك قبل أن تسألنى؟ هل كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئًا من الرسالة .

فقال ابن داؤاد، لا لم يكتم شيئًا .

ـ قال الشيخ أتحفظ قول الله عزّ وجلّ « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا »

قال أحمد : نعم أحفظ ذلك دون نزاع .

قال الشيخ : هل دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القول بخلق الكريم مع أنه لم يكتم شيئًا ؟

فقا أحمد : لم يدعُ إلى ذلك !

Looloo
www.dvd4arab.com

فالتفت الشيخ إلى الخليفة الواثق، وقال بلهجة واثقة : سجّل ذلك عليه، ثم سأل أحمد :

هل علم رسول الله شيئًا عما تقول من خلق القرآن ؟

فقال أحمد فى تردّد : نعم .

فقال الشيخ : وهل دعا الناس إلى الإقرار بذلك ؟

فقال أحمد، لم يدعُ إلى شيءٍ .

فقال الشيخ : هل علم به الصحابة والخلفاء الراشدون ؟

قال أحمد : لم يعلموه ! فصاح الشيخ بلهجة حازمة : وإذا لم يعلموه فكيف تعلمه أنت ؟ ثم التفت الى الواثق، وقال : سجل ذلك عليه يا أمير المؤمنين .

فتدارك أحمد يقول : إنهم علموه، ولم يذيعوه .

فقال الشيخ، وإذا لم يذيعوه، فكيف تذيعه أنت وتعذب عليه الناس، ثم التفت إلى الواثق، وقال: سجل ذلك عليه يا أمير المؤمنين .

وينظر الخليفة فيجد ابن أبى داؤاد مضطربًا لا ينطق، فيأمر بإطلاق الشيخ، ويعلن انتهاء المحاكمة، ويخلو إلى نفسه فيقول : شيء لم يدع له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخلفاء من بعده فكيف نعذّب عليه الناس؟ وظلّ ساهرًا ليلته لا يهنأ بمهجع !

هذه هى مناظرة الشيخ المجهول، فماذا تقولون فيها .

قال إلكيا الهراس، لقد امتعت الليلة بما لا يخطر على بال .

وقال الزينبى جئنا لنسمع مناظرة فى الوصيّة، فسمعنا عدة مناظرات، وذلك من توفيق الله، وأرجو أن يتكرر مثل هذا اللقاء ! فقد مضى أكثر الليل دون أن نحس بمسراه !

فصاح الطلاب، نرجو أن يتكرر اللقاء وذلك ما نتمناه !!

(فى مجلس أسامة بن منقذ)

تسامع علماء دمشق بمرض الأمير الفارسى الشاعر الكاتب أسامة بن منقذ، وكلّهم يعرف مكانته فى الفروسية النادرة، والشعر الصادق المؤثر، والتأليف الجامع المتنوع، ومنهم من حضر مجلسه، وحرص على أن يعدّه فى سجل أساتذته، فجعلوا يفدون للسؤال عنه زرافات ووحدانا، وفى أصيل يوم من أيام الربيع ذهب العماد الأصفهانى مع صديقه الحافظ ابن عساكر، والحافظ المقدس لعيادة الشيخ المريض، وكان قد جاوز التسعين، ولم يزل صحيح العقل، قوى الذاكرة، حاضر النادرة، إلّا أن جفاف يده، ورعشة أصابعه قد حالا دون الكتابة بالقلم، فاتخذ له كاتبًا، يسجّل ما يرويه، وألّف بعد التسعين كعادته فى زمن الكهولة وما قبلها، وهذا ما أدهش وحيّر .

وقد جلس الأصدقاء الثلاثة فى ردهة المنزل العامر، ينتظرون خروج الطبيب ابن بطلان من عيادة الأمير الأديب، وكان ابن بطلان ذا دراية بالأدب والطب معًا، فجعل يطيل حديثه مع المريض الشيخ مؤنسًا مسامرًا، دون أن يحفل بتقدم الوقت : فكان طول الزيارة مدعاة قلق للأصدقاء، إذ توهموا شدّة المرض، وأخذوا يسلّون أنفسهم بحديث عن أسامة وكلهم خبير به عليم .

قال العماد، ما تصفحت ديوان الأمير إلا شعرت بنبرة

Looloo
www.dvd4arab.com

آسية، وبلفح هادئ يثير مشاعرى، فالأمير على جلال مقامه وحسن بلائه. وجلوسه مجلس المشورة من الملوك والرؤساء، وذهاب صيته إلى كل مكان ينطق باللّغة العربيّة.

كان يطوى الطلوع على شجن بترح نراه فى مثل قوله :

وما أشكو تلوّن أهل ودّى ولو أجدت شكايتهم شكوتُ
مللت مقالهم ويئست منهم فما أرجو همو فيمن رجوتُ
إذا أدمت قوارصهم فؤادى صبرت على أذاهم وانطويت
ورحت إليهمو طلق المحيا كأنى ما رأيت وما سمعتُ
تجنّو إلى ذنوبًا ما جنتها يداى ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت عذرًا كما قد أظهروه ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيتُ

فهذا الشعر وأمثاله كثير يصوّر ضيقًا عنيفًا بمن؟ بأهل ودّه، وذوى محبته، فكيف يكون ضيقه بالبيداء الأقاصى، وفيهم من تناوله بالقدح ظالمًا، وآثر الأمير فى شيخوخته السلامة فأغضى على أسف.

قال الحافظ ابن عساكر : إن حياة الأمير ذائعة الأدوار، مشتهرة المواقف، وكلّنا نعرف ما قاسى من ذوى ودّه، لقد أخلص لعمه كل الإخلاص، وكان يقتحم المهالك دفاعًا عن حصنه فى شيزر، ويهاجم الصليبيين فى بسالة دار حديثها بين الناس، ظانا أن مواقفه البطولية ستتيح له مكانة فى قلب عمّه، وهو رئيس الأسرة، وسيد الحصن وحاكمه، ولكنّه رأى فى إعجاب الناس به، ما يطمس بريق ولده، وهو يعدّه للرئاسة من بعده، فأخذ يتبرّم بمكانه، ويضايقه بمخالفته، ويهجّن

ما يأتيه من صالح الأعمال، وللأمير فراسة لا تخطئ، فعرف ما يدور بنفس عمّه، وأدرك إلى أى غاية يرمى! إنه يحاول إبعاده، كيلا يصبح زعيم الأسرة من بعده! وإذ ذاك غلبته حميته، ففارق موطنه كارهًا، وترك من الذكريات به ما كان حديث الناس، وبنفسه ما جعل يؤرقه ويضنيه!

قال العماد : ليس هذا وحده ما كابد أسامة من أهل ودّه، بل إنه المشهد الأول من رواية متّصلة، فقد رحل إلى دمشق، وتأكدت صلته بالوزير معين الدين، فكان صاحب مشورته السياسية والشخصية، وقد خاض الحروب معه ضد الصليبيّين، كما كان يخوضها مع عمّه من قبل! ورأى الناس أن البطل الوافد أصبح رئيس الأبطال جميعًا، فنقم من حقد، وغار من نافس! ثم تجهم الحظ للوزير، فعُزل، وأفل بأفوله من كان يحيطه بالصداقة والمشورة، لأن أمير دمشق شهاب الدين بن موري رأى فى أسامة ساعدًا أول لوزير جافاه وباعده، فتحرش به، وهجم الرعاع على منزل أسامة فنهبوا داره، وسرقوا كتبه، وصادروا سلاحه، واضطر إلى الفرار من دمشق، كما اضطر من قبل إلى الفرار من شيزره، فرحل إلى مصر خائفًا يترقب!

قال الحافظ المقدسى، أكمل حديثك عمّا شاهده فى مصر، فأنا أرى اليوم شبيهًا بالأمس!

قال العماد : وكيف أحدثكما بما تعلمان، أنا أعرض ما أعلم لأجد تصحيحًا لبعض ما أقول إن أخطأت، وأنتما تعلمان أن مقامه فى مصر لم يكن بالهنىء المرىء، لأن فساد السياسة

Looloo
www.dvd4arab.com

بها، قد جعل الخلفاء والوزراء والجنود يتشاجرون وينافسون، وقد عرف الأمير بمصافاة من رآهم أهل الصدق، فدارت عليهم الدائرة، وبلغت الدسائس أفحش ما تبلغ من السوء، حيث قتل الابن أباه، وحارب الأخ أخاه، واستعان المسلم بالصليبى، وتعدّدت أدوار المأساة، ولابد أن يطير شرارها ليحاصر الأمير الوافد، فعمل جاهدًا على الرحيل، تاركًا أسرته بمصر، لتصل إليه بعد أن يستقر مقامه بالشام، محاربًا فى جيش نور الدين، ولكنّ سوء الحظ قد لازم الأسرة فى رحيلها من بعده، إذ داهَمَ مَرْكبها الفرنجة، فنهبوا ما حرصت على حمله من سبائك الذهب، ونفائس المؤلفات، وقد جزع الأمير جزعًا شديدًا على مكتبته المنهوبة، ولكنه حمد الله على سلامة الأهل، ولا يدرك أحد حسرة العالم على كتبه، كما ندركها نحن، وأسامة الشاعر العاطفى، أرق إحساسًا، وأبلغ تأثيرًا .. ولكنه كظم وساير عن استسلام لقدر لا حيلة له فى صنيعه، وقال من الشعر ما يبكى الجماد !

ضحك الحافظ ابن عساكر، وقال: الحافظ المقدسى، صار مؤرخًا مثل العماد، فقال العماد: ومثلك يابن عساكر !

فابتسم الحافظ المقدسى، وقال: إذا كان حديثى عن الأمير يجعلنى مؤرخًا، فهذا من بركاته، وإن كنت أعلم من نفسى غير ما تعلمان ! وسأسكت لتتحدثا أنتما بإشباع وإمتاع !

قال العماد: من فضل الله على الأمير أنه دوّن صحيفة حياته، فلم يترك مؤرخه فى حيرة معه، على أنه كان صادقًا كل الصدق فيما كتب، فنحن شهود الوقائع، ومذاكره مما

شهدناه يدل بصدقه، على إخلاصه فى رواية ما لم نشهد، وكلنا يعلم ما كان من أمره مع نور الدين، ثم مع خليفته صلاح الدين .. لقد كان صاحب مشورة الرجلين، وفارس مواقعهما، وصادق وخاصم، وصافى وجافى، ثم أدركته الشيخوخة المتأخرة، فحتمت عليه الانزواء، انزواء البطل المحارب، لا انزواء العالم الأديب ! إذ ما زال عطاؤه الفكرى يتدفق ويفيض !

وهنا خرج الطبيب يوحنا بن بطلان، وجاء خادم الأمير، يفسح للزائرين مجال اللقاء، فدهش أسامة حين رأى صفوة أصدقائه يجتمعون، وحاول النهوض من مكانه مرحبًا، فأقسموا عليه أن يستريح، ولكنّه عنف بخادمه قائلًا: قلت لى بعض الزائرين، ولم تذكر الأسماء، ولو علمت أنّ أحبائى ينتظرون لدعوتهم سريعًا لنشترك فى الحوار مع ابن بطلان !

قال الحافظ المقدسى: وأى حوار لى مع مثل ابن بطلان ! إن ألذ الحوار حوار الأمير الفارس، وهو ما نسعى إليه على شوق أكيد !

فرد أسامة، أعرف أن ابن بطلان لن يفيدك شيئًا فى علم الحديث، وأنت أحد أعلامه الكبار، ولكنّ الطبيب قد لابس الحياة، وخابر الناس، وله تجاربه الرائعة فلماذا لا نستمتع بمثله يا مقدسىّ !

قال العماد، أنا أعرف ابن بطلان معرفة القارئ الدارس، إذ قرأت رسائله فى الطبّ، ووقفت على محاوراته مع ابن رضوان طبيب مصر، ومثله ذو فضل لا يجحد ! ولو كان لدى

www.dvd4arab.com

الحافظ المقدسى فراغ لقرأ بعض ما كتب ابن بطلان، ولكن معضلات علم الحديث، قد استغرقت جهده، وله تلاميذ لا يتركونه يستريح !

قال ابن عساكر : وهل حدثك ابن بطلان بما يطمئن فى سير العلاج ! لتخفّ إلى ميدانك كعهدك من قبل !

فابتسم أسامة ابتسامة تكشف عن ألم سافر. وقال فى هدوء : معاذ الله أن أخدع نفسى يا ابن عساكر ! إن جهد ابن بطلان معى أن يمنع شدة الألم، لا أن يزيله، لأنّ من جاوز التسعين لا يطلب البرء، وإذا توهمه، فقد ودّع عقله، وللأمور خواتيم ومبادئ ونحن فى وقت الختام، ولكل أجل كتاب !

قال العماد : حفظ الله مولانا الأمير ! إن الغيب كتاب مستور، ولا ندرى من مكنونه شيئًا، فلنترك حديثه إلى طرف تاريخية أو قصائد شعرية تعودنا أن نسمعها من الأمير ..

قال أسامة، لم يخل حديث ابن بطلان معى من طرف نادرة، تصلح أن تكون مادة للمراجعة لدى الأطباء، وطرائف للسمر لدى الأدباء ! وأذكر أنه قال لى من ذكرياته « إن مريضًا بالاستسقاء قد استحكم داؤه، وورم بطنه، حتى يئست منه، ثم اجتاز بى مرّة، وقد زال عنه كل ما يجد، فقلت له : ألست الذى شاهدتك من قبل مريضًا بالاستسقاء وقد انتفخت وورمت ودقّت رقبتك؟ فبماذا تداويت حتى زال ما بك ؟ فقال والله ما تداويت بشىء، أنا رجل فقير صعلوك لا أملك شيئًا أتداوى به، وليس لى غير والدة عجوز، رأت ما أنا فيه من السوء، وعندها دنّ ملىء بالخلّ. فأخذت تسقينى منه الشىء

شفيت، قلتُ : وهل بقى من الخل شىء فأراه، قال نعم، فذهبت عجلًا إلى منزل العجوز، ورأيت دنّ الخل، فأفرغته فى وعاء لأرى ما به، فوجدت فى أسفله ثعبانين ميّتين، وقد تهرأ جسماهما، ولم تبق غير الضلوع والرأس، فقلبت كفًا على كف، وقلت يا بنى، ما يقدر أحد أن يداويك بخل يحمل سمّ الأفعى إلا الله عز وجل !

قال الحافظ المقدسى : هذا عجيب ! ويكاد يكون مستحيلًا .

فرد أسامة : الرجل صادق، وليس له نفع فى الكذب والاختلاق، وربما كانت سموم الأفعى قاتلة لجراثيم الجسم، فبدأ المريض فى الشفاء، وأقول ربّما لأننى لا أجزم ! ولأسرتى معه مواقف متعدّدة، فقد ظهرت بعض البقع البيضاء فى جسم إحدى عماتى وهى صغيرة، فخاف والدى أن تكون برصًا، ودعا ابن بطلان لمداواتها، فابتسم بعد أن قام بالكشف وقال لوالدى، أريد خمسمائة دينار، حتى أداويها، فظهر الغضب فى وجه أبى، وقال: لو طلبت ألفًا أو ألفين ما منعت شيئًا، فلماذا تشترط، فقال ابن بطلان فى لطف : يا مولاى، أنا خادمك وعبد فضلك، قلت لك هذا على سبيل المزح، لأن هذا البريق ليس مرضًا، بل علامات تظهر فى هذه السن، ومتى تقدم الزمن، ذهب كل شىء، وسترى، ثم مضت شهور وزال البريق، فسرّ والدى وعرف للرجل نبوغه وإخلاصه .

قال ابن عساكر، وعندى لابن بطلان نادرة أذكرها، فقد أتاه مريض، وهو فى دكانه بحلب، يكاد لا يتكلم من انقطاع

www.dvd4arab.com

نفسه، فسأله ابن بطلان: ما صناعتك؟ فقال: أنا مغربل، فقال لبعض تلاميذه: أحضر لى نصف رطل من الخل، وقدمه للمريض، وقال له: اشربه على عجل، فشربه، ومضت لحظات، فتقيأ الرجل، وبقيئه طين كثير مُزج بالخلّ، فارتاح وعاوده نشاطه، وأخذ يتكلم بسرور، وكأنه لا شيء به، فالتفت ابن بطلان إلى جلسائه من التلاميذ، وقال إياكم أن تداووا بهذا الدواء أحدًا فتقتلوه، هذا الرجل مغربل، يصعد الغبار إلى صدره كل يوم، فتراكم بالمرىء حتى حجب نفسه، فقلت لابدّ أن يتقيأ بالخل، ليذهب ما علق به وقد كان، فهى حالة خاصة لا عامّة.

فقال أسامة: عندى له طرف كثيرة، أوصيته بتسجيلها، لأن الطب تجربة، وبتسجيل هذه التجاريب بقلم نابغة كابن بطلان يستفيد الناس، ويتخرّج على يده الكثيرون، ولكن ليس كلّ قارئ يصلح للطب، فلا بدّ من الدراسة أوّلًا على يد نابغة متمرّس، ليعرف الدارس أنواع العقاقير، وخصائص الأعشاب من ناحية، وليرى المواقف العملية من مشاهداته لأستاذه، ومن يدرى فقد يسير فى الطريق ويبرع التلميذ شيخه الكبير.

ثم واصل أسامة حديثه فقال: إنّ من نرى من الإفرنج لا يعتمدون فى أمور المريض إلّا على رجل الدين فى الكنيسة، باستثناء ملوكهم وأمرائهم إذ لكلّ منهم طبيبه الخاص، ومهما عظم اطلاعه، فلن يبلغ مبلغ ابن بطلان وابن رضوان، ومن انتشر صيتهم لدينا من الأطباء، أذكر لكم

عجيبة من غرائبهم حدثنى بها كليام دبور صاحب طبرية، فقال: كان لدينا فارس شجاع داهمه مرض أشرف به على الموت، فذهبنا إلى قسّ كبير، قالوا عنه إنه ذو بصر دقيق بمسائل الطب، وأنه إذا عالجه عوفى سريعًا، فلما رآه القسّ قال أعطونى شمعًا، فأحضرنا له ما أراد، فأذابه ولينه وجعله مثل عقدة الأصبع، وأتى بعقدتين، فجعل كل عقدة من الشمع فى أنف الفارس المريض، ومضى وقت قصير فمات الفارس مختنقًا، فقلنا له: ما هذا لقد مات الرجل مختنقًا على يدك، فقال: كان يتعذب فأحببت أن أقطع نفسه ليموت فيستريح، قلت: وماذا صنعتم بالقس، فقال (كليام) لا شيء، طبيب أخطأ، وخطأ الأطباء مغفور!

فرد العماد، أعرف ما يشبه ذلك، فقد أصيب فارس من فرسانهم بخراج خطير فى قدمه، فعمل له أهله لبخة، ووضعوها على الدمل فكاد يبرأ، ولكن سوء الحظ أوقعهم فى طبيب إفرنجى مرّ بالمنزل، فعرضوا الأمر عليه، فقال لهم الأمر خطير ثم سأل الفارس: أيهما أحبّ إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين، فقال أعيش برجل واحدة، فقال أحضروا لى فأسًا قاطعًا وفارسًا قويًا، فجاء ما طلب، وتقدم إلى الساق فقطعها بضربة حادة سال منها مخ الساق فمات الرجل لساعته، فقال له أهل المريض، لقد خفّ المرض بعد اللبخة، فلماذا صنعت هذا؟ فقال أنتم لا تعرفون شيئًا، أجله قد جاء فهل أؤخره؟

ماكاد العماد ينتهى من حديثه، حتى قال الحافظ المقدسى:

www.dvd4arab.com

مالنا نسهب فى ذكر المرضى والأطباء، لقد جئنا لنتحدث مع الأمير عن مشاهداته الحربية، ومعاركه النضالية، بالله عليكم فارقوا هذا الجو، وافتحوا بابًا آخر.

فابتسم أسامة وقال: أعرف ما ترمى إليه يا صديقى، ولكن ثق أن تجربتى فى الحياة علمتنى شيئًا واحدًا، هو أن الأعمار بيد فاطر السموات والأرض، فكم تعرضت للموت المحقق، وهجمت على ضوارى السباع، وتهدم السقف فوق رأسى ثم نجوت، بل كم حزّ نى السيف، وتغلغل الخنجر، ثم ظن أهلى أن الفراق محتوم، ولكن البرء كان يسعف، فأعود للحياة، وكأنى رجعت من القبر، وفى الجهة الأخرى، كم رأيت فارسًا صنديدًا، يهجم على الكتيبة المدججة فيفرقها وهو وحيد، ثم يموت من شكة إبرة فى إصبعه، وكم هرب إنسان من وحش كاسر ليلدغه ثعبان حيث لا يتوقع وجوده! والحياة لغز معقد لا يحلّه إلّا من خلق الحياة، فلا خوف على نفسى من حديث الطب والمتطبّبين.

فرد الحافظ المقدسى، كل ما قاله الأمير مسلّم لاشك فيه، ولكن سيرته البطولية يجب أن تذيع وقائعها لتكون مثالًا يُحتذى، فنحن مانزال نواجه الصليبيين ولهم شراسة لا تحتمل، ومن حق الأجيال الناهضة أن تتلقى دروس الشجاعة عن الأبطال المغاوير.

قال العماد، معى دفترى وقلمى لأقيد ما سأسمع، إن لم يكن الأمير عازمًا على الاستراحة الآن، فابتسم أسامة قائلًا: أقسم بالله أن ضعف الشيخوخة قد فارقنى الآن، لأن حديث

العلماء يمدنى بنشاط حىّ، ولو عزمتم على الخروج الآن لعاودنى الضعف! لقد تحدثتم عن أنجع وسائل التربية الحربية للنشء المجاهد، وأنا أقول إن تجربتنا فى حصن شيزرْ قد أعطت مثالًا للفروسية المتيقظة، فإن هذا الحصن المشيد كان فى أيدى الروم، وقد انتزعه جدّى ببسالة نادرة، إذ جمع آل منقذ، وكوّن منهم جيشًا هاجم الروم فى غسق الليل، وأدار المعركة حتى أجبرهم على الجلاء بشروط تقدّموا بها فكانت موضع التنفيذ، ومنذ حللنا الحصن، والروم طامعون فى استرداده، والاسماعيليون كذلك يرغبون أن يكون مأوى أمينًا لمكايدهم، وفرنجة أوربا يهجمون علينا المرة بعد المرة فيرتدون خائبين، فى هذا الموقف المتأزم أمر جدى ووالدى من بعده، أن يكون كل فرد من أفراد الحصن بطلًا يحارب فى ميدان، لا يفارق سلاحه فى مشهد أو مغيب، فإذا فاجأنا الخطر تقدم الشيوخ والشبان والأطفال، حتّى نساء آل منقذ كان لهن دورهن، فتنشأ المعركة، ويدور القتال متكررًا عدة مرات فى العام الواحد، بل فى الشهر الواحد أحيانًا، ولكن التدريب الحربى بالحصن لا ينقطع، والعبيد كالسادة أبطال يعرفون واجبهم فى الدفاع، وأقول أبطال، لأن تقاليد أسرتنا لم تكن لتفرق بين سيد وعبد، مادام كلّ إنسان يؤدى دوره، وقد مكث الحصن فى أيدى آل منقذ، ولم يذهب به غير الزلزال وهو ما لا حيلة لنا فيه!

قال ابن عساكر: نعرف هذا ولا ننكره، وقد دوّنت بعض وقائع آل منقذ فى صحفى التى أكتبها عن الأعلام من الأبطال، ومواقف آل منقذ ذائعة تتردد!

Looloo
www.dvd4arab.com

فقال أسامة : من حقى أن أقول لكم إن الحرب سجال ، وأننا كنا نلقى الصليبيين خارج الحصن فننتصر ونهزم ، ولفرسانهم بطولة لا تنكر ، إذ أنّ أظهر خصائصهم الشجاعة ! وقد كنا ذات مرة ثمانية من الفرسان فغلبنا صليبى واحد ، أذكر هذا ليعرف الناس أن الهزيمة أمر محتمل ، وأنها لن تكون هزيمة إذا عولجت بالرد السريع .

قال العماد : أدهش كثيرًا حين أسمع أن ثمانية من أبطال آل منقذ ، قد غلبهم صليبى واحد ، فكيف كان كذلك ! قال أسامة : إذا كنت تصدقنى فى أنباء النصر ، فيجب أن تصدقنى فى أنباء الهزيمة ، ومؤرخو العرب ، وأنتم فى طليعتهم يعرفون للشجاع منهم دوره ، وقد سجّلوه فى حيدة وإنصاف ! بل منهم من سجّل مواقف البطولة للمحاربات الصليبيّات ، كما سجلوا بطولات بناتنا ونسائنا ، لأن التاريخ تاريخ !

فردّ ابن عساكر : أعرف عن إحدى الصليبيات قصة عجيبة ، كان والد الأمير أسامة أحد أبطالها ، فقد وقع فى أسره جماعة من الصليبيّات ، فيهن فتاة بارعة الجمال ، فقال لقهرمانة داره ، أدخلى هذه الحمّام ، وأصلحى كسوتها ، لأنها ستسافر هديّة لصديق أمير ، فلما أخذت الفتاة زينتها بعث بها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة جعبر ، ففرح بها كثيرًا ، واتخذها زوجة له ، وولدت له عدة أمراء ، منهم ولده بدران الذى جعله وليًا لعهده ، وتولّى بدران شئون البلدة ، وكان أميرها الحاكم الناهى ، وأمّه صاحبة الكلمة عليه ، ولكنّ عواطفها الصليبية تعتادها فتنغّص عليها ما هى فيه من نعيم

وجاه ، ثم واعدت نفرًا من أهل ملتها ، وتدلّت من القلعة فى الظلام بحبل متين ، ومضوا بها إلى بلدة سروج ، وهى يومئذ مع الإفرنج ، فتزوجت بإسكاف إفرنجى لا يملك قوت يومه دون صعوبة ، وابنها بدران بن الأمير شهاب الدين حاكم قلعة جعبر !

قال أسامة ذكرتنى هذه القصة بقصة امرأة مسلمة ذات أريحيّة وحماسة دينيّة ، فقد كان أحد من كتب الله عليهم الشقاوة من المسلمين ، يؤجر نفسه خادمًا لتوفيل الافرنجى صاحب كفر طاب حيث يمكر بالمسلمين ويسوقهم إلى الحتف على يد هذا الطاغية بالخديعة والاحتيال ، فكانت امرأته تضيق بما يصنع ، فلمّا طفح بها الكيل أحضرت أخاها وأخفته فى المنزل وحين جاء الليل قامت معه ، وذبحا الخائن ، وهربا تحت ستار الليل إلى قلعة شيزر ، وحين جاءت إلينا ناقشتُها فيما صنعت بزوجها ، فقالت ليس زوجى وهو يقتل المسلمين ، ويخدم الكفار ، هو فى النار ، وأنا فى الجنة بإذن الله !

وحادثة أخرى أرويها وقد شاهدتها مشاهدة العيان ، حيث قدم جماعة من الفرنجة إلى حصن شيزر فى غيبتنا ، وكانوا ما بين سبعمائة وثمانمائة من الرجال والنساء ، فاحتلوا الحصن ، وكنا جميعًا فى قتال العدو على بعد كبير ، وبقيت بعض النساء منا ، فكانت إحداهن وهى التى تسمّى (نضرة) تعمل الحيلة ، فتفتح باب منزلها ، وتشير إلى صليبى فيأتى فرحًا ، ظانًا أنها اختارته فإذا جاز عتبة البيت أوصدت الباب وراءه وعاجلته بالسيف ، ثم استدعت غيره فاجتمع لديها فى

www.dvd4arab.com

هذه الليلة عدة جثث لقيت الحتف بتدبيرها، ثم عدنا فى منتصف الليل ودارت الحرب بيننا وبينهم، فكانوا هم الخاسرين، إذ قتل من قتل، وفرّ من فرّ فى ذعر شديد، وكانت خيلنا تعثر بجثث القتلى فى الظلام حتى وصلت الدماء إلى ما فوق الأرجل.

قال ابن عساكر: نسينا أن نتحدث عن أخلاق الفرنج، وعلاقتهم بأزواجهم، وقد قرأت للأمير فى بعض كتبه طرائف من هذا الباب!

فقال أسامة، إذا كنت قرأت فتذكر، وأساعدك بالتكملة إن اسطعت!

فرد ابن عساكر، قرأت ما قلته عن فقد الغيرة، إذ قد يسير الرجل مع زوجته، فيقابلهما افرنجى يعرفهما، فيظل يحدث الزوجة وحدها قرابة الساعة، والزوج ساكت لا يتكلّم، ثم يطول الوقت، فيسرع الزوج بالرحيل، ويقول لزوجته سأسبقك إلى المنزل، فتعالى بعد فراغ الحديث، ولا يرى فى ذلك ما يُعاب.

فابتسم العماد الأصفهانى، وقال: قرأت للأمير ماهو أطرف! إذ تحدث عن أمر شاهده بنفسه، فقال إنى كنت فى نابلس أنزل دارًا لها عدة نوافذ، بحيث أطلّ فأجد دور الفرنجة أمامى، فجاءنى خادمى يروى لنا قصّة طريفة وقعت فى البيت المقابل، إذ دخل بعض أصحابه فرأى زوجته نائمة على الفراش وبجانبها صليبى غريب عنها، فقال بهدوء للرجل، من أدخلك إلى بيتى، فقال: كنت متعبًا وجئت لأستريح،

فقال، ومَن صعد بك إلى الفراش، فرد عليه: رأيته وقد اشتقت للنوم فاستلقيتُ عليه، قال وكيف تنام جوار امرأتى، فقال: وجدتها نائمة أأطردها من فراشها؟ نامت ونمت! فقال له: لا تعد إلى ذلك مرة أخرى، وإذا فعلت تخاصمت أنا وأنت، وانتهى النقاش بما قال الزوج! أما الإفرنجى الذى صحب زوجته إلى الحمام ليحلق لها الحجام شعر العانة فأمره معروف! والحديث فى هذا الوادى لا ينقطع، فلنتركه إلى سواه.

قال الحافظ المقدسى، أطلنا الحديث يا قوم، ومن حق الأمير أن يستريح، فقد أتينا لنطمئن ونسير، ولم نجئ لنتعب الأمير بالسهر، وهو قريب عهد بالطبيب.

فقال أسامة، ماذا تقول يا رجل، والله إن العافية دبّت إلىّ منذ أخذنا نتسامر، وكثيرًا ما جاش الكلام بخاطرى، عقب كلّ لفظ تتفضلون بقوله، ولكنى آثرت الاستماع لأغنم.

فرد الحافظ، ومادام الأمير ـ عافاه الله ـ مستعدًا للحديث، فكلنا آذان!

فقال أسامة، لندع فضول اللغو عن النساء، ولنتحدث عن المكارم، فالله يعلم أنى أقدر المروءة حيث كانت، وأهيم بمكارم الأخلاق حيث تبدو، وسأتحدث عن طرفة خلقية سمعتها ممّن وقعت له أحداثها، فقد حدثنى أحد ساكنى الطور فى أثناء إقامتى به، قال: كنت أقوم بالصيد فى الصحراء، وتباعدت غير متئد، فوقعت فى يده جماعة من الفرنجة، فأخذونى إلى موضع يسمى بيت جبريل، وسجنونى به،

www.dvd4arab.com

وقالوا إن هيئتك تدل على اليسار، ولن نفرج عنك حتّى تفدى نفسك بألفى دينار، قلت: أنا ابن والى المدينة، وفى طوقه أن يدفع ما تريدون إذا أطلقتمونى، وبعثتم معى من يقبض الفداء، فاستهزءوا بى، وقالوا أأنت مجنون أم نحن ؟ لابد أن يأتى الفداء قبل أن تطلق، وبعد يومين جاء إلى السجن بدوىّ وقع فى أيديهم، ففرضوا عليه خمسين دينارًا، وليس معه شىء، فقال لى بعد أيام. أستطيع أن أخلصك لو ضمنتنى بالخمسين، فخلصنى حتى أخلصك، فقلت له وماذا علىّ، وقدمت إلى السجان فقلت له أطلقوا البدوى، ويكون فدائى ألفين وخمسين، ليذهب إلى والدى فيأتى بالمبلغ جميعه وأطلق فطمع السجان، وأطلق البدوى، ومضى شهر طويل لم يأتنى شىء من أبى، فيئست، وفى ليلة من الليالى رأيت ثقبًا يفتح علىّ من السجن وقد أطل البدوى برأسه وهو يقول: ارفع معى الطوب لتهرب قبل الفجر، فعاونته، وانطلقت من الجدار، فقال لى: والله إنى أحفر هذا السرب من قرية خربة منذ أطلقتنى بضمانك، وظللت أحفر حتى وصلت إليك، ثم صحبنى حتى أوصلنى إلى منزلى، وجعلت لا أدرى أأعجب من طول صبره ولطف حيلته أم من حسن وفائه، وصدق عهده، وقد دعوته للبقاء معى فقال، لا أعيش إلّا فى البادية مع أهلى، وتركنى دون أن يقبل دينارًا واحدًا، إذ رأى ذلك نقصًا فى مروءته !

حكى الأمير أسامة قصته وعيناه تبرقان، ووجهه يتألق بالبشر، فقال العماد: الحمد لله لقد رجعت إلى شبابك يا سيّدى إذ بدت علائم العافية عليك بما نحمد الله عليه !

قال أسامة وأنا أحسّ بذلك، وسأروى لكم مروءة نادرة بطلها شاب نصرانى يسمى يونان حيث أرسلت ذات عام مملوكًا لى فى شغل مهم إلى دمشق، وفى الطريق عرف شابًا نصرانيًا فاكترى منه بغلًا ليمضى به إلى طرابلس، فسار معه الشاب إلى المدينة، وأخذ أجره ثم رجع بالحيوان إلى مقرّه، وانتظم المملوك فى القافلة المسلمة الذاهبة إلى دمشق، فلقيهم شاب عربى وحذّرهم المسير لوجود عصابة تقطع الطريق من الفرنجة، وهى مدججة بالرماح والحراب قال المملوك فوقفت القافلة فى ارتباك، لا يدرى أناسها ما يعملون، وقد يعودون من حيث جاءوا فتعقّبهم العصابة، وفى هذه الحيرة رأينا شابًا يتجه إلى القافلة مع فريق من قومه، فنادى باسمى، فتوجهت إليه فى ذعر، فقال علمتُ أن عصابة ستقطع الطريق، ولى معها عهد، وسأحميكم جميعًا، ثم تقدم القافلة، فهجمت العصابة بعد مسير ساعة، فتصدّى يونان لها، وقال: هى فى حمايتى، وأنا أحفظ عهدكم فلابدّ أن تحفظوا عهدى، فتراجعوا على أعقابهم وعانقنى «يونان»، ثم ارتحل، فجعل كل من بالقافلة يتوجهون إلىّ بالشكر، ويقولون نجونا بك ! نجونا بك ! قال العماد، لقد اتسعت الليلة لذكر مفارقات كثيرة، فشاب نصرانىّ ينقذ قافلة مسلمة من الهلاك، ومسلم يستأجره أمير صليبى ليقتل المسلمين بالخداع، فتسخط امرأته، وتغتاله فى جنح الظلام ! وبدوىّ يحفر فى الأرض شهرًا طويلًا لينقذ سجينًا وفاءً لعهد قطعه ! وإفرنجية تترك زوجها الأمير لتتزوج بإسكاف لا يجد قوت يومه ! أليست هذه غرائب !

www.dvd4arab.com

قال أسامة ، وغريبة الغرائب أن يصرّ إنسان أعمى على أن يركب الفرس ، ويأخذ السيف ، ويندفع إلى قتال الأعداء ، فابتسم الحافظ المقدسىّ ، وقال هات هذه الطرفة لتكون مسك الختام ، فقال الأمير :

كان بالقدس شاب عربى متين القوى ، شديد البأس ، فأخذ يدّعى أن أمّه متزوجة من إفرنجى ، ويصاحب الصليبى إلى منزله فيقتله ، ويجرده من سيفه وماله ، وقد ظهر أمره ظنًّا لا حقيقة ، إذ تحيّر الفرنجة فيمن يقوم باغتيال رجالهم ، واتهموا الشاب بمزاولة الجرائم دون دليل ، وقد تكاثروا عليه ، وكان لديهم جبٌّ ملىء بالماء فرموه به ، وقالوا إن كان بريئًا خلص ونجا ، أو متهمًا أراحنا الله منه ! وتلك عادتهم مع كثير من المتهمين ! ولكن الشاب قد تعلق بما أنقذه ، وأخذ يصعد فى الظلام فاصطدم بعمود حديدى ذهب بعينيه ، فقالوا : لقد أخذت جزاءك ، ثم سار الشاب الضرير إلى دمشق متجهًا إلى الأمير معين الدين ، فعرض عليه قصّته ، فقال له سنأمر بمن يعلمك القرآن ، وتعيش مع العميان ، فبكى الأعمى ، وقال : هاتوا لى فرسًا ، واتركونى ، وسأشترك معكم فى القتال ، ناظرًا بنور الله ! وتعجب معين الدين مما سمع ، ولكنه حقق رغبة الشاب ، فكان يهجم بفرسه ، ومعه السيف ، ثم يعود مرتاح النفس متشوقًا للنضال .. قال العماد ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب ! لقد أمتعنا الأمير بما يسجّل ويُروى على الأحقاب وسنكرر هذه الزيارة لنستفيد !

فرد أسامة ، تتكرر دائمًا لتقرّر فلا يتغير لها ميعاد ! بإذن الله .

قال الجميع بإذن الله ، وخفوا منصرفين ...

الترف المبيد

- ١ -

هاجم هولاكو بغداد ، فجعلها حصيدًا ، كأن لم تغن بالأمس ، حيث استمر القتال سبعة أسابيع متصلة ، وهو قتال من طرف واحد ، استعمل فيه الغازى الفاتك شتى ضروب الاستئصال والتدمير ، والإحراق والإغراق ، ولا تسأل عن القصور المنسوفة ، والمتاجر المنهوبة ، والمساجد المحطمة . والمكتبات المحترقة ، والزروع المستأصلة ، ولكن قف أمام الرقم المخيف ، الذى ذكره المؤرخون ، حين قالوا إن بغداد كانت تحتوى على مليونين ونصف من الأناس ذكورًا وإناثًا ، شبابًا وشيوخًا ، فانتهت إلى نصف مليون فحسب ! فإذا قال القائلون إن الدماء قد سالت أنهارًا فلا مبالغة ولا إغراق .

ورجفت الراجفة فى كل بلد عراقى ، فالناس يتوقعون الموت الراصد ، والبلاء الحاصد ، واجتمع الرجال داخل مسجد الكوفة ، يسمعون صراخ الأئمة على المنابر ، وقد وقف شمس الدين الكوفى فألقى خطبة باكية ، تابعها السامعون بالزفير والشهيق فلعن الطغاة ، وحكم عليهم بالخلود فى نار الله ، وتلا قصيدة أولى من إنشائه كان مطلعها :

عندى لأجل فراقكم آلام ... فإلام أعزل فيكمو وألام
قف فى ديار الظاعنين ونادها ... يا دار ما فعلت بك الأيام

Looloo
www.dvd4arab.com

ولم يفارق المجتمعون مسجدهم، إذ رأوا فى التقائهم ما يذهب بعض الحسرة الواقدة التى تخف قليلًا بالتخاطب والتشاور، فدام التنديد بالخطب على المنبر، وبالمناقشة فى الحلقات، وليس لدى القوم من قوة تعوق الزاحف، أو رئاسة تجمع الصفوف من المدن المختلفة لتصد الوباء الزاحف، فكان ظلام المأساة يزداد سوءًا كل لحظة تمر، وجاء اليوم الثانى فوقف شمس الدين الكوفى على المنبر يواصل لعن التتار والمغول، وينعت هولاكو بالكلب القذر الدنىء، ويستحث الجموع حيث لا أمل، ثم تلا قصيدة ثانية من إنشائه كان مطلعها:

إن لم تقرّح أدمعى أجفانى ... من بعد بُعدكمُ فما أجفانى
ما للمنازل أصبحت لا أهلها ... أهلى ولا جيرانها جيرانى

فأثار المشاعر، وهيّج البلابل، وكان فى المجتمعين ولده عبد الرحمن وتلميذه الوفى سليمان بن نصر، فانتبذ سليمان مكانًا بعيدًا، ونادى عبد الرحمن ليقول له: لابدّ أنْ نقول لشيخنا أن يمتنع عن هذا اللعن الشديد للطاغية، فإنى أتوقّع أن يهجم علينا بين يوم وليلة، ثم يجد من يخبره بما ساق الشيخ من لعنات، فيكون أوّل وقود لنار نخاف أن تجعل الكوفة حصيدًا كبغداد.

قال عبد الرحمن، ومن الذى يجرؤ على أن يثنيه عن خطبه وقصائده، إنى أتخيّل ضلوع والدى موقدًا يتأجج باللهيب، وماذاق شرابًا منذ نزلت النكبة ببغداد. أقول شرابًا لتعلم أن الزاد لم يخطر له على بال فقال سليمان. لو أغنت هذه

اللعنات لكنّا أول من يردّدها، ولكنّها لا تفيد غير الوبال، والعقل ينادى بالاتئاد، وأنا أتوقع أن يكرر الخطبة والقصيدة فى اليوم الثالث، وعلينا أن نناقشه الآن فنُبدى شكوكنا الخاصة بهجوم الطاغية على بلدنا الآمن، ونقول إن بقاءه حصن للكوفة، فهو مستشارها الناصح، ومرشدها الأمين، وقد يأذن الله فيحدث خيرًا برأى ناجع أو مشورة طيبة، هيّا يا عبد الرحمن ننقذ أباك.

ذهب سليمان إلى شيخه فأخبره أن عبد الرحمن بمنزله، وقد بعث إليه ليدعو والده إلى حضور عاجل، لأن والدته تعانى أشد أزمات المرض، وتريد أن تلقاه، مستبطئة غيابه غير متمهلة.

قال الشيخ: وهل فرغنا من نكبة العالم الإسلامى جميعه حتى نتفرغ لنكبة امرأة واحدة.

قال سليمان، هى زوجتك يا مولاى، ولا أنبهك إلى حقّها عليك، فأنت مَنْ أرشدتنا إلى الحقوق والواجبات، سار الشيخ شمس الدين حزينًا كاسف البال إلى منزله، وقد أشار عبد الرحمن على والدته أن تتصنّع المرض، وهى فى حقيقة حالها مريضة لا تحتاج إلى تصنع، ولكن عليها أن تظهر أن الأزمة شديدة، كيلا يثور الشيخ على تلميذه إذا وجد غير ما يتوقّع، فلمّا وافى البيت سارع برؤية المريضة، فأخذ يطمئنها داعيًا مستعبرًا، ثم جلس لحظات، فدنا منه ولده عبد الرحمن ليقول له؛ سليمان معى، وله معك حديث، فقال الشيخ، ولا أحبّ لدىّ من حديث سليمان فهو أصدق تلاميذى، وأعدّه ولدى مثلك يا عبد الرحمن، وانهض إلى لقائه فى حجرة

www.dvd4arab.com

قريبة فوجد عينه تفيض بالدمع ولمس من دلائل الحزن فى وجهه ما لاشك فيه فصاح به :

ما حلّ بك يا سليمان، الخطب خطب الأمة كلها، لاخطبك وحدك فتماسكْ !

قال سليمان، قد تماسكت يا سيدى، ما استطعت، وأنا تلميذك الذى يفديك بحياته، ولا بد أن تسمع قولى !

قال شمس الدين، كلّى سمع يا بنىّ، فهاتِ ما لديك ؟

فقال سليمان، الكوفة كلها محتاجة إليك، أنت نظامها الجامع، وسياجها الدافع، ولابدّ أن تفكّر فيها إذا نزل بها مكروه! فتأوّه شمس الدين، وقال: وماذا أصنع يا بنى والكارثة فوق طاقة البشر .

فرد سليمان، أنت تلعن الكافر هولاكو قبّح الله سيرته، وكلّنا نلعنه باطنًا وظاهرًا، ولكنّ سيلم بكل ما تقول، وطبيعى أن ينتقم الفاجر ممّن لعنه على المنبر عدة مرات !

فابتسم شمس الدين وهو يقول: أترفض أن استشهد فى سبيل الله يا سليمان ؟

فرد يقول، نحن نفكر فى أمر الكوفة، فى أطفالها فى عجائزها فى نسائها فى أيتامها، كل هؤلاء فى حاجة إلى حياتك، وأنت بمنزلتك فى الناس قادرٌ على أن تبل الظمأ عند الجفاف، فإذا خلت الكوفة منك فمن يكون للضعاف، من يأمر باسم الدين فيلبيه الآلاف، أنت لست لنفسك ياسيّدى، ولكنك للجميع !

سكت شمس الدين قليلًا، ثم قال: وبماذا أبدأ الآن، قال عليك، أن تطمئن الناس إلى أن الله حىّ باق وأن ليس لها من دون الله كاشفة، وأن تجعلهم يتركون المسجد إلى العمل فى تحصين المنازل، وستر الأموال، ورعاية الضعفاء، كيلا يفاجأوا بأكثر مما يتوقعون، فإذا استمع القوم لمشورتك، كان لنا معك حديث .

قال الشيخ: الحق أن الاعتصام بالمسجد لا يُجدى، وسنذهب جميعًا لألقى خطبة تتضمن ما تقول، ونرجع إلى مكاننا هذا، فنبدأ الحديث، وسار الشيخ ومن ورائه صاحباه .

- ٢ -

لم يكد شمس الدين وتلميذاه يدخلون المسجد، حتى رأوا شبه ارتياح على الوجوه، وكأن أمرًا حدث قد بدّل الوضع من حال إلى حال، فتساءل الشيخ عما حدث فى غيبته، فقيل له إن كوفيين قدمًا من بغداد يحملان أنباء مطمئنة للأقاليم إذ رحل هولاكو بعد أن ألّف وزارة بقيادة ابن العلقمى تحكم البلاد تحت رعايته وفى ضوء توجيهه، وقد حمل الطاغية حين رحل قطارات من الإبل تحمل أكداس الفضة والذهب وأطباقًا وملاعق ومدًى من النضار الخالص، هذا إلى مئات العقود من اللآلئ والمرجان، وتحف نفيسة من الماس ومن الدر الخالص، ممّا وجده فى قصور الخلافة والوزراء والأعيان، حتى كان أتباعه يرون السقف مزينًا بالذهب فيسقطونه ليأخذوا منه خالص التبر، ولا تسل عن الأثاث الفخم، والرياش الثمين المطعم بفصوص العسجد، وحبات اللؤلؤ، مما يبهر العيون،

Looloo
www.dvd4arab.com

وقد حملته قوافل الإبل، تتقدمها عجلات تجرها الأحصنة، ومعها مالا نستكثر معه ما سمعناه عن كنوز سليمان! وليس يهمنا ما ذهبوا به، لكن يهمنا أن نلتقط الأنفاس.

قال شمس الدين متحسرًا، تقولون: ليس يهمنا ما ذهبوا به، كأن أيتام العراق وفقراء الرافدين، ومساكين البصرة والكوفة والموصل وكركوك وداربل لم يكونوا أحقّ بما حمل من أموال.. لاحول ولا قوة إلا بالله:

فصاح بعض من استمعوا حديث الشيخ قائلًا: حنانك يا مولانا، لقد كانت هذه النفائس جميعها فى قصور الحاكمين والأعيان وكبار المرابين من التجار، والوصوليين من النخاسيّين، ومساكين هذه المدن التى ذكرتها لا ينتفعون منها بدانق، فنحن مثلًا فى الكوفة نشعر أننا لم نخسر شيئًا بضياع هذه الأموال! لقد كانت وقفًا على متع المترفين! وقد صدق الله عز وجل حين قال: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرًا»، أليس ذلك ما سمعناه يا شيخ الكوفة شمس الدين!

قال الشيخ: رفقك يا بنىّ، فنحن أكرم من أن نشمت بأهل بغداد، هم منّا ونحن منهم، وإذا كانوا من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يعطون حق الله فيها للفقير والمسكين فحسابهم إلى الله! هم إخواننا والمصاب مشترك، فالمؤمن لأخيه كالبنيان يشد بعضه بعضًا! ثم علا صوت الشيخ وهو يقول لمن حوله: انصرفوا رحمكم الله إلى أعمالكم فقد هدأت الحال، وسنرى ما تفعل الأيام!

وأخذ المجتمعون يتفرقون شيئًا فشيئًا، وذهب الشيخ إلى حجرة الإمام بالمسجد، ومعه تلميذاه، فقال حين جلس: سبحان الله! يغيّر الأمر من حال إلى حال، كان المسجد منذ ساعة وعلى مسافة يومين متصلين مزدحمًا ليس فيه موضع خال! وها هو ذا الساعة كالقاع الصفصف!

فقال ولده عبد الرحمن: لقد دافعت اليوم عن موسرى بغداد يا أبى، وقد عهدناك فى خطبك المتكررة تشن الحرب على المترفين، فماذا جدّ، ألم تكن ترى أن من يكنزون الذهب والفضة فى قصور بغداد آثمون يمنعون حق السائل والمحروم، وكنت تقول إن العاقبة وخيمة، وستقع عن قريب، كأنك ترى بنور الله!

قال سليمان، وعندى كراسات مليئة بوعظ شيخنا، وقد جمعت من دلائل الإسراف، وأمارات التبذير ممّا وقع فى بغداد واستفظع الشيخ حدوثه- ما يملأ كتابًا يصح أن نسميه صحائف المبذّرين! مبذرين فى الأعياد، وفى الهدايا، وفى ابتناء القصور، وامتلاك الوحوش بحدائق الحيوان، وفى تراكم الأثاث الفاخر، والرياش النفيس، وفى ملذات الطعام والشراب، وفى جواهر القيان، وأزياء الغلمان، حتّى فى المآتم وهى أولى بالاحتشام، ولكنها صارت مواسم للمباهاة تجهيزًا وتشييعًا ودفنًا، وبناء مقابر كالقصور.. أمّا ما يحدث فى الأفراح والأعراس فقد جمعت فصلًا طريفًا عنه، لا من كتب التاريخ، بل من كلام شيخنا شمس الدين نفسه، فصلًا يحوى الباهر المدهش من الغرائب، وعناصره الفكرية

www.dvd4arab.com

ماتزال تملأ ذاكرتى، فإذا أراد الشيخ أن أسمعه بعض ما جمعت من قوله عن مواكب الإعراس فأنا على استعداد !

قال شمس الدين: تجعلنى أبتسم يا سليمان لأول مرّة منذ سمعت بنكبة التتار، إذ تحفظ عنى ما نسيت، ولو كلّفت أن أقوله ما وجدت لدىّ منه شيئًا، فهيّا نتذاكر ونستعيد.

قال عبد الرحمن: وأنا يا أبى أذكر كثيرًا مما قلت عن مواكب هذه الأعراس فى خطب متعدّدة، أخذت تندد فيها بالترف والمترفين، فهل أقول ما لدىّ.

فربت شمس الدين على كتف ولده، وقال، إذا نسى سليمان شيئًا فنكّره، إذ يقول إنه سجّل فصلاً تاريخيًا مما سمعه منى، وهأنذا أنقلب تلميذًا أسمع منه، وأنا مغتبط سعيد !

قال سليمان: تخجلنى يا سيدى ! أنت أستاذ علماء الكوفة جميعها، وشاعرها الجهير، فإذا تواضعت معى، فإنك تزداد بهذا التواضع رفعة وحبًا فى القلوب ! ولكن مادام عبد الرحمن قد وَعَى ما أعى، فلنتبادل القول، أذكر غرائب عرس سابق فيتبع بلاحق.

قال الشيخ هو ذاك، فهيّا يا سليمان، ولا توجز، لِنَنْسَى بعض ما نحن فيه !

فبادر سليمان يقول، أذكر أن شيخنا أثنى على المنصور. وقال إنه كان يضع المال موضعه الصحيح، وحين بنى بغداد كان يحاسب عمّاله على كل دانق، ويباشر أدوات البناء بنفسه ليرصد أثمانها وفق ما يعلم من حال الأسواق، وهو لم يعرس بزوجة، إذ شغله الملك عن اللهو، ثم جاء المهدى، وكان شابًا

ذا تطلّع، فبدأ يُسرف، ولكن بقدر، وقد أعطى الخيزران ما أرادت، فملأ قصورها برياش الملك، ولكنْ على وضع يحتمل، ولم تكن الخيزران راغبة فى الترف الزائد، لأن عهد المنصور قد طبع الأمة بطابع الاقتصاد، ومهما توسّع المهدى فهو ابن المنصور، الذى كان يعد عليه خطواته وهو ولىّ العهد، فإذا أعطى شاعرًا أكثر مما يستحق، عجّل فدعا الشاعر ليأخذ منه قسرًا ما أخذ، كما حدث مع الشاعر المؤمل، لذلك كان المهدىّ إذا أنفق لا يكاد يفارقه شبح أبيه حيًا وميّتًا، والخلافة تحتاج إلى نفقة دون شك، ولكن النفقة المقبولة شىء والبذخ المتلاف شىء آخر ! وهذا ما تحاشاه المهدى !

قال شمس الدين: أنا قلت ذلك؟ فرد ولده عبد الرحمن: صدق سليمان يا أبىّ، فقد سمعت كما سمع، فابتسم مشجّعًا وقال ثم ماذا يا سليمان !

فقال ابن نصر: قلت إن الرشيد أوّل من بالغ فى الترف، لأن موسى الهادى كان على طريقة المنصور شدّة وإمساكًا، فاغتاظ منه من أنفوا بعض الخفض فى خلافة المهدى، وتآمروا عليه، وكان من هؤلاء أمه الخيزران! أرأيت يا سيدى أمًا تتآمر على ولدها ؟

فقال شمس الدين! هذا ما كان، فلا تسلنى يا بنـى، واسترسل، فقال سليمان، سجلت عنك قولك إن الرشيد كان ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم. وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونًا من الطعام، وقد ذكر أبو يوسف قاضى القضاة أن الرشيد حين بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ

Looloo
www.dvd4arab.com

وليمة لم يسبق مثلها فى الإسلام، وجعل الهبات فى هذه المناسبة مجال الدهش والاستغراب، إذ كان يهب أوانى الذهب مليئة بالفضة، وأوانى الفضّة مليئة بالذهب، كما كان يهب نوافج المسك مختلطة بالعنبر، وقد بلغ جملة ما أنفق فى هذا الزفاف من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم، كما أمر الرشيد أن تُجلى زبيدة فى درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن، وزيّن ثوبها بجواهر كثيرة فلم تقدر على حمله لكثرة ما يضم، وانطلق خلفها الجوارى يحملن أذيال الثوب من كل مكان! ولم تقنع زبيدة بماحباها به الرشيد، إذ أمرت بأن يُصنع لها بساط من الديباج يجمع صور الحيوان من جميع الأجناس، وكذلك صور الطيور، ولكل طائر أو حيوان عين من الذهب أو الفضة، وكان ثوبها محلّى بجواهر ويواقيت تصلح وحدها أن تكون بيتًا لمال الخلافة كلها! قلت هذا يا سيِّدى فى مجال الانتقاد، وكنت تقوله، ووجهك يلتهب غيظًا، وأذكر أن بعض المستمعين قد سألك قائلًا: أتغضب يا شيخنا لأمر وقع منذ أربعمائة عام! فقلت: لو استقام الحاكم على الطريق منذ عهد على بن أبى طالب لما وُجد بين المسلمين فقير فى أى مكان! فأمّن الناس على قولك!

قال شمس الدين، تذكرت هذا السؤال يا بنىّ! فهات ما لديك.

قال عبد الرحمن لا يا أبى، لقد ذكر سليمان ما قلته عن زفاف الرشيد، فما قلت منه شىء، وأريد أنا أن أذكر ما قلته عن زفاف المأمون، ولسليمان أن يستدرك علىّ ما قد أنساه.

قال سليمان أنت قوى الذاكرة، وما أظننى سأستدرك، فهلمّ، فضحك شمس الدين، وقال تتقارضان الثناء أمامى، فعديًا عنه، قل يا عبد الرحمن.

قال عبد الرحمن: أقيم احتفال الزواج على شاطئ نهر كبير يجرى بين عدة قُرى مزروعة، كلها للحسن بن سهل صهر المأمون، وقد احتفل الصهر الوزير مثل ما احتفل الزوج المأمون، فقد سافر الخليفة ورجال حاشيته من القواد والكتاب والوجوه إلى منزل الحسن، فجعل الوزير ينثر بنادق المسك على رءوس الناس، وبها رقاع تحمل أسماء الضياع والجوارى والقلائد والعقود وكرام الدواب، فكل من حمل رقعة تحمل صنفًا من هذه النفائس فهو له، إذ يتقدم بالرقعة إلى وكيل الوزير فيتسلم ما كتب بها ضيعة أو عقدًا لؤلؤيًا أو فرسًا أو مملوكًا أو جارية، ولم يكتف الحسن بذلك، بل نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم كالمطر المنهل، وأنفق على المأمون وأفراد حاشيته وهم بالمئات ما لا يحصى، ولم يترك من أتباع الحاشية المكارين والجمالين والحمالين والملّاحين وكل من جاء للخدمة، ثم فرش للمأمون حصيرًا منسوجًا بالذهب، فلما وقف عليه نثرت لآلئ كثيرة فتساقط الزوار عليها يلتقطونها هدية مباحة، وحين توجه المأمون إلى العروس نثرت عليها جدّتها ألف درة كانت فوق صينية من الذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وقال للجدّة، ألك مطلب لى، فقالت تعفو عن فلان وفلان وفلان من خصومه السياسيين الذين استشفعوا بها لديه، فصدر العفو دون إبطاء، وحين

www.dvd4arab.com

رأى المأمون هول ما أنفق الحسن أمر له بإقطاعات كثيرة على نهر (فم الصلح) ومال وفير حمله فى الصناديق، فأمر الحسن بتفريقه فورًا على القواد والأصحاب! وهذا بعض ما حكاه أبى يوم تعرض لزواج المأمون فى درسه التاريخىّ بالمسجد!

فقال شمس الدين، قلتُ ذلك جميعه يا ولدى! فقال، وأذكرك أنك استشهدت ببيتين قالهما الشاعر محمد بن حازم الباهلى فى هذه المناسبة وهما:

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن

يا بن هرون قد ظفر ت ولكن ببنت مَن؟

وقد قلت تعليقًا عليهما، حار فكرى فى البيت الثانى، فما أدرى أهو مديح أو هجاء، فقال لك بعض تلاميذ الحلقة وأظنه أخانا سنان بن عامر، كل بيت يفهم منه المدح والذم معًا، فهو ذم إذ لو كان مدحًا لصرّح به دون لَبْس وما احتاج الشاعر إلى تورية، فقلت له يا والدى: صه يا خبيث.

قال شمس الدين: وأنت أيها الخبيث الآخر تتنكر تقريعى ولا تنساه، ما شاء الله! ثم ارتفع صوته قائلًا: هذه الهبات الجزيلة ليست حقوقًا خالصة للخليفة ولا للوزير، وإنما هى من حق بيت المال للمسلمين، من حق التعساء من المنكوبين، يأخذها من دعُو إلى الاحتفال وجلّهم من الوجوه والأعيان، وتبيت قلوب على الطّوى لا تجد كسرة خبز! أهذا إنصاف.

فاستدرك عبد الرحمن يقول: قلت إن الأتباع من الحمالين والملاحين والمكارين قد أخذوا ما سعدوا به فنظر شمس الدين

كأنه يعتب على ولده، ثم قال، ماذا أخذ هؤلاء يا بنى، ما أراهم أخذوا غير القشور، وبعد عنهم خالص اللباب!.. ثم سكت لحظة وقال: لنا الله.

قال سليمان بن نصر قد جاء دوْرى، وسأتحدث عن قصة زواج المعتمد ببنت خمارويه! فقال شمس الدين، هى أشهر من نار على علم، وهى بعيد عن مجالنا، لأن الذى أنفق خمارويه المصرى لا الخليفة العباسى!

فنظر سليمان كالمستنكر، وقال ما هذا يا مولاى، أليس المال مال المسلمين سواء من بغداد أم مصر، أو ليس الفقراء هناك يعانون ما يعانى الفقراء هنا! ما هكذا تعلّمنا منك!

فردّ شمس الدين، لقد أصبت يا سليمان، وأخطأ شيخك، ولسرورى بصحة رأيك أحبّ إلىّ من أن أكون أنا صاحب الرأى الصحيح، ولعلّ ما جعلنى أغفل حادثة بنت خمارويه هو أننا كنا نتحدث عن كنوز بغداد التى رحلت فوق المطايا إلى ما وراء النهر، وكنوز مصر بالقاهرة لم ترحل حفظها الله!

قال سليمان وإذن فسأنتقل إلى ما رواه مولانا عن قصة زواج الخليفة المقتدى بأمر الله بابنة السلطان ملكشاه السلجوقى، فقال شمس الدين أذكر جيدًا أنى ألممت بشىء من فصول هذه القصّة، وقد تباعد الزمن، فكلّت الذاكرة، وعليك أن تعيد فأستفيد.

قال سليمان: لقد نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخليفة المقتدى بأمر الله، على مائة وثلاثين جملًا مجللة

www.dvd4arab.com

بالديباج الرومى، وكان أكثر الأحمال من الذهب والفضّة الخالصين، ثم على أربعة وسبعين بغلًا مجلّلة بأنواع الديباج الملكى وأجراسها وقلائدها من الذهب الخالص، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقًا من الفضّة، لا يقدر أحد على تخمين ما تحوى من اللآلئ، ومن يدى البغال ثلاث وثلاثون فرسًا من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجواهر، مع سرير عظيم من الذهب الخالص، وقد سارت الجموع على شاطئ نهر المعلى فكان أعوان السلطان ينثرون من فوقهم الدنانير والثياب الفاخرة، ثم عرضت هدايا الخليفة وهى فى مجموعها لا تقل عمّا أهداه ملكشاه، ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان فى محفة مجللة بالذهب الخالص، وقد أحاط بها مائتا جارية من الأتراك يلبسن من النفائس ما يحيّر الأبصار وسِرْن بها إلى دار الخلافة فى ليلة مشهودة لم تر بغداد مثلها.

قال شمس الدين، لم تر مثلها بغداد يا سليمان وقد شهدت من قبل عرس بوران والمأمون؟

فرد سليمان: سيّدى لقد كان عرس المأمون بفم الصلح بعيدًا عن بغداد، حيث لم تشهد العاصمة غير المنظر الأخير حين رجعت العروس إلى قصر الخلافة! فأنا أعى ما أقول.

فقال الشيخ، حيّاك الله، وجنّبك الخطأ، قل يا بنى! فقال سليمان، فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لسماط كبير، تنوّعت فيه المآكل من لحم وفاكهة وحلوى وشراب، وخلع على الحاضرين جميعًا خلعًا نفيسة، وأرسل إلى الحريم

من خلع النساء مثل ما خلع على الرجال، وأخذ الناس يتحدثون بهذا الزفاف سنة كاملة كأنه عجيبة الأعاجيب.

فأطرق شمس الدين، وقال: إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين! وكان الشيطان لربه كفورًا.. صدق الله يا سليمان!

قال عبد الرحمن: أستدرك على أخى سليمان شيئًا ذابال، فقال سليمان عجّل، فقال عبد الرحمن، نسيت أن تذكر أن والدى سرد من أسماء الحاضرين الوزير العالم الحكيم نظام الملك، وقال مستغربًا: كيف يرضى الوزير الفاضل عن هذا الإغراق، ولا يحاول أن يشير على الملك ببعض الاقتصاد، وقوله مطاع لدى ملكشاه!

فحدّق شمس الدين فى وجه ولده مبتسمًا، وقال: تذكرت الآن اعتراضى على نظام الملك الوزير العالم الفقيه، وحاولت أن أفسّر سكوته على هذا التبذير فما اهتديت إلى رأى!

فقال سليمان، تذكر يا شيخى أن بعض الطلاب قد عقّب على قولك، فقال إن الدخول بين السلطان والخليفة وابنة السلطان فى أمر شديد الحساسية كهذا الأمر مما يتحاشاه عاقل حصيف كنظام الملك.

قال شمس الدين، ذكرت هذا الآن، ولكن الاعتراض قائم، لم يبدده ردّ الطالب النجيب، لأن الحق حق يا رجال! ثم ماذا هل بقى حديث عن عرس جديد؟

فقال سليمان حديث أخير يا سيدى، وقد سمعنا منك أيضًا، لأن أكثر دروسك كانت تسبح فى آفاق التاريخ.

Looloo
www.dvd4arab.com

قال شمس الدين، ومازلت أوثر قراءة كتب التاريخ، وأتخذ من عبرها البالغة مادّة للوعظ البليغ، فما هى قصتك الأخيرة يا سليمان !؟

قال سليمان، ليست قصتى يا مولاى، ولكنّها قصّة قصر الخليفة، وليست قصة الخليفة نفسه، لأن الأمير مجاهد الدين أيبك المستنصرى كبير أمناء القصر، وصاحب سر الخليفة قد خطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما حان قدومها خرج إلى تلقى العروس بدر الدين الظاهرى رئيس الشرطة وفى صحبته ثلاثون خادمًا وجماعة من الأمراء العظام معهم الوزير مؤيد الدين العلقمى ـ لاكان ـ فتلقوها بالأهازيج والدفوف ورقص الخيول، ثم حملت على الأيدى فى محفة ذهبيّة ووراءها جماعة من الخدم، فاجتازت بموكبها دار الخليفة حيث نثرت عليها آلاف الدنانير متجهة إلى جناح زوجها مجاهد الدين، ثم خلع الخليفة على الزوج من نفائس الهبات مايفوق الوصف، وركب من باب الأتراك ووراءه الجنود يحملون السيوف والحراب والنشّاب، فلما اجتاز موكبه باب البدرية نثرت عليه آلاف الدنانير، وكذلك حين اجتاز درب الدواب، فلو جمع ما نثر فى الأماكن الثلاثة لكان شيئًا فوق الحصر، وفى الغد عرضت الهدايا التى قدمت إلى العروسين فكانت تحفًا نادرة من الذهب والفضة وأنواع الثياب والطيب والخيل وآلات الحرب وكلّها محلاة بالذهب الخالص ثم ركب الزوج إلى دار الخليفة فى موكب هائل لمعت فيه

السيوف، وتراقصت الحراب بالأيدى، وفى مقدمته حمولات من أكياس المعادن الثمينة لا يدرى أحد عددها على التحديد، ولكنها شىء عظيم ..

قال شمس الدين، لم أقرأ عن زفاف بدر الدين ولكن أخبرنى به شاهد عيان، ولم يمض عليه غير أمد محدود، وأؤكد أن جميع ما ذكر سليمان من نفائس الزفاف قد حمله اليوم هولاكو فيما حمل من كنوز ولنا الله ! وهكذا إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا .. قُوما يا ولدىّ فقد آن أن أستريح ..

Looloo
www.dvd4arab.com

(فراسة حصيفة)

مرض شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، بعد أن اعتزل القضاء، لأمور وجدها تسبب ابتعاده عن رجال الحكم فى عهد السلطان الغورى، إذ ساءت العلاقة بين الرجلين، على وجه لا يحتمل المصانعة، ولم يبق غير الاصطدام، وليس فى طبيعة شيخ الإسلام المصاولة والصبر على النزال، فآثر الراحة الهنيئة فى ظلال كتبه وتلاميذه - وهم كثيرون كثيرون - ولكنّ توترات نفسيّة لم يستطع مغالبتها على ضعف الجسم، وتقدم السن ووهن القوة، فداهمه مرض ألزمه الفراش، وكان لا يمنع أحدًا من إطالة الجلوس معه فى محنته، لأنه يرى مسامرة العلماء، ومفاكهاتهم ممّا يقطع زلفًا من الليل، وقد عرف فيه أصحابه هذا الميل، فجعلوا يقسّمون أنفسهم، وينتظمون الزيارة، بحيث لا تخلو ليلة من ندماء، يتنادمون على البحث والدرس لا على اللهو والشراب، وفى ليلة هادئة اتجه إلى منزل شيخ الإسلام بحىّ الإمام الشافعىّ جلال الدين السيوطى، وأبو اليمن العليمى، والخطيب الجوهرى، وكان المريض فى دور النقاهة، يعى ما يقال ويُشارك فيه، ولأمرٍ ما حلّت بجلال الدين محنة عكّرت السلطان عليه فآذاه بقارص القول، وتلاقت الشجون فى حديث بدأه الجلال فقال: متى ينتهى تدخل الغورى فى أمور العلماء؟ وهو لا يدرك شيئًا ممّا يزاولون، فخاف شيخ الإسلام أن يتصل الحديث

بموقفه السابق، فقال فى هدوء: أمر الغورى معروف، ولنتحدث عن سواه.

فقال الجلال، كأنك تخشى أن ينتقل الحديث، وليس بيننا واشٍ نمّام، فكلّنا من رجال العلم وأئمته. ونحن فى حضرة شيخ العلماء!

فرد شيخ الإسلام، لا والله إنى أرى ثقتى فى أصدقائى العلماء كثقتى فى نفسى، ولكنى عزمت على ألا يجرى حديث القوم فى مجلسى، كيلا يعاودنى الإرهاق، كلّهم خبيث خبيث.

فعجّل أبو اليمن العليمى يقول لكل قاعدة استثناء، والأمير طومان باىْ، شاب ذو مروءة وإنصاف، وقد قام فى جانب الخير مقامات بدفع شرّ عمّه الغورى، ونحن العلماء نعرف تواضعه وأريحيته، كما نعرف له قدرًا من الذكاء، قدرًا كبيرًا لا يوجد فى نظرائه من أبناء طبقته، وأنتم نعرفون ما أعرف.

فقال شيخ الإسلام: لم تغب عنى نخوة طومان باىْ ومروءته، فقد جرّبته فى مواقف كثيرة، وكان عونى فى تنفيذ أحكام عادلة شاء الغورى أن يهملها، فمازال به حتى أرجع الحق إلى أصحابه، أما ما تقولون من ذكائه الذى جاوز به حدود نظرائه، فأنا أتطلّب مثالًا له.

قال العليمى. أذكر حادثة سمعتُها بالأمس، وقد وقعت يوم الإثنين الماضى، ولهج بذكرها العامة، فأصبحت تدور على كل لسان فى حىّ شيخون.

Looloo
www.dvd4arab.com

قال الخطيب الجوهرى، وأنا أسكن فى حىّ شيخون ولا أعلم عنها شيئًا ! عجل بها يا أخى، فعيب أن يعرف العامة أكثر ممّا أعرف !

قال الجلال السيوطى، وأنا أيضًا لا أعلم شيئًا عنها، ولكن عذرى واضح، لأنى كالسجين فى منزلى بحى المقياس، فى الروضة، ولولا موعد شيخ الإسلام ما بارحت المنزل، فقد كرهت الناس منذ صدمنى الغورى بتهكمه الثقيل، ولم أر مَنْ يردّه من زملائه السّاخرين !

قال العليمى: أعرف امرأة مسكينة تسكن قريبًا من منزلى، ولا تملك غير بضع دجاجات تعيش على بيضها، ولهما فتاة صَبِيَّة، رآها المملوك أرجوان فتبعها، فهرولت إلى منزل أمّها، وأغلقت الباب من خلفها، ولكن الوقح الدنىء كسر الباب ودخل المنزل، وقد اختفت الفتاة بركن لا يعلمه لأمر أراده الله، وإرتفع صوت الأم صارخة، فخاف أرجوان تجمهر الناس، وحمل قفص الدجاج وولّى، وليس للمسكينة من مورد سواه، فذعرت الأم، وشكت إلى الجيران، فافترحوا أن تذهب معهم إلى الأمير طومان باى، ليردّ المغتصب، ويردع الغاصب، ثم صار معها من وصلها بمجلس الأمير، فرأى الصدق فى ملامح المرأة، وفى دمعها الذى يتقاطر، فلان قلبه ! إشفاقًا، وحمل من الأرز والدقيق قدرًا كبيرًا، وذهب إلى منزلها، فجعل يتأمّله كمن يبحث عن شىء، ثم طمأن خاطرها، ووعدها برد ما اغتصب دون إمهال، ورجع إلى مجلسه ليرسل من يستدعى المملوك السفيه، فجابهه بما

صنع، فأنكر وبالغ، وادّعى أنه لم يأت حىّ شيخون من شهور، ولم يشهد أحد بأنه رآه، وكان طومان باى حين زار منزل المرأة لحظ كومة من الرمل تبلغ قدر مترين، ثم وقع نظره على حذاء أرجوان، فوجد بعض الرمل يعلق به، فصاح به، هيًا معى إلى منزلك، وقصده سريعًا فلم يجد به رملة واحدة؛ فقال له جئنا من المجلس إلى دارك، فما وجدنا فى الطريق حبّة رمل، حتى أتينا منزلك، فلم نجد به رملًا، قال أرجوان وما معنى ذلك؟ قال معناه، أن الرمل الذى علق بحذائك دون أن تراه قد علق من منزل المسكينة الذى اقتحمته وراء صبيتها، ثم استلبت قفص الدجاج ! ثم صفق الأمير بيده فنادى أحد الخدم طالبًا أن يُريه حظيرة أرجوان، وسار وراءه فوجد القفص بدجاجه، فقال له تحمله على رأسك وتسير إلى منزل المسكينة، وتعطيها خمسين دينارًا، وإلّا فسأبلغ الغورى ما رأيته بمنزلك من المنهوبات ! فأطرق الباغى، وسارع بالتنفيذ، وأصبحت أم العروس اليوم من الأثرياء !

تبسم شيخ الإسلام، وقال قصّة نادرة، ولو كنت مؤرخًا لسجلتها فى باب الفراسة القوية، لأن حبّة رمل فى حذاء قامت مقام عدّة شهود !

فقال الجلال، ولماذا تركت التاريخ فلم يكن له نصيب من ملفاتك يا شيخ الإسلام.

فابتسم الخطيب الجوهرى وقال نحن الثلاثة مؤرخون، ولا نبلغ قدر شيخنا الجليل، فلم يفته شىء !

فاعتدل زكريا الأنصارى فى جلسته، وقال: الحق أننى

www.dvd4arab.com

قضيت أكثر من خمسين عامًا، وأنا لا أطمئن إلى أحداث التاريخ، وكنت أقول أن الحادث يقع أمام عيوننا الآن، ويكتبه أكثر من مؤرخ، فلا تتشابه الأقوال، إذ ضمن فى بعض الكاتبين من يتجافى عن الحق، والناس هم الناس، فلابد أن يكون فى الماضين من سجّل الزّور، ثم عده الناس صدقًا غير مكذوب! فكيف نطمئن إلى ما قيل!

لم يطق السيوطى صبرًا بل اندفع يقول: لقد هاجمت المؤرخين جميعًا يا سيدى لشبهة ماثلة، ولكن أدفع هذه الشبهة فأقول، إن الأحداث لا يسجلها مؤرخ واحد، حتى يصبح قوله القول، ولكنّ عدة مؤرخين يتناولون الحدث الواضح، فإذا اختلفت الروايات، اتجه البحث إلى السند، وإلى مجرى الحدث، وإلى طبيعة ما يمكن أن يحدث، وهنا يترجح الصواب، وينفى الزيف، ومن هنا صدق التاريخ، إذ لا يصح غير الصحيح!

قال شيخ الإسلام، كلام جيّد أهنئك عليه، وقد أفدنا اليوم طرفة تاريخيّة نادرة من طرف الأمير طومان باى، فمن منكم سيقوم بتسجيلها، أنت يا جوهرى، فقد وقعت الحادثة قريبًا منك، وما شهدت إلا بما علمت!

فقال العليمى، قال شيخنا إن حادثة الأمير طرفة نادرة، ولكنّ صحائف التاريخ تروى أمثالها، مما يدل على الفراسة القوية، والنظر البعيد، فليست نادرة إذن؟

فرد شيخ الإسلام، الحمد لله، لقد اتسع مجال السمر فى رحاب التاريخ، بعيدًا عن معضلات الأصول والمنطق وعلم

الكلام، وكان الملوك من الأقدمين لا يسمرون إلا بطرائف التاريخ، فهل تكون الليلة ملوكًا! ابدأ يا أبا اليُمن فارو لنا بعض النوادر التى تراها شبيهة بنادرة طومان باى!

قال العليمى، على أن يذكر الجلال والخطيب ما عندهما، فهما من أعلام التاريخ.

ضحك الخطيب قائلًا، تقصد من أعلام المؤرخين، أما أعلام التاريخ جميعهم فأين أنا منهم! منهم أمير المؤمنين، وكسرى وقيصر، بل فى مقدمتهم الأنبياء والمرسلون!

قال شيخ الإسلام، لا تبعدوا يا قوم! هيّا يا جوهرى: ولا توجز فإن المجلس سيطول، وعندى استعداد للسماع فوضع الخطيب يده على جبينه كمن يجمع شارد المعانى، ثم قال:

أول ما يحضرنى فى فراسة الملوك وبديهة الحكام، نادرة الملك المنصور محمد بن أبى عامر القرطبى الذى قيل عنه إنه يحكم مملكة الطيور كسليمان بن داود.

فقال الجلال، لا يا خطيب. إن سليمان طلب من ربه أن يهبه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده! وما أظن مُلك الطيور سيتاح لأحد بعد سليمان.

فقال الخطيب، هذا مجاز لا حقيقة، ودونكم الحادثة كما رواها المؤرخون:

قصد المنصور العامرى تاجر من تجار الجواهر بالمشرق، فباعه الشىء الكثير من النفائس، وأخذ الثمن فى

www.dvd4arab.com

صرّة من الديباج، منصرفًا إلى شط النهر، وكان اليوم قائظا، والحر لافح وقاد، وعرق التاجر يتصبّب من كل أعضائه، فدعته نفسه إلى التبرّد فى النهر، فوضع ثيابه ومعها الصرة على الشاطىء، فمرت حدأة فأبصرت لون الصرّة وكأنها أعجبت بها فاختطفتها تحسبها لحمًا أحمر، وطارت فى الأفق إلى حيث لا يعلم أحد، وصعق التاجر، وقامت قيامته؛ وعلم أنه لا يقدر أن يرد ما فات، ولحقه همّ أقامه وأقعده، وأتى المنصور شاكيًا مستغيثًا، فهوّن عليه، ثم سأله هل هديت إلى الناحية التى اتجه إليها الطائر، فقال رأيته يمرّ من فوق الجبل متجهًا إلى ناحية الرملة!! فدعا المنصور شرطيّه الخاص به، وقال جئنى بمشيخة أهل الرملة سريعًا، فجاءوا فأمرهم بتفقد من يظهر عليه الثراء من مواطنيهم، ليأتوه به، ومضت أيام، فجاءه أحد هؤلاء يقول، رأيت رجلًا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده أجراء، ويسيرون على أقدامهم إلى موطن الزراعة الأبعد راجلين، عجزًا عن شراء دابة، فاكتسى اليوم حلّة متوسطة، واكتسى أبناؤه كذلك، واشتروا دابة فارهة!

فأمر المنصور بإحضاره من الغد، وحدد للتاجر موعد حضور المشكوك فى أمره، ليرى بنفسه ما سيكون، وما كاد الرجل يأتى إلى مجلس المنصور حتى قال له: سببٌ ضاع منا، وسقط إليك، فماذا صنعت به؟ فقال الرجل مضطربًا هو يا مولاى لدىّ، ولا أعلم أنه يتعلق بمولانا المنصور فأسرع بإحضاره إليه، فقال له هيا فأحضره، ومعك مَنْ يحرسك من الشرطه فلا تُبطئ! وما مرّت ساعة حتى كانت الصرة بين

يدى المنصور، فقلّبها بين يديه، وقال للفقير: هات حديثها ولا خوف عليك! فبلع المسكين ريقه مرات، ثم قال: بينما كنت أعمل تحت نخلة، إذ سقط أمامى شىء أحمر، فهرولت أبحثه، فوجدت ما لا أستطيع تحديد قيمته من الذهب، وكنت فى فاقة شديدة لا يعلم غير الله شدّة خناقها، فدعتنى فاقتى إلى أن آخذ عشرة مثاقيل كانت مصرورة بها، لأغيث بها أهلى، وانصرفت فاشتريت الدابة والكسوة لى وللأبناء، ولا شىء غير ذلك!

قال المنصور للتاجر، خذ صرّتك، واصدقنى عن عددها، فأسرع يعد ويفحص، ثم انتلق وجهه، وهو يقول: ما ضاع منها شىء يا مولاى غير عشرة مثاقيل، وقد وهبتها له.

فقال المنصور، نحن أولى بذلك منك، ولا ننغص عليك فرحك، وأمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا عن دنانيره، وللرجل بعشرة أخرى ثوابًا له، وقال: لو جئت إلينا بالصرّة قبل أن ندعوك لأجزلنا صلتك، ولكن تأخرت فوقفنا عند هذا الحد!

فتقدّم التاجر إلى قدم المنصور يلثمها، ويقول: لأبثن فى المشرق عظم ملكك، ولأبيّنن أنك تحكم الطير فلا تعتصم منك بحائل! فضحك المنصور، وقال: اقتصد فى قولك غفر الله لك، وانصرف سعيدًا إلى وطنك!

ثم قال الخطيب، فهذه فراسة لا تقل عن فراسة الأمير طومان باى!

ورد شيخ الإسلام، كم فى أحداث الأيام من عبر، وما بلغ

Leeloo
www.dvd4arab.com

المنصور هذا المبلغ، وقد كان كاتبًا صغيرًا فى محكمة قرطبة إلّا بمواهب رشحته للرئاسة، فقام بها خير قيام.

فضحك الجلال السيوطى وقال: يزعم شيخنا أنه لم يدرس التاريخ، وها هو ذا يقصّ عن ابن أبى عامر ما لا يعرفه غير الدارسين من أحوال نشأته! وإنى لأسأله ثانية: لم لم يكتب فى التاريخ؟

فقال شيخ الإسلام، دع هذا، وعليك أن تأتى بقصّة مماثلة لقصتى طومان باى. وابن أبى عامر!

فرد السيوطى: وهل تُرانى أنكص، وعندى فى هذا الباب ما يمتع ويروق!

فقال الجميع فى صوت واحد: هيّا إذن، فتطلّع إليهم جلال الدين، ثم قال:

سيكون حديثى عن عضو الدولة البويهى! فله فى باب الفراسة، وفى دنيا الاحتيال شوارد سائرات..

فرد شيخ الإسلام يقول فى صوت خفيض: لا أريد أن أظهر لكم اطلاعى على كتب التاريخ، فقد عرفتم جميعًا عزوفى عنه، وسبب امتناعى عن خوض ميدانه، ولكنّ ما بذاكرتى ممّا أعلم عن عضد الدولة، أنه كان عسوفًا جبارًا ظلومًا، وقد حارب أقرباءه الأدنين فى سبيل السلطان، وقطع الرحم الموصولة، فجاء مصداقًا لقول الله عزّ وجلّ «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض، وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم»!

قال الخطيب، هذا صحيح، وقد نكبت بغداد بمظالمه عهدًا غير قصير، ولكن أبا الطيب المتبنى مدحه، وبالغ فيما نحله من صفات لا تكون لغير الخلفاء الراشدين!

فرد الجلال، وهل المتبنى مؤرخ نزيه، إنه يسأل ويستعطى فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون: لقد مدح كافورا فرفعه إلى الأوج، ثم هجاه فمرّغه فى التراب، وكافور فى ميزان التاريخ هو كافور، مازاده مديح المتبنى المبالغ وما نقص منه هجاؤه القارص!

قال شيخ الإسلام، نعرف هذا جميعًا، فخذ يا جلال الدين فى ذكر نادرتك عن عضد الدولة قبل أن نستطرد إلى حديث الشعر والشعراء.

فقال جلال الدين: قرأت فى كتاب الأذكياء لأبى الفرج بن الجوزى، أن رجلًا قدم إلى بغداد فى طريقه إلى الحج، وكان معه عقد يُساوى ألف دينار، فاجتهد فى بيعه فلم يتح له بالثمن الذى يُريد، فجاء إلى عطار يشتهر بين الناس بالتقوى والصلاح، فأودعه لديه حتى يحج، ثم يرجع فيأخذه، ثم انقضى موسم الحج، وعاد الرجل يحمل إلى صاحبه هدية من مكة، ويطلب وديعته، فغضب العطار فى وجهه، وصاح به: مَن أنت؟ ولماذا تحضر إلىّ هديتك، وأنا لا أعرفك، ولا صلة لى بك من قبل، فقال الرجل دهشًا: أنا صاحب العقد الذى أودعتك إيّاه، فما سمع العطار ذلك حتى احمر وجهه، ورفسه بقدمه رفسة طرحته على الأرض بعيدًا عن الدكان، وأخذ العطار يصيح: تدّعى على هذه الدعوى! إياك من جرئ.

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم اجتمع الناس من كل ناحية، وعرفوا ما بين الرجلين من خلاف، فقالو للحاج الغريب: ويلك، هذا رجل خير، وما وجدت من تفترى عليه غيره، إلى من يظنّ فيهم الخيانة، وافتر عليهم بما تشاء، فقد يصدّقك بعض الناس، أمّا هذا، فحذار.

فتحيّر الحاج، وأخذ يستعطف العطار ويتزلّف، فما زاده إلّا شتمًا وضربًا، فجاء بعض المارة ووسوس في أذنه: لماذا لا تذهب إلى سيدنا عضد الدولة فله فى هذه الأشياء فراسة لا تخيب.

فكتب الغريب قصته إلى عضد الدولة، وهو إلى اليأس أقرب منه إلى الرجاء، فقرأها الحاكم الكبير متمهلًا ونافش الرجل، فآنس دلائل الإخلاص والصدق فى لهجته، فسكت مليًا، ثم قال له: اذهب إلى العطار بكرة، واقعد على دكته، فإن منعك فاقعد على دكة تقابله إلى المغرب، ولا تكلمه فى شيء، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإنى سأمر عليك فى اليوم الرابع، وأقف وأسلّم عليك، فلا تقم لى، ولا تزدنى عن ردّ السلام، وجواب ما أسألك عنه فى اقتضاب، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أعلمنى ما يقول لك، فإن أعطاكه فتعال به إلىّ!

فلما كان من عصر الغد جاء إلى دكان العطار ليجلس فمنعه، فجلس على دكة تقابله ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، اجتاز عضد الدولة فى موكبه العظيم، فرأى الخراسانى ووقف عليه مسلّما، فقال الخراسانى - ولم يقم -

وعليكم السلام، فقال عضد الدولة: أنت هنا يا أخى ولا تتقدّم إلىّ، وتعرض حوائجك، وتطلب ما تريد؟ كيف هذا؟ فقال الرجل: هذا ما اتفق ولن أشغلك، فقال عضد الدولة أنت عزيز عندى ولك علىّ جميل أستطيع ردّه فلماذا تحتجب حتى أراك مصادفة؟ كل هذا بمشهد العطار، وقد بلغ به الخوف أشدّ مبالغة، حذرًا أن يخبره الخراسانى بحكايته معه! حتى أغمى عليه، وسار ركب عضد الدولة! فلما أفاق صاحبنا، تقدّم إلى الخراسانى يقول له: ويحك، متى أودعتنى هذا العقد؟ وفى أى شيء كان ملفوفًا؟ فذكّرنى بربك لعلّى أذكره، فقال الرجل: من صفته كذا وكذا فقام العطار سريعًا، ونفض جرّة كانت لديه، فوقع العقد، فقال قد نسيت، ولو لم تذكرنى الآن ما ذكرت، فأخذ التاجر العقد، وقال فى نفسه: وأى فائدة لى فى أن أعلم عضد الدولة؟ ثم فكّر فرأى أنه لن يسكت عنه، ولكنه سيدعوه وسيقبض عليه إن رحل فى أى مكان، فذهب إليه ومعه العقد، فبعث حاجبه بالعقد إلى العطار، فعلّقه فى عنقه مدة طويلة حتى رآه جميع المارّة، ثم أمر به فصُلب يومًا طويلًا على دكّة محلّه، والعقد فى عنقه، والحاجب يقول: هذا جزاء من استودع الأمانة فجحد، وبعد العشاء نزل المصلوب متجهًا إلى منزله، فأخذته الحمّى، وما عاش غير أيام!

قال شيخ الإسلام، ذكاء مماثل، وعهدى بهؤلاء الطغاة ذوى احتيال وذكاء، يبلغون بهما ما يريدون فقال الجلال، ولولا الذكاء ما انتصروا فى الحروب، وقادوا الدول، وقتلوا العروش!

Looloo
www.dvd4arab.com

فعض زكريا الأنصارى بأسنانه على شفته وهو يقول : أما تجتمع القوة مع الرحمة ! أما يجتمع السلطان مع العدل ؟ أين عمر بن الخطاب يا قوم ! أكان فردًا بلا نظير !! لقد متعتنا يا جلال الدين كصاحبك من قبلك وجاء دورك يا أبا اليُمن فهيًا ...

قال أبو اليمن العليمى : القصص تتشابه ، وبعض يغنى عن بعض !

فصاح الجوهرى ، هكذا أنت دائمًا يا أبا اليمن ، حتّى فى مؤلفاتك تأخذ ولا تعطى !! فاحمر وجه العليمى ، وقال لن أرد بشىء يا صاحبى ! فنحن فى مجلس شيخ الإسلام !

فرد الشيخ زكريًا كالملاطف . إنّها مداعبة يا أبا اليمن ، والجوهرى والجلال وأنا قبلهما نقدر عطاءك العلمىّ ، ونعرف سبقك الميمون ، والجوهرى يستنشطك فحسب ولا يريد أن يسىء !

قال أبو اليمن : غفر الله لى وله ، وسأقول نادرتى عن الخليفة العباسىّ المعتضد ، فهل تسمعون ؟

فقال شيخ الإسلام ، وهل رجوناك إلا لنسمع ، عجّل يا صاحبى :

فقال العليمى : كان المعتضد يومًا جالسًا فى بيت يبنى له ، وقد جعل يشاهد الصناع والعمال يروحون ويغدون بآلات البناء ، وفى جملتهم عبد أسود ، عليه جهامة منكرة ، ينطق بها ملامحه السوداء ، ولكنه شديد القفز ، يضرب مَن عَلى يمينه

وشماله ، محتدًا ، ويصعد على السلاليم مرقاتين مرقاتين ، وهو يحمل ضعف ما يحمل غيره ، فقال المعتضد فى نفسه ، ما استخف هذا العبد بزملائه إلا معتمدًا على شىء يغنيه إن عوقب ، وانقطع عن العمل ، فأنكر أمره ، ودعاه ليسأله عن ضربه زملائه ، واستخفافه بمن حوله ، فقال لا أهتم بالعمل ، ويرزقنى الله من ألف باب ، فقال المعتضد لوزيره ، لقد خمنتُ فى هذا الشقىّ أمرًا ما أحسبه باطلًا ، إمّا أن يكون لديه دنانير ظفر بها من غير وجهها ، أو يكون لصًّا يتستر بالعمل ، ثم قال : علىّ بالأسود ، فسأله أين منزلك ؟ ومع من تقيم ؟ سنذهب إلى مقرك الآن لنعلم ما فيه ؟ فتلجلج الأسود فأمر بضربه ، وأقسم ليهلكنّه لو لم يخبره بمنزله ، فقال الأسود : ولى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم : إلّا ما كان حدّ الله ، فلم يفهم العبد عبارة الخليفة ، واندفع يقول : كنتُ أعمل فى أتون الآجر منذ قليل ، فمرّ بى رجل فى وسطه كيس ، فتبعته وهو لا يعرف مكانى منه ، فحلّ الكيس وأخرج منه دينارًا ، وتأملت من بعيد فإذا الكيس كله دنانير لا دراهم بها ، فانتظرت حتى مشى فى طريق خالٍ ، فكتفته ، وسددت فاه ، وحملته على كتفى ، وأدخلته فى التنور موقدًا ، وطيّنت عليه فلما كان بعد أيام أخرجت عظامه ، وطرحتها فى دجلة ، والدنانير معى تقوّى قلبى .

فساقه المعتضد إلى منزله مع شرطيين قويّين بعد أن قيّداه بالسلاسل ، ليحضر الكيس ، فإذا مكتوب عليه أنّه لفلان بن فلان ، فنادى فى المدينة ، فحضرت امرأته باكية تقول هو

Looloo
www.dvd4arab.com

زوجى وقد انقطع منذ أيام، وترك طفلًا صغيرًا، وقد خرج ومعه كيس به ألف دينار ليشترى منزلًا بالرصافة، فغاب ولم يرجع، فسلّم الدنانير لها وأمر فضُربت عنق الأسود، ورمى به فى التنور كما فعل بضحيّته!

قال الجلال، قصة المعتضد أغرب ما سمعناه، لأنه توقّع أمرًا لم تلح دلائله المعقولة، ولكنه لفراسته قرأ من الطيش فى صنيع العبد ما خمّن به وقوع مأساة، وهو ظن بعيد ليطرأ على ذهن غير ذهنه، وقد صدّق الواقع فراسته، ولقى العبد جزاء ما اقترفت يداه.

قال شيخ الإسلام، إن لله تدبيرًا يفوق كل تدبير، وقد ساق المعتضد ليرى العمّال على غير عادته، ليقضى أمرًا كان مفعولًا، كما أنه أورث هذا الشقى غفلة تنسيه مقام أمير المؤمنين، فجعل يعاكس زملاءه وكأنه غير عابىء بجلال الخلافة، وهيبة المعتضد، وهذا ممّا قدره الله، ليلقى شرّ ما اقترفت يداه، مهما بالغ فى التستر، وتلك عظة بالغة يجب أن تذيع على منابر الجمعة، ليعلم العصاة أن العقاب ليس مؤجلًا فى الآخرة فحسب، ولكنه معجل فى هذه الدار، والواقع من الأحداث شاهد صدوق!

قال الجلال، لقد كدتُ أحب المعتضد مع أن صحائف التاريخ مليئة بسطوه وتجبره!

فرد الخطيب يقول، هو ما ذكر الجلال، وعذر المعتضد واضح، فقد ولّى الخلافة بعد فترة ضاعت فيها هيبة الخلفاء، وتحكم الأتراك بعد مصرع المتوكل فيمن يولّى ويعزل من

أمراء المؤمنين، وما كاد يسلم شرهم خليفة يبايعونه اليوم، ويقتلونه فى الغد، وقد استطاع أن يضرب بعضهم ببعض، وحرص على أن يصدر الأوامر السياسية بقراره الخاص، وله عيون ترصد، وألسنة تروى، ومثل هذا يجب أن يترك اللين، فلو عُرف عنه الضعف، لأكله من أكلوا سواه، وإخالهم قد عزموا على التحرش به، فكانت يقظته من فوقهم، وحسبه هذا محمدة تسجل.

قال شيخ الإسلام، هذه من أنفس الليالى التى مرّت علىّ، ولعمرى إن المسامرة بأحداث التاريخ، تجلو الخاطر، وتنعش الوجدان، وأكاد أن أقول: وتشفى المريض، فقد تكرمتم بزيارتى، والصداع يضرب رأسى بالمطارق، ثم اتسع مجال القول، فهدأت ضجة رأسى، وبرئت على أيديكم أو كدت، وقد عاودنى نشاطى، فتذكرتُ أنّى قرأت طرفةً عن المعتضد تدل على حيطته وحذره، وما بى حرج أن أقوله ما دمت قد تخففت من الصداع!

قال الجميع (يصل كلُّ واحدٍ قول أخيه) عجل الله شفاءك يا شيخ الإسلام، ولو كان حديثنا ينجح دائمًا فى تبديد السقام للازمنا هذا المكان، ولكننا نعتقد أن الله قد حرس الشريعة بك، فهو يرعاك لها بتوفيقه وفضله، وستعافى نهائيًا بإذن الله، فهات ما عندك من حديث المُعْتَضِد.

قال شيخ الإسلام، قرأت فى كتاب أحمد بن يوسف، أن المعتضد بالله كان يسير بعسكره فى بعض النواحى، ومعه

Looloo
www.dvd4arab.com

نديمه عبد الله بن حمدون، فصاح رجلٌ فى مزرعة قثّاء، فاستدعاه ليسأله عن سبب صياحه، فقال إن بعض جنودك هجموا على المزرعة وأخذوا أكثر ما بها! فأمر المعتضد بطلبهم، فقيّدهم فى الحال، وأمر بحبسهم، فلما كان من الغد، ضرب أعناقهم، فأنكر الناس واستفظعوه، وقالوا: كيف يقتل ثلاثة جنود لأنهم أخذوا بعض ثمار القثّاء!

ومضى أمد غير طويل، فجلس المعتضد يحادث نديمه عبد الله بن حمدون، فقال له: هل يعتب الناس علىّ شيئًا، عرّفنى حتى أزيله، فقال النديم كالمتردّد: كلّا يا أمير المؤمنين، قال المعتضد فى لهجة ردّك ما يوحى بأن شيئًا هناك! فقال ابن حمدون: إن الناس ينقمون عليك أن قتلت ثلاثة رجال من أجل القثّاء! فقال، المعتضد والله ـ وما أحلف بربى باطلًا ـ ما قتلت أحدًا من هؤلاء الثلاثة، وإنما كان بالسجن بعض القتلة والسفاحين ممّن صدر الحكم بقتلهم، ووافق ذلك أمر صاحب القثّاء، فأردت أن أهوّل على الجيش ليرتدع، فأحضرت السفاحين، وقد سترت وجوههم، وأمرت بضرب أعناقهم، فظن الجند ومعهم الناس أنى قتلت من نهب القثّاء! وكان ذلك زجرًا ما بعده من زجر، فقال ابن حمدون، وكيف تعلم العامة ما صنعت، فقال المعتضد، سآمر بإخراج الجنود بعد صلاة الجمعة من محابسهم، ثم أستتيبهم، وأعلن أن جزاءهم الصارم كان القتل، لأنهم يسعون فى الأرض بالفساد، وإنما جزاء الذين يسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

الأرض، ولكنى حبستهم لأيام، فإذا عاد أحدهم أو قلدهم سواهم فالنص القرآنى صريح! وفوجىء الناس بما كان، فازدادوا إعظامًا لأمير المؤمنين!

قال الخطيب، وهذا احتيالٌ لبيب نابه! فهذا أيضًا ممّا نحن بصدده من الحديث!

قال الجلال، لقد كان من عادتى أن أدوّن كل ما أسمع من حديث العلم، ولو علمت أن هذه الطرائف ستقال فى مجلس شيخنا الأنصارى لأحضرت الدواة والقلم، وكتبت رسالة عن الفراسة والمتفرسين!

فضحك الأنصارى وقال ستكتبها بعد أن تذهب مباشرة يا جلال الدين، وستضاف إلى سجلّ مؤلفاتك الحافل، أما الخطيب والعليمى فسيقرآن ما قلت، ويقولان: صياد ماهر يجيد الاقتناص، فقال الجلال: أشرتم علىّ، ولابد أن أطيع!

ووقفوا مسلّمين!!

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفهـرس

الموضوع	صفحة
المقدمة	٥
إسلام عدى بن حاتم	٧
وا مثنياه	٢٠
معاوية ينصت لقوارص الملام	٣٥
محنة شاعر	٥١
دهاء عبد الملك بن مروان	٦٥
مصرع ابن القاسم	٧٨
مكافأة الجميل	٩١
غـدر ووفـاء	١٠٢
فى حضرة ابن طولون	١١٦
أم آسية	١٢٨
مبايعة هشام بن الحكم	١٤١
إلى فردوس الأندلس	١٥٩
صنائع المعروف	١٧٥
مناظرات علمية	١٨٩
فى مجلس أسامة بن منقذ	٢٠٧
الترف المبيد	٢٢٥
فراسة حصيفة	٢٤٢

Looloo
www.dvd4arab.com

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

د. محمد رجب البيومى

من شرفات التاريخ

فى صحائف التاريخ عِبرٌ ذات نفع للقارئ ، إذ يطالعُ من الأحداث ويرى من المواقف ، ويلمسُ من النتائج ما يفتحُ عينيه على حقائق مذهلة فى النفس الإنسانية ، وما يحيطُ بها من تيّاراتِ المجتمع الصاخبة ، وأسرار الهواجس الغامضة .

وإذا كُتِبَ التاريخُ فى إطار القصّة ، فإنّ هذه الأحداث المدهشة وتلك الانفعالات الغامضة تظهر بارزةً للعيان ، كأنّها الكائن الحى ، إذْ يجيشُ بالحركة وينبض بالدم .

وكتاب (من شرفات التاريخ) بأجزائه الثلاثة معرض حىّ ، لأدقّ مشاهد التاريخ . وأخْفَى سرائر النفس ، وأصدق ما يكشف القناع عن الوجوه الغامضة ، والشخصيات المقنّعة ذات الرداء المصطنع .

وسيجد القارئ متعة كبيرة ، فى استجلاء الغوامض ، وكشف السرائر ، وعودة الماضى البعيد إلى الحاضر القريب .

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٤٠ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٤